

فيحاء السامرائي

انتظار السمرم (محكيات)

رواية



انتظار السمرمر (محكيات)

المؤلف: فيحاء السامرائي
الكتاب: انتظار السمرمر (رواية)

صدرت النسخة الرقمية: أيار/ مايو 2025

صدرت الطبعة الأولى عن دار ومكتبة عدنان للطباعة والنشر والتوزيع 2016

- الناشر: «ألف ياء AlfYaa»
- الموقع الإلكتروني: www.alfyaa.net
- جميع حقوق توزيع النسخة الرقمية بكل التنسيقات (PDF، ePub و/أو أي تنسيق رقمي آخر محفوظة لـ «ألف ياء AlfYaa»
- جميع الحقوق الفكرية محفوظة للمؤلف
- يعبر محتوى الكتاب عن آراء مؤلفه.
- «ألف ياء AlfYaa» ناشرة للكتاب فقط وهي غير مسؤولة عن محتوى الكتاب



-
- تصميم الغلاف والإخراج: طالب الداود

فيحاء السامرائي

انتظار السمرمر (مدكيات)

الفهرس

11.....	المحكفة الاولى : مرثفة الزعتر.
41.....	المحكفة الثانية: غبار عجز.
225.....	المحكفة الثالثة: الشمس الباردة.
259.....	المحكفة الرابعة: تنهدات الياسمين.
291.....	المحكفة الخامسة: الأرض الطيفة.
323.....	المحكفة السادسة: عصير الظلام.
349.....	المحكفة السابعة: ما بعد الأحلام.

متنزه

لولا دعوتي له بالانعتاق لما وجد نفسه ولما رأى ما قام به
النور. سأحكي لكم قصّته وقصّة محكيّاته.

لا تندهشوا إن تحدثت إليكم بلسانٍ ناطقٍ للطبيعة، مبعث
الحياة وأم الكائنات، لعلكم تقولون، كيف لكائنات غير عاقلة
ولأشياء مجرّدة، أن تتحدث وتحكي؟ ما أدراكم بروح
وأحاسيس ومشاعر لنباتات وأشجار مختلفة في مملكتي؟
قضيتم وقتاً تكتبون عنّا، اسمحوا لنا قليلاً أن نحكي عنكم.

تبدأ حكايتي معه ذات ربيع، في موسم يبسط ذراعين من
الجمال على البشر علّهم ينعمون بغدق طبيعة، بنضارة شمس،
بغضاض دهشة واختلاج دفء. يغمرني الربيع بلطفه، يتأرجح
في الأثير، كما يصف شعرائكم، طلقاً مختالاً ضاحكاً، يكاد من
الحسن أن يتكلّم، ليوظّ أوائل ورد كنّ بالأمس نوّما. يتفنّن
بسجايا خصب خوالب، باخضرار طفولي باهر، بنسيم لاهٍ
بأماليد أغصان وبواسق أشجار من زان، بلوط، سرو، قيقب،
كستناء وكثير غيرها ممن تطلقون عليه الأسماء.

أحتضن عدداً من الناس كل يوم، هناك من يقطعني، كدرب
مختصر، صوب داره، آخر تشغله مكاملة من هاتفٍ محمول،
منهم من يمرح مع أطفال كثيري الصخب أو يمارس رياضة
الهرولة، وبعضهم ينزّه كلاباً كسولة وأخرى نشيطة راكضة.
لكن ثمة رجل يجلس على مصطبة بعينها غافلاً عمّا حوله،

دائم الانشغال بأوراق بين يديه، منكباً عليها، يرفع رأسه بين فينة وأخرى متمعناً في فضاءات أفكار أو سحائق ذكريات. علمي، تنتاب البشر حالة يسمونها الحزن، تجعلهم أشقياء مكدودين، منهم من يستسلم لها فينهزم، في حين يتصدى آخرون لها بأفعال مقاومة كعمل جسدي أو فكري.

من أمام السيد الكاتب، تمرّ يومياً سيدة أليفة. يثير انتباهها رجل غافل عن روعة اللحظة، منشغل بما لديه من أوراق، يجعلها تستفهم؛ "تُرى ماذا يكتب هذا السيد؟ قد تكون قصة حياته. لكل واحد من هؤلاء الناس حولي قصة، قد يكتبونها أو يكتبها أحد عنهم، كما وهناك قصص أخرى كثيرة تبقى بدون تدوين وتذهب مع أصحابها إلى قبورهم للأبد"

نادراً ما يتغير الجو على نحو مفاجئ في موسم كهذا وتهبّ ريح قوية مثلما يحدث في ذلك اليوم. يطيح هواء مشاكس بأوراق الرجل الكاتب عند قدميّ السيدة أثناء مرورها من أمام المصطبة. تغتتم الفرصة وتساعد على لَمّ ما يقع على الأرض: - ما يلهيك عن الطبيعة سيدي، ينبغي أن يكون هاماً على نحو ما.

- شكراً سيدتي

تناوله ما بين يديها باسمة. تبهر بصرها حروف لغة تحسنها تكلمه بها. يشكرها بأدب وتستأذنه بالجلوس بقربه على المصطبة، تتمتع لفترة كيف ينظّم بصمت ما في يده من صفحات حسب أرقامها. لم يرو فضولها حديث مبتسر بينهما عن الطبيعة وعن قضاء وقت فراغ. يصمتان برهة، بينما تفكر السيدة؛ "لا أظنه كاتباً معروفاً أو محترفاً. علام يخفي أوراقه عني؟ هل ثمة أسرار فيها؟ ليته يحدثني عما يكتب".

يسألها الكاتب بغتة عن مدى اهتمامها بالأدب، تهز رأسها

بإيجاب وحماس:

- جداً جداً. المطالعة هوايتي المفضلة، "حسناً، إلى حد ما، لا ضير من المبالغة بعض الشيء لمعرفة مضمون كتاباته".

يصمت الرجل قليلاً ثم يفاجئها بطلب يدهشها لأول وهلة: "هل لك أن تطلعي على ما كتبتة؟". بعد تردد لا يدوم طويلاً، توافق على طلبه في أن تكون أول قارئة لما يكتب، يلفت انتباهها:

- أرجو ان تلاحظي ما يلي: أن كل ما بين قوسين كبيرين (.....)، أغنية، وكل ما بين قوسين صغيرين "...." شعر أو مقولة لا أرى ضرورة لذكر أسماء قائلها إيماناً مني بأن الفكر والإبداع الإنساني ملكية عامة وليساً حصراً على اسم معين طالما لا ينسبهما أحد ما إليه. كما ألقت انتباهك إلى اني جعلت المناجاة الداخلية مكتوبة بخط غامق، وأنوي تضمين لهجات محلية عديدة إدراكاً مني لضرورة إدراجها في سياق الحكيم، مع جلّ احترامي للغة الفصحى. لاحظي كذلك استخدامي الواسع للجمل الفعلية القصيرة والكثير من الفعل المضارع، وقلة استخدامي لـ (أل) التعريف وأسماء الوصل وواو العطف والفعل الناقص كان، قدر الإمكان، لأن قواعد اللغة ليست مقدسة واللغة غير جامدة حسبما أعتقد.

- لك الحرية في اختيار تقنية ما تكتبه ولغته ، فذلك هو مشروعك الخاص، "الكثير من الأفعال المضارعة؟ لماذا؟ هل يريد الهروب من الماضي أم يعزم على إحياء الماضي في الحاضر؟"

- سأطلع على عملك وأرى بنفسني، غير أنني لا أفضل القراءة الصامتة. يحلو لي أن أجلس هنا وأقرأ لأشارك الطبيعة ما يصوغه البشر من خلق.

تفلت من شفتي الكاتب ابتسامة خفيفة:

- خير ما تفعلين سيدتي، لأن القراءة بصوت مسموع ستساعد على تبيان الحركات الضرورية لتنغيم الكلمات والفهم في هذه المحكيات، كما وتبوح للطيور بعض من أسرار بني البشر.

تتراجع السيدة عن طرح سؤال لم ينضج بعد، "ماذا عن التوابل الأدبية الراهنة، عن الخلطة العصرية من سياسة وإشارة بوليسية وتشويق جنسي وقليل من حكم التنمية البشرية؟ لا بأس بتوافقية ترضي القراء بكافة أذواقهم".

يناولها بتردد بضع أوراق. تأخذها السيدة شاكرة. يبقى جالساً على المصطبة، مطأطئ الرأس، غارقاً في أفكاره، لا يلفت اهتمامه ربيع ولا جمال.

ينشغل كلاهما عني. ينزوي الكاتب داخل قفص تأملاته، بينما تجلس السيدة على مصطبة أخرى. بصوت مسموع، تبدأ بقراءة مخطوطة، يأخذ الكتاب رأيها في عنوانين لها، "سكون السمرمر" و"انتظار السمرمر". "ماذا يحصل لو كانت بعنوان آخر مثير، على نحو - السمرمر العاري- أو - أنتظر السمرمر في فراشي- ، يقيناً ستكون أكثر تشويقاً، ولم لا، لم يبق ما هو مسكوت عنه في عالم الأدب اليوم، بعد نقد الدين والسياسة وتناول الجسد ومغامرته. لكن لماذا محكيات! لماذا هذه التسمية لجنس أدبي سردي؟ هل هو تجريب لثلم تقاليد فن الرواية، أم هروب من شروطها وقواعدها؟ على أي حال، لا شأن لي بالإسم ولا يتوجب الحكم على كتاب من غلافه أو عنوانه، لأقرأ وأرى".

المحكية الاولى

مرثية الزعتر



"لم أكن شخص الحكاية، كلها أصلاً/ ولم ينبت لسان في
فمي/ لأصوغ شخصاً أو خيلاً أو قناعاً / كل ما في
الأمر أنني، مثلكم/ هيأت نفسي/ كي أكون بطلقة امرأة /
فدوّت طلقة الجندي/ وارتبك المخاض"

مدينة السرو

تكتظ شوارعى بمارة من كل أطراف بني البشر؛ بائعين، مشتريين، سائحين، عابرين، سعيدين، تعيسين، غير مباليين، متشكّين، ضاحكين، يتخاطفون بين وسائل نقل حديثة متعددة تبعث عوادمها مخلفات تخنقني. ضجيج متواصل وحركة دؤوب لا تتقطع ليل نهار في متاجر، مقاه، مطاعم، محلات وجبات سريعة، أكشاك فاكهة، بسطات ملابس حديثة وأخرى قديمة، عيادات أطباء، مكاتب محامين ومهن أخرى كثيرة. أزمة زحام تخفت عند شاطئ ممتد على حدود بحرية، أو في فضاء جبلي ومساحات خضراء من أشجار السرو.

يتدفق غرباء على أرضي، تملأني روائحهم ونفحات وطن بعيد منبعثة من ثيابهم. تحت سمائي وجوه مستنفرة متعبة بعيون مهمومة وبنظرات حائرة غير مبالية بإجواء فرح، أطفال يصرخون بسبب أو بدونه، أرباب أسر يرتدون بدلات مقاتلين خاكية، يحثّون خطى متعجلة بين أبواب مكاتب منظمات فلسطينية وبيوت مشتركة تأويهم، يتسللون إلى مقاه وحوانيت قريبة، ينظف بعضهم قطع سلاح متأهبة لصد اعتداء وأعداء، شابات سمراوات يتمخترن بقمصان بدون أكمام وسراويل جينز. شباب بشعور وزلوف طويلة يتسكعون بتمهل، يقضون لفات فلافل، يترقبون باهتمام أخبار بلدهم، سيارات

عسكرية مسرعة، رشقات أسلحة، أغاني ثورية، خطب حماسية من أجهزة راديو. حياة مائجة.

على أرصفة شوارع، مجلات شتى، منشورات، بيانات ثورية، نداءات بائعين، بضائع مهزّبة. تهبط على أرضي قبيلة سندباد سياسية متشرذمة، يمرّ أصحابها بمحن، بتهديدات يومية واتهامات عمالة، باغتيالات، تفجيرات، قصف طيران، سيارات مفخخة. يقضي بعضهم لياليه مخموراً ناحباً، كاتماً وجعاً يشي بحنين، شاعر رقيق يقرأ قصائد عن غربة لا زالت في طفولتها، مغن يرفع صوته بمواويل عن مراتع صبا وأم حنون (مالي صحت يمه أحّا چا وين أهلنا)، شاب لم يغادر قريته من قبل، يتخيل كيف يصف لأصدقائه جمال مدن عديدة مرّ بها لو يرجع يوماً ما. بعضهم يرقص على نغم كلمات مشحونة بخيبات مرحة (سوّاها البعث رحلة سياحية). متحزبون تحتدم نقاشاتهم، يلوّحون بأيديهم، يرفعون عقيراتهم بشتائم يطعمون بها آراءهم. يتفقون، يحلفون، عقب سجال غير مجد، على ألا يتكلموا بالسياسة بعد اليوم. يصمتون برهة. تندّ عنهم تأوهات، أنفاس عميقة مسحوبة من سجائر وأرواح مرهقة مهمومة. ليس ثمة ما يتحدثون به، لا موضوع غير السياسة يجمعهم، لا يشغل بالهم أمرٌ آخر غير مصيبة تغربهم وتشردهم. يلسع عقب سيجارة أصبع أحدهم، يلعن بصوت عالٍ: "انعل أبو صدام". يغتنم آخرون فرصة ينتظرونها، يرجعون مرّة أخرى إلى نقاشات وتحليلات سياسية عقيمة، تعلو أصواتهم ثانية، يتصايحون، يلومون آخريين، يشتم بعضهم البعض، يقوم أحدهم بصفع طفله، يتحول الصراع الكلامي بينه وبين زوجته، يتدخل آخرون، "كلّه من ورا البعث". يتعبون بعد منتصف الليل، يستفرغ بعضهم ما في جوفه، يخلدون إلى نوم مضطرب في غرف وشرفات شقق مكتظة ببشر طارئين،

تاركين ديارهم عنوة حفاظاً على أرواحهم وكرامتهم. يجد
البعض عملاً تحت سمائي، يستقر في سكن متواضع، يرحل
آخرون إلى محطات أخرى بعيدة، أو إلى أماكن أقرب للحدود.
لا تحتمل صخبي عودة العراقية، تغادرني إلى مخيم لا يبعد
عني كثيراً.

* * *

مخيّم

أقع في أطراف مدينة صغيرة، تشكّاني مجموعة دور عشوائية عديدة ومستلزماتها. كل جدار من جدران أزقتي، لا يخلو من كتابات ذات طابع عسكري، بوسترات ملونة، رسوم، شعارات: اننا راجعون، نموت وتحيا فلسطين، يا جبل ما يهزّك ريح، خارطة فلسطين، علم، صور لقادة مبتسمين، متأمّلين، غاضبين، رافعين أيديهم توعداً أو بإشارات نصر، يافطات محلات متناثرة، تحمل أسماء شهداء، مناضلين، مناضلات، وأحلاماً مغدورة: لبّان القدس، معجنات دلال المغربي، سَمّان العودة، لحام التحرير، بقالية الشهيد كمال عدوان، خضرجي الخليل، أزياء البطلة ليلى خالد. مدرسة الشهيد القواسمة.....

عند عتبات دورهن، تجلس نساء بجلاليب فولكلورية مطرزة، ينقيّن عدساً أو ينزّعن أوراق ملوخية عن أغصانها ويقرّعن من حين لآخر، أطفالاً مشاكسين لا ينتبهون إلى كلامهن. وعلى دكّات دور متراصفة جوارهن، يقعد شيوخ بكوفيات بيضاء، حالمين بماض ولّى، مدخّنين بصمت سجائر رخيصة، ناشّين ذباباً حائماً حولهم بمجلات ملونة كالهدف، الحرية، فلسطين الثورة، صوت الشغيلة، وكثير غيرها. يؤرخون حياتهم بتاريخ معارك، بحروب دارت وتدور، يحفظون عن ظهر قلب أعداد أسرى وعدد سنين سجنهم أكثر مما يتذكرون عدد أولادهم وأحفادهم. شباب جائلون في

شوارعي، يتناولون في أحاديثهم أسماء فصائل ثورية، انتماءاتها، توجهاتها، نقاط اختلافاتها، مرتّبات تمنحها لمنخرطين في عملها النضالي، أنواع ومصادر أسلحة. يتبارون بأسئلة عن ملابس، سحنات، خطابات، وعدد شعرات شوارب قادة وثوار.

في أزقتي، تمتد آثار بلل عبر درب ضيق، يوصل إلى صنبور رئيسي يزودني بالمياه من بئر هناك، تحمل فتيات وفتيان قدوراً، يملؤونها بما يستطيعون من ماء، ينسكب معظمه في الطريق على أسماهم، وما يتبقى، بالكاد يملأ طست استحمام. تتجنب كاميرا قناة تلفزيونية أطفالاً صغاراً بشعر مُشعّ وذباب يحوم حول أعينهم. تعدّل مقدمة البرنامج شعرها وتوسّع ابتسامتها قبل التصوير، تحكي عني، عن مدخلين وسور عال يطوّقني، عن أصلي ككتنة عسكرية لدولة أجنبية احتلت هذا البلد في الماضي القريب، لأتحول بعد زمن إلى مأوى للاجئين، يسكنون في عنابر الجنود واسطبل الخيول، ويحلّ فيها نازحون جدد، بينهم أخوان عرب:

- عفواً من وين أنت خيي؟ من العراق؟ أهلاً بإخوانا العراقيين بين أهلهم وعلى أرضهم. والآن أماننا أرملة، أستشهد زوجها وابنها في معارك التحرير والعمليات الفدائية. كيفك خالة ام شاهين؟ من إمتى إنت هون؟ وشو هيدا اللي معلقته في صدرك؟

- من زمان يمّا، من يوم ما دبّح اليهود أهلي وولاد عمي وسلايفي وكرسحونا. هاد مفتاح دارنا في لوبيا على صدري، خذتو معي لما رحلت عنها، أحلم كل يوم أرجع هناك، بديش إشي غير أرجع، الله يرد كل غريب لداره.

- وكيف الوضع هون بالمخيم خاله؟

- يَمَا صارت الدنيا غير شكل، ناس توكل ناس، هاد
الفتحوي وهاد الجبهاوي وهاد ايش درّاني و..
تقاطعها المذيعة شاكرا حينما تلمح حبيبة:

- حبيبة بكر اوي، ممرضة في منظمة الهلال الأحمر، فتاة
بعطاء غزير وإرادة جبارة، تمنح عونها لمن يحتاجها بلا
مقابل، تتحرك بقوة أمل لا يمكن التكهّن بمصدرها، تتفرد
بملاح حادة وجادة، تزخر بقوة إرادة وقدرة على إتخاذ أكثر
القرارات صعوبة، من يراها يوقن بأنه لا مستحيل في هذا
العالم وأنه بجانبها ضئيل متراجع، تبدو جامحة حتى في كلامها
ولغة جسدها، بسيطة في هيئتها ولبسها، تخفي رافة حانية في
روحها لا يدركها إلا من يعرفها جيداً، يحكي الجميع عن
موقف بطولي لها حينما حملت على ظهرها الختیار أبو شادي
وركضت به إلى الوحدة الصحية يوم أصابته بنوبة قلبية. لمّا
تدبك حبيبة مع الرجال، يرتفع رأسها نحو السماء، تدكّ ما
تحت قدميها بصلاية، حتى يخال للناظر بأن لجذور الأرض
وقدمي تلك الفتاة امتداداً واحداً. يصفها المختار أبو صطيف
بأنها شعب في إمراة.

- أهلين حبيبة، كيفك؟ منيحة؟ بدّي أسالك عن رأيك بالمخيم؟

- المخيم؟ ياستي عالم منسيّ، تسلّط عليه الأضواء بوقت
النكبات بس، عالم داخل عالم، دولة داخل دولة، شعب داخل
شعب، دولة داخل شعب، يعني بالآخر دولة "ناي..يه" شعب.

تتمدد دور عديدة داخل أسواري، يحكي أحدها عن نفسه.

* * *

بيت أم شاهين

في غرفة من غرفتي، تفرش حبيبة بكر اوي حشية من خيش، تغطيها بشرشف تخيطه أم شاهين من قطع قماش زائدة. تخاطب ضيفتها، عودة العراقية :

- هاي حرامات نظيفة، ريحي عودة، بشوفك هلكانة، بكرا تتيسر. قال أبو العز قال. ببيكون - أبو الطز- أنسبله. لا تزعلي مني، فش واحد غلطان غير زوجك. كيف يرضى بالوضع؟

عبتاً تحاول حبيبة إقناع ضيفتها بتغير طريقة أسيانة تهيمن على تفكيرها، لا يعجب حبيبة ما تدندن به عودة من ألحان وأغانٍ: (ضيّعت عليه العمر يا بوي، وأنا ليّه معاه حكايات). مامن شيء أسوء من تضييع العمر، هل ثمة ما يستحق أن يضيّع البشر حياتهم من أجله؟ حتى شعارهم بأن أسمى الأمانى هي أن يموتوا في سبيل الوطن، لا أحسبه سليماً. لماذا لا يعيشوا ويعملوا ويرتاحوا؟ لماذا لا يكون هناك شيء يستحق أن يحيوا من أجله، كحلم أو أمل مثلاً؟ تبتسم الفتاة الغربية، يبوح حالها بأن ما يشقيها هو الأحلام والآمال بعينها، أشك بأن وجودها بين جدراني إحدى أمنياتها.

صوت موسيقى عالية آتية من بيت مجاور يحدث ارتجاجاً في جدراني (حين يصيحا البروكي ما في عوكي، كلاشنكوفي يسابكني يطير من شوكي). تطلب حبيبة من جارها -القاروط -

أن يخفض صوت جهاز التسجيل. لا يسمعها (والشوك يا
يايمّه، رصاص داوي، وإيدين تشدّ من ليلي خيط شروكي).

أعجب من الفلسطينيين، يتلذذون بسماع أغان ثورية حتى
قبل النوم.

- يا قاروط الزفت، إطفيلي المسجلة، تعرف لو جيتك،
بخليكش تشوف خيط شروك بكرة.

يتعكر مزاج حبيبة، تشتكي من بقعة أرض تسكنها مع أمها
وأخواتها، لا يحق لهم فيها تملكاً، تجنساً أو عملاً خارج إطار
حدودها، ينزح إليها سكان آخرون كلما تتفاقم مشاكل جديدة
لذلك الشعب، يخضعون إلى عملية تغليب في غرف متلاصقة
وضيقة مثل غرفتي، لا تزيد مساحة كل غرفة عن بضعة أمتار
طولاً وعرضاً، مفصولة بقطع قماش عن غرف أخرى،
يستخدمها ساكنون مهمّشون لنوم، طبخ، دراسة، إستراحة،
لمناكحات ومناكفات. تركيب عشوائي من صفيح، كل شيء
يفصح عن إهانة بشرية، عن احتقار للكائن الإنساني وللجنس
البشري، مكان أشبه بزرائب بشرية، أسوأ ما فيه عدم وجود
شبكة تصريف مياه. ثمة دورات مياه عمومية، يغدو الذهاب
إليها ليلاً عسيراً لساكنين من أطفال وكبار سن، غالباً ما
يؤجلون قضاء حاجاتهم لكسل أو عجز. أرثي لحالي وحالهم.
أسمع حبيبة تتأفف، "عيشة زفت". تسمعها صاحبتني أم شاهين
الحنون، تنتهزها فرصة لتغمغم بتبرم من دون توقف:

- يمه هاي قسمتنا هيك، من يوم جينا بهي البراكسات...

و...

لا ألومها. تشكو مني، من أصلي كاسطبل للخيل. تجعل من
كل فسحة كان يربط فيها حصان، مكاناً لنوم أحد أفراد أسرتها،

أراها كل صباح وكل مساء مهمومة من مكان لا خصوصية فيه ولا سعة، جالسة أمام فرن حجري وطبخ صغير في ركن من أركانها تسميه مطبخاً، تشوي معجنات تبيعها أو تعد قهوة لا تملّ من شربها.

تقاطع حبيبة حديث والدتها، لو تتركها تتحدث، ستمضي الليل كله في الشكوى، تذكرّها بيوم عمل جديد يتطلب نهوضاً مبكراً، وبضيفتهم عودة التي هي بحاجة إلى راحة. تلتفت إلى فتاة نائمة بجوارها: "عودة. عودة. غفيتي؟ نامي نامي، تصبّحي على خير، بكرأ يكون غير شكل، من غير كوابيس".

* * *

كابوس

أنتظر نومها حتى آتي إليها، تدير وجهها للحائط، تتظاهر بالنوم، غير أنها تأخذ وقتاً طويلاً في تأمل حالها والاختلاء مع نفسها، "من هي عودة تلك، من أعطاني هذا الاسم؟ لا أرد سريعاً في كل مرة ينادي عليّ أحد به، لم أعود عليه لليوم. لو تركوا لي فرصة الاختيار، ترى أي اسم سأختار لنفسي؟"

تهزأ من كلمة اختيار، لا اختيار لمن لم يختر وجوده في هذا العالم ولمن يأتي إلى الحياة بقرار من غيره، لا اختيار له في صفات بيولوجية وما يتبع ذلك من دين وبيئة وأصول وتربية واسم ينتقونه له.

"يذكر أخي هشام بأن إسمي نيدايا، هو تيمناً بآلهة سومرية تنبت عيدان قصب على كتفيها، مقدر لها أن تنمو متحدة بأرضها جسداً وفكراً كما يتشبث نبات بتربته وناس الأهوار بأرضهم. يأمل أن تكتب هذه المولودة بقصبها ما هو مفيد وأن تصدح بألحان شجية كآلة ناي مصنوعة من القصب. لا تقتنع أختي فردوس بأسباب ومصادر هشام في اختيار اسمها، تفصح عمن أطلق عليّ هذا الاسم وهو معلّم فاضل من الأقرباء، شغوف بعلم التاريخ، بالآثار وبفقه اللغة والأنساب. كان الاستاذ الجليل يسألني: ماذا نطلق على الرجل الذي من الشام؟ أقول له: شامي. والذي من عُمان؟ أجيبه: عماني، يرجع ويسأل، والذي من البوسنة؟ بوسني. يؤشر

إلى خده. أبوسه ضاحكة. والذي من فاس؟ (فا....). نضحك كلانا من القلب. لكن يقسم جيران ومعارف لنا بأن قابلة العائلة اقترحت اسمي بعد أن أذنت بأذني وباركتني. تنفي والدتي، أم هشام، ادعائهم قائلة: "تذكرين فطائم الخياطة؟ هي من اقترحت عليهم الاسم بعد ما سمعته من العوائل الراقية". ينفي أبي، عبد الهادي، هذا الهراء و"الخرط" كما يصفه، ويأتي بفخر إلى ذكر من سمّاني بنيدابا، مرفوسه في العمل، المرحوم السيد "شمت" منقّب الآثار، بدليل أنه أراد أن يسمّيني نيسابا، غير أنه ولأسباب منطقية وجغرافية، اختار بديله الأكدي".

لا يتحقق شيء مما تتمنونه أيها البشر طالما أنه لا تتوفر لديكم امكانية الاختيار، لا تملكون أيما وسيلة أو مقدرة على الإجتباء، وحتى إن اخترتم، تأتي معظم اختياراتكم غير سليمة بسبب تلبككم، والحال نفسه مع أمانيكم الذاتية أبداً، وإن يحصل يوماً وتتحقق واحدة منها، تأتي باهتة متأخرة، تكونوا قد فقدتم شغفكم بها، فالأشياء الجميلة ينبغي أن تأتي في وقتها المناسب، فلا يصبح تغريد الطيور ممتعاً حين تكونون في حالة نعاس تواقين إلى هدوء وخلود إلى النوم.

أتاكم أثناء نومكم بملء إرادتي. لا تختاروني في مناماتكم، أجيء، كما يشرح علماءكم، عن طريق اختلال ناقل عصبي في المخ ناجم عن اضطرابات نفسية ومتغيرات اجتماعية تأخذون بواسطتها همومكم إلى الفراش. حكماء منكم يحذرون: "إياكم أن تناموا مكتئبين مهما كانت حياتكم بائسة".

لا يأتي لعودة أو نيدابا النوم بسبب يقظتها وتفكيرها. لم تتعرف على هذه البقعة على الأرض من قبل، لم يخطر لها أن تبيت في مكان لا يشبهها ولا تشبهه، أو أن تأويها أسرة غريبة.

ناس في بلدها، يلقون باللائمة على أولئك لأنهم تركوا بلادهم وتشرذموا في بلدان أخرى. تتذكر بشوق زملاء من هذه الأرض درسوا معها في الجامعة، تحفظ أسماء كتاب، روائيين، شعراء قرأت لهم وأحببتهم، تترنم بأغانهم (سنرجع يوماً إلى حيناً).

يوشك صبري على النفاد. أراها تتقلب على فراش ضيق قاس، يسرّب حزناً خشناً إلى جلدها. صورة نكسة أخرى بعيدة تخطر في بالها. يتحلق الكبار حول مذياع صغير في بيت أخيها غير الشقيق أثناء حرب الأيام الستة، يتابعون أخباراً متسارعة تفصل بينها أغان حماسية. في الحديقة، تؤدي نيدابا مع بنات أخيها غير الشقيق، دور فدائية، تضرب بأسلحة وهمية عدواً وهمياً، طاخ طاخ طاخ. تزحف على الأرض بعناء، تنهض برأس مرفوع، تتشد: (أمجاد ياعرب أمجاد، في بلادنا كرام أسياد). بين فينة وأخرى، تتلصص النظر من الباب على من في الصالة، تجسّ وقع الأحداث في عيون أبيها وأخوانها، يطردونها بإشارات غاضبة من أيديهم وبنظرات قلقة. تفرح لما يفرحون ويقومون بعد طائرات ساقطة للعدو، يهللون لتقدم قوات بريّة واكتساحها معاقله، تقنط لتجهّمهم بعد الهزيمة وخروجهم إلى الحديقة لتدخين سجائر هزيمة ومعاقرة وهمّ. (كان وهماً وأمانيّ وحلماً، كان طيفاً).

تغمض جفنيها، غير أنها تغالب النوم (هل ننام وشراع الحق حطام، هل ننام ودروب الحق ظلام، وبيتنا الحبيب يسكنه غريب ونحن لاجئون في الخيام؟). ربما تخشاني أو ينتابها قلق مزمن لا بدّ في صوف تكوينها. تتلمس أوراقاً تحت وسادتها، تطمئن على وجودها وعلى جواز سفرها وبطاقة هوية:

الاسم: عودة سرحان نظمي

لون العينين: خضراوان

لون الشعر: خرّوبي

لون البشرة: سمراء

محل الولادة: الجليل- فلسطين

المهنة: مناضلة

المنظمة: الجبهة (.....) لتحرير فلسطين

أتربص بها ابتغاء مباغتتها، لكنها تفكر بأمر آخر، حبها
الأزلي، تحاول اقتناص طراوة ممهدة لنوم هانئ.

من الشاطئ إلى النهر، يمتد دخان سجائر ينفثه مخذ، يحكي
بالتماعة عينين تبهرها:

- تذكّرني ببطلة قصة ليوسف ادريس وأنتِ سارحة.

..... -

- راح تصيرين مدرّسة مثلها، أصغر وأحلى مدرّسة.

..... -

- حسناً، أعتقد نبدأ هذا الحال أفضل. عمر الحب قصير،
و"الأشياء الجميلة ينبغي ألا تكتمل كي لا تفقد جمالها".

يفيض بمفاهيمه عن الحب، عن حياة أرقى وأبقى من ورقة
عقد، علاقات ميكانيكية، أولاد، منغصات حياتية يومية، تتشكل
بمعادلة رجل وإمراة في بيت واحد. يحكي عن عادات
وممارسات تقتل الحب وتعيق زهرة الجمال من التفتح، يسهب
في نقد موروث ومألوف، جمود ورضوخ لقيود، لمعايير،

لقواعد سلوكية نمطية. يترجاها بعينيه أن تحفظ تلك الزهرة، تحميها من ملالة وضياح، أن تتوقف عند حدود الحقل دون التوغل في أشواكه ووحله لكي تخلد صورته الزاهية في بالها ولا تصاب بفجيرة فقدان، "لا أريد أن احبك فقط/ أكره العادي والسهل بيننا، لا أراه يليق بنا/ أكره التقليد والمتوقع والمعروف والمألوف/ ليكن ما بيننا استثناء/ كاستثنائية الوجد الذي ينمو فينا/ كاستثنائية هزائم وانتصارات لم تأت بعد".

لا تتمكن من رقاد، يحلّ النصف الثاني من الليل على عجل، أخشى أن يقدم النهار، صائد الكوابيس، ولا تغفو. سأنتقم منها، سأتي لها بشكل بشع تبقى تتذكره ما حييت. تنقلب على يمينها يترن قرب أذنها بعوض عنيد. تزن ذاكرة توجعها، تحول بينها وبين إغفاءة سريعة. تأتي صورة أمها في بالها، تطرق أبواب الجيران، تجمع تبرعات لللاجئين.

"بم تفكرين الآن يا أم هشام؟ هل مازلت تتلمسين أشياء تركتها في غرفتي، سريري، أوراقي، مصباحاً أقرأ على ضوءه. تتطلعين نحو كتيبي؟ ترى أين مكتبتني اليوم؟ هل ألقت محتوياتها التور أم دفنتها في الحديقة؟"

تتعب، تغطّي رأسها، يباغتها نوم مفاجئ. تحين فرصتي لأنقضّ عليها بأشكال من جواثيم قديمة، مستحدثة، متنوعة، متغيرة، أثقل من الجبال على صدرها، أدخل الفرع إلى قلبها والروع إلى نفسها. يالهول ما سترى مني الليلة!

أباغتها برجال أمن، يتسلقون الجدار إلى سطح دارها، جنود مزودين بأسلحة وأجهزة كشف متطورة، بهنود حمر يحملون أقواساً ورماحاً، تبعث صيحاتهم هلعاً وقشعريرة في جسمها، ترتعش هلعاً في نومها. يحاول همجيون الاقتراب منها لسلخ جلد جمجمتها، يتحولون إلى كائنات قريبة تقرب من الوحوش،

يتقدمون صوبها بخيول وصرخات بربرية، تتطاير رؤوس بسيوفهم شمالاً ويميناً. جلبة، عويل، قتل، دماء، أنين، أشلاء. أطاردها بملابس جنود نازيين تدق الأرض أهدية ثقيلة لهم، تحرّكهم أوامر بتصفيات في البقعة من دون تحقيق. تنزوي في مخبأ منعزل. تقفل بابه مرتعبة. تسمع أصواتهم حادة أمرة آتية من بعيد، "هايل هتلر". يتقدمون نحوها، يقفز آخرون بمظلات. تلتصق بركن مخبأ يكون مكشوفاً لديهم، تلتقط أذناها أي نأمة، تتجمد الثواني في أنفاسها، ينوس قلق في رأسها، تلمحهم من كوة صغيرة في الجدار. تدير المفتاح في سقاطة الباب لتقفلهما، لا تقدر، لا يسعفها وقت. يستدلون عليها. يمسك أحدهم مقبض الباب محاولاً فتحه. تتصيب قطرات عرق بغزارة منها، تتسارع نبضات قلبها. تسمع ركلاتهم وصراخهم. تفتح الباب بقوة. لا منجى، لا مناص من قبضات ممتدة نحوها. تبتلع ريقاً مرّاً. تصرخ دون صوت. تفتح فمها في طلب النجدة، لا يخرج لها صوت أيضاً.

من كوة جدار الغرفة، تطل بواذر صبح، تطردني أصوات صياح ديك. أسمع سعالاً و"إحمم" قوية من رجال يجوبون المخيم باكراً طلباً للرزق، نبرات أصواتهم خشنة تنم عن رجولة.

* * *

رجولة

يفهمني بنو البشر كل حسب وعيه وبيئته، وفق مفاهيم اجتماعية متباينة. بعضهم يختزلني سلبياً بمظاهر عنصرية، بتسلط عضلات وشوارب ذكورية. البعض الآخر يجسّدي بمظاهر أخرى إيجابية، تتجسد في قوة إنسانية تلغي مظاهر قوة جسمانية، تتوخى قيم شهامة ومسؤولية. أتميز في وجودي عند كلا الجنسين فناً ونوعاً، ويعود أصلي وفق التصنيف اللغوي للبشر إلى صيغة المؤنث، رغم ذلك بتُّ لا أعرف نفسي بسبب تناقضات تفسيراتي ووفرتهـا. لي مع عودة العراقية أو نيدابا، حكاية غريبة.

تأتي إلى المخيم، تسكن وزوجها في غرفة صغيرة مع - أبو العز-. يفسرني هذا الرفيق بطريقة خاصة حين يختصرني في اعتناق من موروثات وقيم يراها بالية تميّز بين الرجل والمرأة، لا يمانع في وجوده مع زوج وزوجته. يأبى ترك الغرفة، يتربع عند صينية الطعام، يأكل، يتجشأ، يتمدد في مكانه أخذاً قيلولته، يتحمم عصراً خلف ستارة، يجلس عند دكة الباب، يقرأ كتاباً بغلاف أحمر، يحفظ نصوصه، يستشهد بمقولات جاهزة حتى عندما يكون الحديث عن قلبي الباذنجان.

تفسر عودة رؤية رفيق سكنها لي محض هراء، لفئة غير إنسانية، عدم مراعاة قيم عامة، عزوفاً عن أخذ ظروف اجتماعية بنظر اعتبار، عوزاً في فهم المسؤولية. شعورها

بالاحراج يتفاهم كلما تريد تغيير ملابس أو أخذ قسط من الراحة والاسترخاء، تتوق لأن تتحدث بحرية وخصوصية مع زوجها دون وجود ذلك الرفيق. تنتظر لترى وجهة نظر زوجها عني في موقف فعلي حاسم.

أحمد كما في بطاقته، ليس اسمه الحقيقي يقيناً، يحصر رأيه ووجهة نظره عني في توجيهات تنظيم حزبي ينتمي له منذ يفاعته، يؤمن بأن السكن المشترك قضية إنسانية، "لعدوين يروح الرفيق أبو العز؟". ثمة أمور تستوجب الطاعة دون نقاش، دون تمييز بين وضع أو آخر، الأمر لا يعدو أن يكون مسألة مؤقتة لن تطول، هكذا يظن.

لو لم يتدخل جانب آخر في تفسيري لبقية معاناة عودة قائمة. يتدخل سكان المخيم من زاوية مغايرة، يثير وضع الغرباء حفيظتهم، يصعد منسوبي لديهم، يتذمرون من شذوذ وضع يتحتم عليهم وضع حد له. يطرق باب بيت عودة مسؤول تنظيم فصيل ثوري في المخيم، شاب مفتول العضلات، طويل القامة، وسيم الوجه، ذو شارب وشعر كثيفين، يصحب معه مختار المخيم وختايرة محترمين، من بينهم مدرس المدرسة وطبيب المستوصف الصحي.

ينبثق جزء من نفسي في عيني - تيسير خليفاي - وأراني فيما يتعذر عليه إخفاءه من حنق وامتعاض، وفي وضع يده بين فينة وأخرى على مسدس في حزامه بحركة لا إرادية، توحى بتمنٍ دفين يجول في ذهنه في انتقام وعدم انهزام. يوجّه حديثه إلى عودة متفادياً أحمد:

- اتحملنا كثير يا عودة، شو "هل أبو العز" راح يبقى قاعد بين عروس وعروسته؟ شو فائدة التثقيف والكتب إذا كان الواحد فش حيا في عينه؟ خلص، أمرّ عليك بعد ساعتين، راح

تسكني بدار خالتي أم شاهين، بلا أبو عز بلا أبو رز.

يهدئه حكماء يجيئون معه. يغادرون آخذينه معهم، أسمعني في صوت متوعد له بينما تقدح عيناه شرراً.

يبيدي تيسير عدم ارتياح لأحمد، ليس بسبب صوت خفيض وتهذيب مبالغ يميزانه، ولا بدافع انغلاقه وعزلته مع الكتب أيضاً، بل "هيك، من الله"، بدون سبب. ربما بسبب طريقة اعتاد عليها في فهم الرجل في أن يكون مقتحماً صاحباً وذا شخصية لها حضورها. لا يطيق رجال مهذبين غامضين، تأخذه بهم الظنون. مختلف ذلك "الأحمد" عن عودة كلياً.

هل حقاً أنت من تمثلني يا تيسير، أم انك راغب بتلك الفتاة؟ أفهمك جيداً، انها تسحرك برقتها رغم محبتك لأبنة خالتك. حبيبة بالنسبة اليك مهرة جامحة تحتاج لخيال يروضها، قطعة سلاح صعبة الاستعمال، خطاب سياسي يصعب تفسيره. أما عودة، فهي استراحة المقاتل، جُنية ورد في مخيم يبعث لك الصداق، بارودة لينة تطاوعك: "ما الغلط يا زلمة من زواجك من حرمتين؟ طز بأحمد"، ليس برجل من يترك زوجته في شهر العسل تسكن مع رفيق له انصياً لارغبة تنظيمه الحزبي في السكن الجماعي.

أتابع مسيرتي في يوميات تيسير، يعبر عني في خاطره بشهوة، بفحولة جده الذي يشرب كل صباح قدحاً من زيت الزيتون بعد مضاجعته لأربع زوجات. تصبح عودة هاجسه الوحيد، تحضر في أحلام يقظته، في مناماته، في خياله، يتمنى وصلها وتشغل باله أينما يذهب، في اجتماعاته العسكرية، في خطابه الثورية، في طلقات نار من فوهات بنادق بعيدة، في نار مشتعلة يتدفأ بها عند أطراف المخيم، في جلسات سمر مع أصدقائه، في قهوته الصباحية. يرى نفسه يشتهيها حتى عندما

يستمتع إلى قارئ قرآن يتلو، "والتفت الساق بالساق..."، يرى وضعاً خاصاً له معها، يستغفر ربه، يلعن حماقته. لو ينال منها مرة واحدة، يرضي رغباته، يشبع حاجته ليرتاح من لجأته ويريحني. غير انها بعيدة المنال، صعبة الإرضاء، لا توليه أدنى اهتمام. يلاحقها يومياً بتخطيط لا بصدفة، تخرج من مكان عملها في الاونروا، تلقاه أمامها، تشرب قهوتها مع مناقيش زعتر وصفحة لحمه في دار أم شاهين، ينطّ لها دون توقع أو سابق موعد. في المساء، يبتكر واجب تفقد مسائي من أجل رؤيتها والتحدث إليها:

- أهلين عودة

- أهلين أبو الشباب، شو؟ صاير دربك حدانا

- ها، والله وصايرة تحكي مثلنا، وأنا كمان تعلمت عراقي؛ شاكو ماكو، ما يخالف، قريوله، چفچير، خاشوقه...

ببرود، تبين اعجابها بما تعلمه من لهجتها. يصوّب نحوها نظرات محتدمة تهزّها بحدتها ومعانيها، يؤكد باقتحام عينيه وتقشير لجلدها، على وجودي في تصرفاته ومواقفه:

- ولو عودة، فيه رجّال وراك، بحياة حزن هاي العيون الحلوة، راح ترجعي، يمكن نرجع سواء، أنا وأنت.

لم ترتح لنبرة صوته ونظراته، تقرر تجنبه. ما سيحدث بعد ذلك من استعراض لقدراتي في دواخله، يعجلّ من رحيلها عن نسمة آتية من حدود بلدها القريبة ويبعد عنها حلم لا يغادر نفسها.

* * *

حلم

على نحو متفاوت، أستحوذ على أفئدتكم وعقولكم في كل مرحلة من حياتكم. تحصلون عليّ أو لا تحصلون، تلك مشكلتكم ليست مشكلتي. ظفركم وإخفاقكم منوطان بسعيكم، بسعتي في تجسيدكم لي، بعوامل خارج ذواتكم تحول بينكم وبينني. رغم تنوع أشكال ليديكم، أهبكم دافع الاستمرار في الحياة والبهجة، وبذلك لا يمكنكم الاستخفاف بي لأن معظم الأفعال العظيمة كنت وأكون أنا بدايتها. يوم تحصلون عليّ، أو حين أتوه عنكم، تغدو استجاباتكم متباينة، أرى من يقنط منكم ويرتكس فلا يحاول الاقتراب منّي ثانية، بعضكم، يغير ويكرر محاولة تحقيقي. يقول بعض المتطرفين من بني البشر، أن العاجز هو من يعيش عليّ وينصح آخرين بأن لا يحلموا.

في المخيم، أتبتخر وأتكاثر في تربة خصبة، أطوف في أذهان ناسه، أنسلّ من قوارير دواخلهم، أتصفح طبيبتهم، ملامح بؤسهم، مقاومتهم لشطف عيشهم، انحيازهم للحياة. أشمّ روائح بارود، زعتر، قهوة صباحية، مناقيش، خبز صباحي ساخن، لون قمحي لبشرتهم، إباء شاباتهم وشبابهم، همة حياة لا تتحني للمستحيل، واستحالات حاضنة للممكن. أسف لزفرات كهول، لانتظار أمّهات، لاستباق عمر لأطفال، لحرمانات من تفاصيل ومسرّات صغيرة، لأمان مخنوقة، لنتانة دورات مياه عمومية، لأخرة جدران اسمنتية تضم أجساداً ضامرة مكابرة. خلطة

اسطورية من بشر أنفذ في رؤوسهم.

تختزلني أم شاهين في قطعة معدنية معلقة برقبتها:

- يمه، هذا مفتاح دارنا ببلدنا، نعود له بعون الله.

أطرب لصوتها لما تغني بحنين: (جفرا وياها الربع، وتگول استنوني، راجع لديره هلي، لگطف الزيتوني)

تطمح إلى نيلي في أشياء أخرى، في زواج ابنتها حبيبة، استقرارها، إسعاد تيسير لها، تخرّج بناتها الأخريات من الثانوية، زواجهن، تكريم ابنها الشهيد شاهين بما يستحقه، وقبر في أرضها.

مثلا مسن، يعتمر حطة بيضاء، جالسا على دكة داره يلف سيگارته بقنوط. آخر يدبك في عرس، مغنياً باعتزاز، (چيه ومرچيه العوده، بيع أمك واشري باروده). فتيات، صبايا، نساء، يطوينني بين جنباتهن، في صورة زواج هائي، في بيت مريح وحياة كريمة. شباب يغزلونني بين أنسجتهم، يبصرونني في تحرير أرض مسلوبة، في عشق متبادل، في فصيل ثوري بنهج سليم، في بطولة، استشهاد، عمل ثابت، مال، هجرة. ينتظرني الجميع بصبر.

كم عمراً أريد منهم في انتظاري؟ كم جيلاً سأبتلع منهم حتى أتُحقق؟ كم من منفيين ومحرومين يشبعون نهمي؟ كم من مدن سيتشردون تحت سماواتها معي؟ كم من مخيمات ستنتبت وتزدهر في أحراشي؟ كم من أغاني وأشعار حنين سينشدون وسيغنون لي وعني؟ لا عتب عليّ، بل يقع اللوم على ثورات وحركات لا خير فيها تستهلكهم، تستلبني منهم، تجعل شعر رأسي يشيب وهي تشهد انفلاتي من بكرتي ولا تلمني.

ما أصعب البقاء محبوساً في واقع لا أتمكن من مناطحة

عاجه! أشق دربي بضراوة في نسغ كثيرين يشبهون نيدابا، يعيشون غير متصالحين مع سيرورة حياتهم، لا ينفع انفصالهم عني أو عيشهم فيّ، لأنهم كلما يتجاهلونني تصير ذواتهم مكباً لي ولا ينفع فكاك مني طالما هم على قيد الحياة وقيدي، وإن عشت فيهم دونما تفعيل، سوف لن أجيد سوى رتق أشرعة ترقب وآمال مهیضة، تصفّق عالياً متهیئة لطيران مثل طيور عملاقة بلا ريش فلا تبرح الفناء، بينما تسلك حيواتهم طريقاً مغايراً، ومع ذلك، في أتون صراعاتهم البشرية اللامنتهية، لا يملكون سوى قبسي لكي يتواصلوا مع الحياة.

ذات صباح، أجدني في رأس تيسير خليفائي، يتفق مع سائق سيارة عسكرية ليحل محله، يأخذ عودة إلى العاصمة لانجاز معاملة إصدار وثيقة تجديد للبطاقة، يعتمد ليكونا وحديهما في السيارة. يحدث في الطريق أمر رهيب.

عند مفرق الطريق، تتوقف سيارات أمامهما، سيطرة عشوائية لملثمين غرباء، ينزلون رجالاً وشباباً وشيوخاً منها، يحمل رجال مسلحون ثمرة طماعة بأيديهم، يسألون مسافرين مترجلين عن طريقة لفظها:

- شو هي؟

يكون جواب بعضهم، "بندورة"، بتسكين النون، يلفظ آخرون "بندورة"، بفتحة على النون. يوجّه المسلحون رصاصهم نحو بعض من لفظ الكلمة بطريقة معينة. يزدون عدداً من الشباب قتلى ثم ينطلقون مسرعين في سياراتهم.

أبحث في قاموسي، لا أعثر على مفردة القتل. غريب أمر هؤلاء البشر! كيف ينالونني على هذا النحو البشع؟

تصرخ عودة بهستيريا تفرعني، تفقد وعيها. أنتفخ في رأس

تيسير، لا يحتمل منظرها بين يديه مغمى عليها، يلثم شعرها، يسحبها إلى أحضانه، يطبق فمه على فمها بقوة، يقبلها بنهم. تجده ممسكاً بها حينما تفيق، تحاول التملص من ذراعين قويتين ومن فحولة كاسحة، تضربه، تستنكر، تحاول البكاء، لا يسعفها دمع:

- أنت رجّال أنت؟

يترجاها، يهمس في أذنها، يبوح بهيامه وتعلقه بها، يتغزل بجمالها ورقتها، يعود إلى احتضانها، تهرب منه:

- يكفي يا زلمة، هذا ظرف عشق وغرام؟

يعترف لها بجاذبية وسحر العلاقة الحميمية في ساعات الخطر والخطر، يهيج منظر الدماء، يجعله راغباً في تحقيقي أكثر. ينطق بحبها شعراً:

"لا أريد أن أحبك فقط/ أريد أن انتشر في جسدك انتشار الثورة في روح الشعب/ أن اغمس في عينيك زيت الجليل/ واقطف من ثغرك عنب الخليل/ أريد أن أقشر نهديك كبرتالتين غريبتين في يافا".

تهرب منه، تؤشر لسيارة قادمة تستقلها، تتركني خائباً في رأسه.

لا أتمكن من معرفة حقيقتي في بالها. تتشغل عني اللحظة بأفكار واستعدادات، تمرّ بخاطرها خطب ثورية لتيسير خليفائي في مهرجانات المخيم، يستشيط أثنائها غضباً على العدو، يضرب بيديه على طاولة أمامه، يلعن القتل، الأسرلة، بني صهيون وعملاء متخاذلين معهم، يمجد الإنسان وصفات الإنسانية والمناضلين. تلهم نبرات قوية حماسية له حمية حاضرين يحلقون بي، باستعادة أمجاد وأراض ضائعة.

يصفقون للخطيب طويلاً.

تنزع غطاءً مطووعاً عن بئر ماض قريب بعيد، لا تقدر حجارة حاضر غير راجح على طمر ذكريات تقبع في داخله. تسمع من هناك صوت أخيها متكلماً عني في مسألة الوحدة العربية: "حينما يصير قطار يربط البصرة بالرباط، والموصل بجنوب السودان وتتكون لدينا قوة اقتصادية فاعلة يخشى منها الكبار، حينها نطمئن على القضية ونهزم من نسميهم بالأعداء". يأتيها صوت مخذل ناقلًا على لسان أحد السياسيين: "عندما نستمع إلى الحكام المستبدين وهم يحاولون حل مشاكل بلادهم عن طريق الخطب البليغة، لا نستطيع منع أنفسنا من التفكير بسائقي السيارات الذين يظنون أن زحمة المواصلات يمكن حلها بأصوات المنبهات"، يضيف: "علينا تفهم طبيعة الصراع في بلداننا والمؤثرات الدولية وعدم الانسياق العاطفي اللامجدي والخروج من دائرة الوعي العقلاني، وما أغاني الخطاب القومي العاطفي (عربي أنت أرضاً وسماء، فاملاً الدنيا لهيباً ودماء)، إلا عنجهية فارغة". تستعيد في بالها معادلات حبيبة بكرأوي: "مناضل فعال ونزيه يساوي شهيد، مناضل غير فعال ونزيه يساوي مهمّش، مناضل غير فعال وغير نزيه يساوي مسؤول". تتملكها رهبة، خشية، قلق من كل شيء وعلى كل شيء، تخشى على سلامة مبادئ تؤمن بإنسانيتها، على آتٍ لا يأتي بما تريد، على فوضى تفسح المكان لجنون يستدرجها ويستدرج الجميع لحفرتها. تبتغي استرشاداً بقنديل يضيء عتمة أفكارها ويمنحها استمرارية عقلانية لتعيش دون تشويش واضطراب. تقلق على جسدي، جسد أحلام لها لم يكتس بلحم بعد.

أخشى جنونها أو انتحارها. أهتدي إلى وسيلة لإنقاذها.

تصغي إلى صوت غائر مانح قوة حكيمة: "إصغي اليّ.
إصغي اليّ جيداً. لا يمكن لقلبك وحده تلقي صخور متدحرجة
من جبل مصاعبك. لا تدعيها تقتلع قصبك. لا تمكثي هنا. هيا
ارحلي باحثة عن حياة أخرى. احملي في حقبتك حلمك بالعودة
إلى أرضك، بمجيء زمن يشهد عدالة وإنسانية. دعيه يزهر
في تربة أخرى. سأظل معك لأعادل قبح ما هو حولك، لتخلق
تصالحاً مطمئناً مع ذاتك، سأغدو الهدوء المأنوس والضياء
المرشد لك. عقلائيل لن يخذلك أبداً".

تصغي إلى عقلائيل، تحاوره، تقتنع بما يشير عليها به،
تصل إلى قرار الرحيل بمساعدته.

(وين عا رام الله، وين عا رام الله، وفي يمسافر وين عا
رام الله)

تغني لها أم شاهين قبل مغادرتها المخيم، تحيد بنظرها عن
عينين متجمدتين خاويتين من مشاعر، لا تهوى حبيبة بكر اوي
لحظات الوداع، لا تطمئن للرحيل لكثرة من غادروا ولم
يعودوا.

أجدني في قصيدة شاعر، "ولنا أحلامنا الصغرى/ نصحو
من النوم معافين من الخيبة/ لم نحلم بأشياء عصية/ نحن أحياء
وباقون/ وللحلم بقية".

- أين أنا منك أيها الشاعر؟

"الحلم، ماهو/ ماهو اللاشيء هذا/ عابر الزمن/ البهي
كنجمة في أول الحب" و"على قدر حلمك تتسع الأرض".
- ها أنت رحلت. خسرت كل شيء، وطنك، التحرير، نفسك،
وخسرتني في النهاية.

"والتجأت إلى رصيف الحلم والأشعار/ كم أمشي إلى حلمي

فتسبقتني الخناجر/ آه من حلمي ومن روما"

- أما زلتُ عندك السؤال الدائم هناك كما كنت سؤال وجودك على الأرض؟ هل تواصلني من جديد في فضاء آخر؟

"أيها الماضي/ لا تغَيِّرنا كلما ابتعدنا عنك/ أيها المستقبل لا تسألنا من أنتم/ أيها الحاضر تحملنا قليلاً/ فلسنا سوى عابري سبيل ثقلاء الظل".

- هل تأكدت اليوم من أزمتك معي، من ضياع وتشتت مسارات تحقيقي تحت وطأة ظروف قهر وظلم؟

"حلمتُ وصحوتُ/ كتبتُ وانتهيتُ/ ولم يبلغ الحلم عندي المآل/ وكنْتُ "في كل حلم أرّمُ حلماً وأحلم" و"أعترفُ بأنني تعبْتُ من طول الحلم الذي يعيدني إلى أوّله وإلى آخري دون أن نلتقي في أيِّ صباح"

- ماذا تقول لعودة العراقية؟

"إصنعي أحلامك من كفاف يومك لتتجنبي الخيبة"

يمضي الشاعر بعيداً ويحملني معه:

"خسرتُ حلماً جميلاً/ خسرتُ لسع الزنابق/ وكان ليلى طويلاً/ على سياج الحدائق". "اليوم حلمك لم يتحقق/ ولكنك قد تلتقي به غداً/ اليوم تخطأك الحب/ ولكنك قد تلتقي به غداً/ لا تحزن. / إن حياتك كلها أمامك/ ولا تفقد الأمل أبداً/ إنتظر/ فكل حلم متواضع يتحقق".

تمضي عودة إلى بقعة أخرى من العالم.

متنزه

برحابة ولين، أنتفس عبير أزهير ونداوة عشب حينما تطلق
ريح حنون نفساً عسلياً أخضر وتعطف أزهار نرجس رقيقة
وحشائش رهيفة بغنج، فتنفض أشجار كرز مطالع أزهير على
التراب أو على سطح الماء، ألاغيها بدلال بأن تكفّ عن
التفريط بحسان زهر تسقط على الأرض، فتهتز أغصانها
ضاحكة ويتساقط المزيد من زهر أبيض ووردي.

يمرّ زائرون عبر سوابل يقيهما البشر فوق أرضي. وجوه
مألوفة وأخرى جديدة. ألمح من بينهم السيدة مقبلة، غير عابئة،
تسحق بقدميها سجادة الزهر المنثورة. تبصر رجل المصطبة
جالساً مع أوراقه، وعيناه تنطق مستفهمة، "ماهو رأيك بما
قرأت؟"

- يالها من فترة زمنية عصيبة! خيبات، كوابيس، مجهولية
غد، نضال ما زال قائماً، يا إلهي!! كم لدى البشر من أحلام
موودة! ربما تموت أم شاهين مع مفتاحها مثلها مثل غيرها من
الحالمين. تتوق نفسي إلى معرفة ماضي الشخصيات وخلفيات
بيئتهم.

- نسيت أن أخبرك أن بإمكانك قراء كل محكية بشكل
منفرد، رغم ان خيط السرد سيظل يربط بين بعض الشخصيات
الاساسية.

"لماذا لم يكتب مجموعة قصصية؟"

يسلمها حزمة من الأوراق أكثر عدداً من المرة السابقة قائلاً بأنها ستقضي فترة أطول في قراءتها لأنها تغطي مساحة زمنية واسعة.

- سأخذ وقتي في قراءة المحكية التالية، لأنها حسبما ذكرت، أطول بكثير من الأولى.

تضع أوراقه في حقيبتها، يتصافحان، تمضي إلى مصطبتها المألوفة، تقرأ ما بين يدها من أوراق المحكية الثانية.

المحكية الثانية

غبار عجوز



"لا تقرأني كثيراً/ لأنك ستصاب بالعمى من كثافة
الدخان/ في تاريخي، واحذر أن تعبر هذه القصيدة
حافياً/ فهي مليئة بشظايا الزجاج/ من بعدما سقطت
من بين أصابع رؤياي/ إحدى مرايا الحزن/ وتهشمت
على الأرض"

صورة

بمسمار صدئ يثبتون إطاري على الجدار بين خزانة ملابس و نافذة محجوبة بمبردة هواء صدئة. أراها تمنع النظر اليّ، حيث أنا، بعينين يملأهما الحب لمن في داخلي، "كم أنت جميلة يا أمي! تفرحين حينما يشبّحك فارس بالفنّانة ليلي مراد فلا ترفضين له طلباً، وحين تغيطينه، يشبّحك بالممثلة زينات صدقي فتعاقبينه. ما هو ذلك الغامض المحتوم الذي ذهبت إليه بعد حياة ملآنة بنبضات دفء وضحكات تُغني حضور مذهل لك؟ لا يمكن لكل ذلك أن ينتهي إلى صورة في إطار".

تمسح غباراً تراكم على زجاجي، تمرر أناملها على الوجه الجميل:

- رحلت يا أمي قبل أن تنضج أسئلتي، تركتني مثقلة بسعة وجع ولجة اضطراب، أعيش في قلق دائم. علمتني ألا أكون ذاتي وألا أعرف قيمتها جيداً، أنشأتني على حب الآخرين حتى نسيت حب نفسي. كيف أجدني الآن بعد أن ضعت فيهم؟ ما وضعت محاسني يوماً في كف ومكاسبي في كف آخر، فصرت لا أجد عندما أجتهد، ولا ألقى حينما أسعى. تؤلمني أحلامي اليوم يا أمي. لا أريدك أن تقولي لي سوء طالع. أرجعيني إلى قماطي أو أعيديني إلى رحمك. دعيني أنام في حجرك مثل أيام زمان. لا ترفعي يدك من تحت رأسي حتى لا أفيق. دسّي أنامل

يدك في شعري. أسمعيني صوت تنويمه دلولوول.

- شششش. تعالي نيدا الحبيبة. تعالي إلى حضني. تعالي. أراك محتارة يا صغيرتي. شششش، دلول يا البنيه يا بنتي دلول. أه يا بزر القعدة وبزر الشيب، كم تغيرت! شششش، لا تبكي، ليتني أتحول إلى نفحة نسيم حانية تمرّ على وجهك، ليتني أمنحك حكمة ساحرة تريحك من شقائك، كل ما أستطيع ان أوصيك به بنيتي هو ألا تتعبي نفسك، لا تثقلي عليها بالهمّ في حياة زائلة لا تستحقّ عناء وبكاء، لكن أخبريني، أين كنت، لماذا تأخرتِ هكذا؟ ها قد فات موعد كل ما هو جميل؛ برّد شاي العصر، وزرّر الزمن على قصصه فغفت حكايات ما قبل النوم. تأخرت كثيراً، كثيراً.

لو يتهيا لها أن تحاور أمّها، تتمنى أن يكون الحوار بينهما بمثل تلك الكلمات.

تطيل نيدابا النظر إلى إطار ثانٍ في جانب آخر من الحائط، يحفظ ذكرى والدها السيد عبد الهادي العلوان، صورة مثلي، تتحمل فترة خزن تحت سرير هشام أخيها الكبير، تختنق زمناً داخل صندوق في بيت أخيها الثاني حسّان وزمن آخر، تزهق من غبار تحت سلّم، وسط أشياء زائدة في بيت فارس، الأخ الأصغر. يتململ حسّان لما تقع عيناه عليها، يتطيّر، يلوم أخته على ولعها ببقايا ميتين. لا يتوانى فارس عن ذكر أحداث تخصّ من في إطارها. السيد عبد الهادي يردد شتائم اعتاد والده استخدامها، "حياسز، بُشّت، بولّه" بتضخيم اللام. يحاكي نوبات سعال وأصوات رياح خارجة من الأمعاء، يتبع ذلك ضاحكاً بكلمات رحمة ومغفرة. تستفسر نيدابا من أخوتها عن آخر مرة زاروا فيها قبر والدهم. يلتفت أحدهم نحو الآخر محرّجاً. يتطوع هشام بالاجابة شاكياً من محدودية حركته مع

وجع ركبتيه وصعوبة الوصول إلى المقبرة. يتذرع حسّان بانشغالاته وجريه وراء لقمة عيش مطلوبة. يستدرك فارس معلّقاً بأن وضع البلد لا يسمح بزيارة أقرباء وأصدقاء على قيد الحياة، فما بالك بزيارة ميتين. يطمئنهما بانهم يترحمون على أبيهم بإطعام مساكين في ذكرى وفاته التي غالباً ما ينسى تاريخها لكثرة من يغيبون ويموتون. لسنوات طويلة، لم ينظر أي من أبنائه نحوي بحنان سوى نيدا. ترمقني بعينين دامتيتين. تراه يداعبها، يعطيها مصروفاً يومياً لشراء حلوى أو مثلجات. تتلمسني، تضع يدها على وجنتين مرتفعتين، على عينيّين ملونتين غائرتين تستولدان هيئة مستكينة غير مطمئنة. تنزلني من الحائط. تقبّلني. تمسح عني غباراً متراكماً. تضمّني إلى صدرها. أجدني في حقيبة سفر لها. تأخذني معها إلى بلد بعيد، لأول مرة أكون في طائرة لم يركبها الإنسان الذي أجسده. يغيب من يموت تحت التراب. يحتفي من يموت له بصلة في ذكراه السنوية. يزورون قبره. تتباعد زياراتهم له بعد ذلك. ينشغلون بحيواتهم. ينسونه بعد حين. يضعونه في إطار، في مقدمة صالتهم أولاً، في غرف نومهم بعد ذلك، ثم يرمونني تحت السرير. هكذا تستمر الحياة، حياتهم، لكن ما يلبث أن ينتهي الجميع في داخل إطار أيضاً.

من ذاكرة شكسة، غير معروف كيف تتقّى مواقف وأزمنة دون غيرها، يطلع منّي وجه صبوح مليح، يشعّ بقسمات فيها عزم على تغيير حياة وسعيّ طامح إلى حال أحسن:

- نيدا ماما، رشّي السطح وأفرشي الفراش

تنساب من الحديقة، رائحة زهر شجر نارنج ممزوجة بعطر رازقي وعشب مرشوش. يتسرب السيد عبد الهادي من إطار آخر، يرشّ أشجار الحديقة ويردّ على تحية جار له من خلف

سياج الدار الخلفي، يسمعه يغني طرباً، (ادّلل عليّ ادّلل، بس لا
ياولفي تزعل)

- كل يوم منكر ومغنى يا أبو جواد؟ مو وراك حساب
وكتاب وآخره.

- ربك غفور رحيم عمي أبو هشام. بس لا ياعمّي تزعل،
وادّلل عليّ ادّلل.

يعاتبه أبو هشام على ما ينفقه من مال على ما يسّليه ويؤذيه.
- عمي أبو هشام، اتركنا من هاي السالفة. شنو أخبار
الشغل؟ أكيد ماكو أحسن من العمل ولا أحلى من أول يوم
عمل.

* * *

يوم عمل

تنجم عن البطالة عادات معينة يستأنس بها كسولون. آتي لبعضهم فأقلب حياتهم تماماً. ينصاعون لي برضا أو بدونه كما حصل مع السيد عبد الهادي العلوان الذي يخزن في باله تفاصيل أول عهد له بالخدمة في وظيفته.

تغريه ساعاتي الأولى على البقاء داخل فراش دافئ متطلعاً بجزع إلى النافذة. صباح شتائي غائم مصحوب بمطر خفيف يدعوه إلى تأجيل كل شيء حتى تفريغ سوائل مثانته. تبرق السماء بين حين وآخر وترسل صوت رعد تجفل له قلوب الأطفال والصغار، يحرم السيد عبد الهادي من إغماضة طفيفة في فراشه.

"يا قادر يا لطيف، الطف بعبادك". يدخل يده في جيبه، يخرج منه ساعة دائرية بغطاء معدني مزخرف تنتهي بسلسلة ذهبية طويلة، إرث من المرحوم والده، "رحمة الله عليك دنيا وأخرة". يمد أصابعه في قدح مملوء بماء قرب فراشه، يضع طقم أسنان في فمه، يتثائب، يتمطى، يشرع بلف سيجارة وتدخينها على مهل. الوقت ما زال مبكراً.

تفعل الوساطة الغريب والعجيب. "أويلي عليك عبد الهادي. مرتك شقية تخطط لك حياتك تالي عمرك، تتوسط وتتلوگ لزوجات الموظفين"، تريد زوجها موظفاً فيما بقي لك من

عمر، تريد التخلص من وجودك بالبيت كما تقول أختك، وربما غايتها، كما تؤكد زوجة أخيك، الحصول على راتب تقاعدي بعد موتك، في حين يضرب أخوها فخذة بيده، هازراً رأسه بغضب، "صارت بنت ولاية أختي"، تهدئك ابنتك العاقلة ناصحة، رحم الباري أمها، "الشغل يخلّي الوقت يمشي ركض. بيها صالح يابه".

أسف لحال كل رجل يتجاوز الستين في بلد كهذا، يرى زمنه قضى وسيمضي قريباً، لا يحسن غير اجترار ذكرياته. يتذكر السيد عبد الهادي مدينته الأصلية ومسقط رأسه ليتبع رب عمله، السيد الألماني - هير شمت - ومن بمعيتة من رجال بعثة التنقيب عن الآثار. في وقت كان يحظى فيه باحترام أعيان مدينته، أفراد عشيرته، شيوخها، وخصوصاً قريبه، صاحب المسجد الشهير في العاصمة، الجميع يحلفون برأسه، "يا وسفة عليك يا عبد الهادي، الجمل لما يطيح تكثر سكاكينه".

يتعثر بعلبة مخصصة لبلغمه، ينسكب على الأرض ما فيها من سائل الأسفنيك قرب سجادة أثيرة لأم هشام، "فال سي. صبحنا وأصبح الملك لله". يتسرب برد مؤلم إلى جسده النحيل يعيقه عن الحركة. يتلفع بروب صوفي. يغطي رأسه بلفاف. شعور بالتعب يتسلل إلى بدنه يجعله واثقاً من عدم قدرته على حمل ملفات وفايلات ثقيلة متربة. كيف سيتحمل رائحة ورق عتيق ومذاق غبار متراكم؟ ستشتد نوبة الربو لديه، سيكثر سعاله ويحفر الوجع قصباته.

ما يصبرك هو أنه سيصبح عندك مورد خاص بك وستكون به سيد نفسك. يحترمك الآخرون وأولادك من كبيرهم إلى صغيرهم فارس الشقي. يصدّع رأسك بشعر سخيف: يا سيد عبد الهادي يا علوان/ ياذا الجلال والجيزدان/ انعم علينا

بالإحسان/ بخمس أو عشر فلّسان/ نشترى بها شربت رمان.
"راح يكون ردي قوياً: اسكت لك، لو أكسر راسك بالنعلان،
ويجيبني الشيطان بصوته الرنان: يسقط الطغيان، يا... يسقط
الطغيان. ملعون، تعلّم هذا الشعر التعبان من أمه شقية
خاتون، - فراؤ- شقية جبر العلوان".

يشدّ برد شباط الأزرق. يشعل السيد عبد الهادي فتيلة
المدفأة النفطية. يفرك يديه في انتظار دفء ينبعث منها داعياً
رب السموات؛ "يا فارح الهم، ويا كاشف الغم، فرّج همي
ويسّر أمري وارحم ضعفي وقلة حيلتي وارزقني من حيث لا
أحتسب يا ربّ العالمين". ينتبه إلى صوت البلبل مغرداً في
قفص مغطى بقطعة قماش إلقاء برد ونور، ينهض صوبه، يفتح
بابه ويطعمه حباً من كيس قريب منه. ابنته نيدابا الصغيرة تفتح
باب القفص لتسمح له أن يطير، لا تدري أن العالم الخارجي
أقسى من القفص. ذلك العالم بإمكانه أن يجعل البلبل ينبج
كالكلب. حبس رحيم أراف أحياناً من حرية محفوفة بمخاطر
ومجهول.

يتفحص وجهه في المرآة. "هاي شنو عبد الهادي؟" عينان
غائرتان، لحية بيضاء، شعر نافر من منخرين واسعين. عليك
حلاقة ذقنك. انطباع أناقة ونظافة في العمل من أهمّ مستلزمات
الاحترام والتحضّر. أرقى ما تعلمه من المرحوم السيد شمت،
مثله مثل ضرورة الإلتزام بالوقت والوصول المبكر إلى مكان
العمل. لو بإمكانك الذهاب إلى العمل على دراجة هوائية
لتجنبت السير في هذا البرد، لكن للأسف، محاولتك لتعلم
ركوبها تبوء بالفشل على الدوام، يعود السبب إلى فارس
الشقي وأصدقائه. يركض عشرة منهم أمامه، وعشرة أخرى
وراءك ومعهم سيمو نابحاً. في هذا العمر وهذا الزمان، تربية

الأولاد تصبح مهمة صعبة حقاً. هشام الكبير، يتكلم بالاشتراكية والـ - مقراطية- ، يتبع أصحاب سوء يلتقون حوله. الأبن الأوسط، الفاسق حسّان، يريد أن يصير ممثلاً، أما يدرس فنون أو يهاجر. "ما أشدّ همّ الأولاد والبنات! كمَد يرافقتا حتى الممات، وعلى وجه الخصوص بهذا الزمن". حقاً، زمن يتغير ويتبدل فيه كل شيء. ماذا يحدث في هذه الدنيا؟ ثورات، مظاهرات، تلفزيونات، محاكمات، حفلات، سينالكو، فانتا، بسكويت الجميلي، تماثيل، حدائق، بيوت حديثة، أفندية، وما أدري شنو. عجيب أمور غريب قضية. لماذا هذا الركض نحو كل ما هو جديد وغريب؟ أمر محير. حتى الأغاني تغيّرت؛ استهتار، "ذوق سز". أينها من المقامات، البستات، المناقب النبوية؟ ما أجلّها وأبهاها من كلمات في ولادة سيد الكائنات! (طه نبينا، زار المدينة). رحم الله والديه من أنشد (شربت كأساً ملئ من أسى، وفوق رأسي الهم رسي، أهواك أني يا طه عسى، أحظى بوصلك يوم المعشر). أين السيف والزرنة والنقارة ولعب الساس؟

يكمل السيد عبد الهادي حلاقة ذقنه، يبدو بشكل مقبول ومهيّب، يشبه كلمات أغنية تتردد هذه الأيام (قدّيش حلوة هلّشبيه، انتقط حسن وهيبه). "شقيّة لازم تتوقف عن لغوتها من اليوم، لازم ما تسمّيني "سيّء" عبد الهادي، وممررت فؤادي وما أدري شنو. صرت موظف محترم، راح أرزّلها بالعربي وبالألماني، "أختنك" شقيّة. انتبهي، شوفي ويا من تحجين، موظف بالدولة ومستشار للسيد شمت، رحمة الله الواسعة عليه، سابقاً. اللهم يارب يا أرحم الراحمين يارحمن، ابعد عنا الهم، وفرّج عنا الكرب والغم، كما فرّجت على نبيك أيوب عليه السلام، بجاه واحد أحد".

ما زال الوقت مبكراً على استيقاظ من في البيت. يتناول السيد عبد الهادي قطعة خبز وجبن من دون شاي. يرتدي بدلته الوحيدة التي غالباً ما يذهب بها إلى العاصمة وفوقها معطف سميكة جديد. لا يغفل عن تلميع حذائه بقوة قبل الخروج إلى الشارع، حتى يغدو مثل لمعان حذاء السيد شمت. يدعو ربه عند الخروج من البيت: اللهم صلّ على سيدنا محمد، الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق والهدى وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم. "أوووف. مصيبة هاي البطن لا ينفع وياها ملح انگليز ولا حقنة شرجية". يكتم صوت ريح تخرج منه بالحنحة. حدث عادي وطبيعي، يستغفر ربه من جديد: أتوب إليك ربي. الحمد لله الذي خلق العالم ويسر العلوم وأجرى الأفلاك وسخر النجوم واستوى في علمه المنطوق والمفهوم، يعلم الظواهر والسر المكتوم ولكل حي عنده رزق مقسوم وأجل مسمى محتوم ليوم معلوم.

ينحسر المطر قليلاً، لكن يبقى الجو بارداً، يتبخّر نفسه على شكل دخان حال اصطدامه بالهواء. يمضي أمامه في الشارع ناس قليلون في طريقهم مبكرين إلى عملهم، يفرك بعضهم أيديهم لتدفنتها، ويمشي بعضهم ببطء واضعاً يديه في جيبه غير عابئ ببرد أو مطر.

يمرّ من أمام مقهى المحلّة، يلح الصبي جودي الأقجم بمئزره الأحمر، هاماً برمي بقايا شاي بابت في الشارع من إبريق كبير. يحييه بثقل أكثر من المعتاد وبرصانة موظف دولة، يواصل دربه غير مبالٍ بتعليقه:

- بالتوفيق عمي أبو هشام، نشوفك العصر بعد الدوام.

بعد تجريبه لي، سوف لن يجلس السيد عبد الهادي في المقهى متكوماً على صمته وخجله، لن يرى في عيون الناس

لوماً وغمزاً ينالان منه ومن على شاكلته من رجال، تعمل زوجاتهم وهم جالسون في المقاهي دون عمل. انه شخص آخر الآن، سيستعرض من خزانة فمه كلاماً وآراء، حكايات وثرثرات، كأى موظف يروي لأصدقائه ما يمرّ به في عمله، سيرى أفواههم مفعورة وهم يحركون حبات مسبحاتهم مندهشين. سوف لن يتهرب من أصحاب متقاعدين وغير متقاعدين، مثل أبو جواد، يلحّون في طلب شايات على حسابه. أما عن وضعه في البيت، سيعلق في مكان فريد يتوسط الصالة، صورة له، ببذلة وربطة عنق مخططة. سأكون في ذاكرة هرمة له، يوم غير عادي في حياة عبد الهادي، لأتركه في ظنه بأنه سيحقق بعدي أحلاماً في إعادة ما كان وانفرط من قوة وهيمنة على البيت وأهله، عسى أن يكون ما يخطر في باله وخياله، ليس محض أوهام وأمان.

* * *

أمان

أجمل واقع الناس بهواجس ورؤى تقودهم إلى عوالم مدهشة. أنتشر على مساحة واسعة في تفكير بعضهم كي يستمروا في الحياة، يتجاوزون مصاعبها، عوائقها، خشونتها، بواسطتي. يصيرون أكثر صبراً وتحملاً وأكثر طموحاً، لكن حينما أنكمش، تنكمش قدراتهم وتطلعاتهم.

أحول حياة السيدة أم هشام إلى سعي دائم، تعدو نحوي بخفي جهدها وإمكانياتها. تحولني إلى جزرة تجري وراءها إلى طموح وإلى واقع جديد تنشده. إن تتعثر، تحولني إلى خيالٍ ثرٍ تحلق بأجنحته نحو عوالم خارقة تخزنها وتربّيها في ذهنها، تشارك بها زبونات تقصّ لهنّ شعورهنّ، تعيش فيها كأنما هي حقيقة، تحكي عن أمور لا يقدر على صياغتها إلا خيال رحيب متمرس، يقارب واقعاً حياً بألوانه، تفاصيله، روائحه، وجماله، طرافته، غير أنها تحنّ قليلاً إن لم أتحقّق وسرعان ما يعود لها مزاج هادئ وصاف، مثل عود ثقاب يتحول إلى رماد دون مروره بمرحلة اشتعال، أو كسطح ماء نهر يتخلص بموجة مرحة من أوراق وأغصان شجر تغلق به فيعود رقراقاً جارياً، ثم ترجع مجدداً وتقود شراع تحدّيها في قارب صعب غير مستقر، لكنها مع ذلك تظلّ تسير وتجدّف.

لا أكون عبثية أو مُحالة عند تلك السيدة، أرى معنای في غاية المتاح والتبسيط، ومع بساطتي، أكون صعبة المنال.

أتجسد لديها في حياة أفضل، دار جديدة في حي حديث ينأى عن محلة شعبية تسكنها، بيت تصممه بنفسها كما تريد، حديقة، أربعة غرف إحداها للضيوف وأخرى للطعام، صالة كبيرة. تتمنى الحصول على مروحة كهربائية ثلاثية تلفزيون، بعد أن صارت هذه المتطلبات من ضرورات تفتتيها عوائل محترمة ومن مستلزمات وجاهة حياة عصرية. تبذل جهداً في زيادة ساعات عملها وتقتير مصروف ومشتريات وتأجيل متع صغيرة كالذهاب إلى السينما يوم الخميس، ومما جعلها أكثر تمسكاً بقراراتها، نبأ شراء بيت عم أولادها تلك الأجهزة، ومعارضة السيد عبد الهادي العلوان لطموحها الذي زاد عن حده.

ترسم أهدافها للوصول اليّ، بوسائل عمل تحترفه وتتفوق فيه، رغم معوقات تعكّر صفائي، كاحتجاج أخيها على عملها بتحريض من زوجها السيد عبد الهادي.

ذات يوم، يجيء الأخ غاضباً مهدداً بقتلها إن تعمل في مجال الحلاقة:

- عشتو، أخويه من بطن أمي وأبويه يهددني؟ صاير "أبو جاسم لر". أويلي عليّ. يجيني "ترنّتي"، يمدّ إيده على المسدس، بدل ما يمدها لجيبه، صاير "رنگو لا يتفاهم".

- شقيّة، اسمعي زين، ما عدنا نسوان تشتغل، والنوب تگص شعر؟ عشنا وشفنا، آخر زمن.

تقول لأخيها بانها تمتهن حرفة شريفة لحاجة عائلتها إلى مُعيل، تعرّج على مظلوميتها، على ضيق حالها، على خلو حياتها من رفاهة عيش. تستنهض بحديثها حالات قهر وقمع لتنفيس غضب يقطنها، وتفرغ طاقات سلبية ينقلها لها أناس لا

يتفهمون وضعها. تنتظر إليه بتحدٍ، تخبره بانها مستعدة للتخلي عن فكرة العمل بشرط ان يدفع لها مصاريف أطفالها الخمسة؛ طعام، كسوة، مصاريف مدارس، وإلى نحو ذلك من الأمور.

يكزّ أخوها على أسنانه حانقاً:

- مو عندج رجال؟ لو نسيتي؟

تزغرد بحزن:

- تقصد عبد الهادي العلوان؟ لازم أهله وأفرح الجيران، كلاللش. بعد عيني على الرياجيل. راحت رجال ال تعصر السماق، ظلت رجال بالعصا تنساق.

ينظر إليها الأخ بحيرة عندما يسمع صوتاً قوياً متماسكاً. هل هذه أخته الخنوعة البسيطة، أم تراها امرأة أخرى أفسدتها حياة المدينة؟ يفور دمه في عروقه. يمدّ يده إلى غمد جلدي معلق بحزامه. يخرج مسدساً ويصوب فوهته نحوها. تقترب منه كاشفة عن صدرها. تقدح عيناها شرراً، تهمس بصوت متهدج، تطلب منه أن يقوم حالاً بقتلها لأنها تموت في كل يوم من الجوع والحرمان. يصمتان لبرهة. يستدير أخوها ويتوارى عن أنظارها. يصفق الباب خلفه بقوة قبل أن يعلن براءته منها ليوم القيامة إن اشتغلت. يتكرر التهديد ذاته يوم سماعه خبر ذهابها إلى السينما كل خميس، أو يوم شرائها لجهاز تلفزيون.

تواصل أم هشام جريها بي ونحوي. تتبضع ما يلزم لعملها الجديد من أدوات؛ مرآة كبيرة، مناشف، مقصات، ملاقط شعر، فوط بألوان مختلفة. تنتقي دزينة أمشاط، مواد كيميائية تجعل الشعر أكثر تاجاً مجدداً كموضة تسود يومها. تشتري لزبونات كرسياً خشبياً دواراً تجلس عليه، تدخن، تواصل الكلام عن المآسي ذاتها بصوت مسموع يقارع محنها، "يا حسرتي عليّ

يا شقيّة يا بت جبر، من بطن أمّج للكبر". تلقي بلائمة شقائها على والدها لتزويجها برجل يقارب عمره، ترافقه في رحلة حياة مضنية منذ بدايتها يوم تسكن مع أقرباء له يعاملونها بقسوة ودونية، عائبين عليها بساطتها وانحدارها من بيئة غير المدينة. يثقلون عليها بأشغال بيتية مرهقة. يعزلونها مع أطفالها عنهم وعن أطفالهم، وينتهبون كل فرصة للسخرية منها رغم محاولاتها لإرضائهم، "تفرهد شبابي، شعلت لهم عشرة أصابعي شمع، صرت خدامة أشتغل بالبيت من الصبح حتى وقت النوم وما عجبهم حالي". يضجر أقارب زوجها من عبء عائلتها وكسل رب أسرتها ومرضه. يرغمونه على استئجار بيت مستقل. تقرر القيام بعمل ما لإيفاء متطلبات حياة ما برحت تتعسر مع تزايد احتياجات متلاحقة. تتعلم مهنة قص وتجعيد الشعر، "توسلت بصاحبة صالون تكالون، دخيلج ماري، أبوس إيدج، بس علميني الكار، أبيع ذهبي وكل ما أملك لخاطر جهالي، وعلمتني المره خلف الله عليها".

تتهافت عليها زبونات يتبعن كل ما هو جديد في عالم الموضة؛ فتيات عازبات، عرائس واعدات، عوانس أملات يتزينّ ترقباً لعريس ملائم، نساء غاضبات يتجملنّ بعد تصالهنّ مع أزواجهنّ. تغلّف أسناناً صفراء بأغلفة ذهبية لامعة تأثراً بأغنية (يايمه شوفي هواي، سن الذهب يحلاله). تذهب إلى بيوت سيدات مجتمع مخملي. تنال أجراً أكبر وتحصل بالتالي على مكانة مرموقة في المدينة .

تختلف عن منافسات أخريات لها، لا بجودة عمل أو بطريقة تعامل مع زبوناتها، بل بحكايات ظريفة مسلية لها، تحكيها بضحكة صادقة وصفاء قلب. تقص عليهن طرائف ودعابات وسقطات لسان مسليّة. تطرّز أحاديثها بمغامرات وهمية تكاد

تصدّقها نفسها، وحين تفتح ابنتها فردوس فيها دهشة، تنهرها بنظرات محدّرة. تحكي عن سفرها إلى دول مجاورة رغم عدم سفرها أبعد من حدود العاصمة أو لرؤية والدتها في قضاء قريب، أو زيارتها لكربلاء والنجف في مواسم معينة. تتحدث عن لبنان وإيران وجمال طبيعة، ناس، أسواق، بضاعة، تصفها وصفاً مذهلاً تبهر به زبوناتّها. تحكي رؤى تخالها وقائع وعن منامات تصير بحكاياتها حقائق، ترى في إحداها جارتها الحفافة تفرك في القصر الملكي رؤوساً بشرية في طست كبير، ينبعث من أفواهها بخار وهمس ووعيد بتغيير خطير سيحدث. تصحو من نومها فزعة مستعيذة من الشيطان. تسمع البيان الأول لثورة تموز من الراديو. تنادي على جيران نائمين في سطوح دورهم، ينزل هؤلاء إلى الشوارع فرحين لا عنيين الإقطاع والعائلة المالكة، مستبشرين بعهد جديد مشرق على البلد. تلوّن الموقف بصور كاريكاتيرية، بحركات تمثيلية، بتغيير نبرة صوت. تتحدث عن زيارتها إلى قصر ملكي، "إي، إي، شفت بعيني هاي اللي راح ياكلها الدود". تصف القصر وما فيه من أعاجيب وغرائب ونفائس، تبهر البصر وتسحر البشر؛ صالة رحبية مفروشة ببسط، نمارق مخملية، طنافس، زرابي وسجاد إيراني فاخر هائل بأحجامه ونقشاته، كاشان تبريزي، أصفهاني، ينتصب عليه عرش على شكل طاووس كبير مرصع بأكثر من عشرين ألف جوهرة، يحاذيه صولجان تلمع به كمية من أحجار كريمة لا تحصى. في السقوف، تنير ثريات تفوق بضامتها ما هو موجود في مرآد شريفة، تغمر، بضوء ساطع صالة مؤنثة بأرائك ومقاعد واسعة منوعة، تنبت على أطرافها نباتات وزهور حمراء صفراء بيضاء وألوان أخرى. يمتلئ القصر أيضاً بغرف لا يحصى عددها، ترتفع عند مداخلها أبواب عالية، تزيّن خشبها أحجار ثمينة وزخارف

ذهبية على شكل أشجار باسقة وفتيات جميلات. عبر الصالة يرى الزائر حدائق غناء ورياضاً بهيجة عامرة بأشجار عالية مثمرة، لا يدنو أحد منها ومما تحمله من خيرات ثمار برتقال، تفاح، خوخ ورمّان. رياض زاهية، ترطبها نافورات وأحواض ماء متناثرة في أركانها، تمشي في أرجائها أسراب من الطباء والغزلان، تطير في سمائها أنواع نادرة من الطيور، تتمختر في ربوعها طواويس تنشرح الصدور لرؤية ريشها الملون، يطوف فيها حشد كبير من خدم، حشم، مربيات، ووصيفات بأزياء خاصة.

تأسف أم هشام على عدم تمكنها من زيارة القصر عقب الثورة مباشرة بسبب وجود ناس كثيرين فيه ناهبين سالبين حارقين ممتلكات رموز عهد - بائد-، تدير له ظهرها بحسرة وتقفل راجعة، وبينما كانت تمشي فوق أحد الجسور، تلمح أمامها سيدتين متلفعتين بعباءتيهما، متعترتين بمشيتيها، ما أن تمر لحظات حتى يجري وراءهما صبي صغير، شخص يدس في يده مبلغاً من المال، لا تعرف كم، فالكذب حرام، ليقوم الصبي بسحب عباءتي السيدتين من على رأسيهما. يتضح لدهشة مارّين بأن إحداهما شخصية سياسية معروفة متخفية بعباءة نسائية. يتدفق عند ذاك ناس من كل حذب وصوب، يقومون بضرب ذلك التعيس ورفيقه، بعد أن يجندلها ضابط بطاقات من مسدسه. يقتلع بعضهم قار الرصيف متقدماً صوب الجثتين بحماسة من يأخذ ثأراً. يهشّم ما بقي من لحمهما وعظامهما على أرض شارع يصطبغ بلون أحمر. شارع يخفي أسراراً وحكايات يحكيها اليوم.

* * *

شارع

ألف خطواتهم ويألفونني. يرافقونني منذ نعومة أقدامهم. ينطّون ويلعبون على أرضي ورصيفي. يكبرون. يتجمعون تحت أعمدة نور كهربائية. يطالعون دروسهم أيام امتحانات. ينشّون برغشاً متطائراً حائماً حولها. يتحدثون. يتسلّون. يسهرون. ينتظرون رؤية حبيبات يخرجن من ديارهن. يغذّون في السير على أرضي. أصير سجلاً لحياتهم ودليلاً على عناوين بيوتهم. مقابل خدماتي، يحق لي أن أطلب العناية بي، إكسائي، نظافتي، تخفيف ثقل مركبات تدوسني بعجلاتها، عدم تفريغ مياه صرف صحية في أحشائي، لكن ما من أحد يسمع. يتعجلون للوصول إلى مقاصدهم. تضايقهم حفر تشوّه سطحي مثلما تفعل السيدة أم هشام صبيحة انتقالها إلى بيتها الجديد.

سَحَرٌ وليدٌ طالع من رحم غبش آفل يحبو على دروبي، نافخاً بدعة أنفاس طلع نخيل، مدغدغاً شمساً تغالب نعاسها على فراش ليل راحل يغويها على النهوض من هجوعها بنور واهن ليروح منسكباً على نهر يخرق أرض مدينتي، كاسياً ماءه بلمعان شاحب. بتتابع حثيث أشهد أشياء جديدة، يسير ناس بخفة وحيوية مستبشرين بعهد جديد. تكثر احتفالات ومسيرات؛ عيد شجرة، عيد عمال، مظاهرات، نساء بدون عباات، ناس تنتقل إلى دور جديدة تاركن أحياء ومحلات عتيقة.

في بوادر تلك الصبيحة الندية، تحت أم هشام خطاها وراء

عربة تستأجرها لنقل أثاث بيتها القديم إلى الجديد. تكوّم عليها طاولة خشبية بنية اللون، أكياس قماش، حشيات أفرشة، بسطاً، صحنون أقداح زجاجية ملفوفة جيداً بأوراق صحف خشية الكسر، صندوقاً خشبياً مطعماً بحلقات نحاسية يشبهه أولادها بصندوق الكنز.

يضرب صاحب العربة بالسوط حصاناً منهكاً لحثّه على السرعة. تسحب أم هشام عباءتها نحو جبينها، تثبّت وضعها على رأسها. تعدّل وضع طفلة تحملها على يديها وتهم بالخطي كي تصل إلى سكنها الجديد قبل انبلاج ضوء نهار، خشية ان يفضح النهار أثاثها البسيط لجيران الحي الجديد، ويكشف ل نظرات فضولية حال الساكن الجديد ومستوى معيشته.

تغيب برهة مع أحلامها لاهثة، تتخيل آمالها وهي تتحقق. تتحدث بصوت منخفض لاهث عن دروب موصدة ستفتح حتماً أمامها، عن رب رحيم سيعوض صبرها انفراجاً ولن يُبقي باباً موصدة على الدوام. ستغيّر حياتها بالتأكيد، سترمي في القمامة - الجولة - وتتخلص من سخامها، ستشتري بدلها طباخاً نفطياً، ومروحة سقفية، وثلاجة كهربائية، وربما تلفزيون، "ليش لا يا شقية يا بت جبر وزهرة... شقية؟ شنو شقية؟ نذر عليّ، أغيّر اسمي من شقية إلى شفيقة. إسم جديد وبيت جديد وصالون جديد، صالون شفيقة للسيدات، أو صالون أم هشام للسيدات، لا، بدون إسم أفضل، صالون الجمال للسيدات".

تصل دارها الجديدة. تدسّ بعض المال في يد الحمال حين ينتهي من انزال حمولة العربة. يعبر هذا عن عدم رضاه بالأجر:

- درهم؟ رحمة على روح الميتين علوية.

- لا علوية ولا ملوية، ما عندي غيره كفيك الله.
يدسّ الحمال النقود في جيبه ممتعضاً. يهّم بدفع عربته
صوب السوق:
- والله لوما أخاف من جدج يشور بيّ! يا حنان يا منان،
توكلنا عليك.

لا أستطيع سرد كل ما جرى لي من أحداث منذ شقيّ
وجعلي شارعاً يمشي عليه الناس، لكني أتذكر يوم انتقال السيدة
أم هشام إلى البيت الجديد، والحدث الأغرب في فتحها لصالون
الجمال للسيدات، تشتغل فيه رغم وضع اجتماعي يظلم المرأة
العاملة في مجال الحلاقة والتجميل. تتوجه أنظار واهتمامات
ناس محلتي إلى بيتها لمراقبة كل شيء، من تخرج ومن تدخل،
عربات توصلهن وتنتظرهن، كم عددهن، من أي محلة يقدمن،
وغيرها من أمور تشغل بالهن لحداثتها ثم ما يلبث أن يتعود
عليها ناس يمتلكون وقتاً فائضاً حتى ينشغلوا بحكاية أخرى
كحكاية كرسي غريب تشتريه أم هشام لزبوناتها، ويظنون
يحكون عنه وعن فرادته وعجائبته. يشغلهم مقعد دوّار
مصنوع من جلد بني وخشب طبيعي، يسمح بتحريك من عليه
في كل الاتجاهات. تذهب النساء لرؤيته والجلوس عليه، وما
أن تحركهن أم هشام، يأخذن بالضحك، ويبالغن بوصف
مشاعرهن حينما يسألهن رجالهن عن شعور الجالس على ذاك
الكرسي وهل يشعر بالدوار أم ان الأمر مجرد إشاعة؟ تجلس
عليه الصغيرة نيدابا. يغوص جسدها النحيل فيه. يفرّها فارس
على مهل. تضحك الفتاة فرحة. يغافلها أخوها فجأة بمضاعفة
سرعة الدوران. تصرخ خائفة. يواصل فرّها بسرعة حتى يأتي
من ينقذها. تطلّي أم هشام الكرسي باللون البنيّ ثم الأسود،
وترجع تطلّيه بلون أبيض. يقشط فارس خشبه بأظافره، لتتضح

بقع متنافرة كاشفة عن طبقات ألوان متراكمة، يخفيها بلبان قديم أو مخاط صلب من أنفه، يفركه ويكوره بين اصبعيه ثم يلصقه حتى تصبح عادة له، فينشط فيما بعد في جمع وإخفاء كل ما يخرج من أنفه في ذلك الكرسي. بعد أن تغادر صاحبتة الحياة، يتقاعد عن عمله ويرمونه تحت السلم في فسحة ضيقة مكتظة بكثير من أشياء مهملة ومتروكة.

أشهد حركة أخرى غير مألوفة على أرضي يوم تشتري أم هشام جهاز تلفزيون. سرعان ما ينتشر الخبر في الحي والمدينة كلها. يصلح هشام طاولة قديمة، يطليها بدهان أسود. تخطيط فردوس شرشفاً أبيض من قماش خام الشام، تطرزه بغرز - تيج وتحشاه - على شكل ورود حمراء بأغصان خضراء صغيرة. عند ناصيتي ينتظر فارس وصول الجهاز العجيب مع أصدقائه من الفتیان. تفكر أم هشام بذبح ديك عند مروره عتبة الباب تلافياً للعين الشريرة، إلا أنها تكتفي بكسر بيضتين على عتبة الدار عند حمله من باب البيت. تطرد كل من تجمع من أطفال لمشاهدة الحدث الفريد، وتعد مباركين ومهنئين بدعوتهم لمشاهدة البث عصراً مع شرب الشاي. تبارك قدومه نسوة المحلة القديمة بابتسامة تنم عن غبطة مبطنة بحسد. تصمت أم هشام مرددة في سرّها سورة قل أعوذ برب الفلق عدة مرات. ترجع بعض النساء إلى بيوتهن منتظرات أزواجاً متعبين لأخبارهم عن رغبتهن باقتناء جهاز مثله مهددات بالزعل والاعتكاف بغرفة أخرى أو بالذهاب إلى بيت الأهل حتى تشريفه دارهن. تفرش أم هشام حصائر إضافية في صالة دارها بعد الانتهاء من عملها. تبدل أغطية الأرائك. تهَيّئ معدات شاي وكعك. تقلّي بذور بطيخ أحمر لضيوف يطؤون دربي بكامل أفرادهم من محلّتها الجديدة والقديمة. تتربع نساء على بسط مفروشة. يقعد الرجال على أرائك وكراسي نايلون

مصوّبين نظرهم نحو ذلك الجهاز العجيب. يعقد أحدهم يديه خلف ظهره ويلفّ خلسة حول التلفزيون متظاهراً بغفوية ما يفعل، وفي محاولة استكشافية، يحدّق فيه من الخلف علّه يرى كيف يدخل ويخرج منه من في داخله. يبدأ الجهاز باستعراض ما عنده من فقرات بعدما يشغله هشام. يشغل هذا الجهاز الأطفال عن اللعب والتجمع في طرقاتي، غير مصدّقين ما تراه عيونهم. يتفرجون مع الكبار على أفلام رسوم متحركة، نشرات أخبار، برنامج جنة الأطفال، برنامج صندوق السعادة، عالم الحيوان، كرة قدم، وغيرها من المنوّعات. تنبهر النساء بأغاني فنانات وبملابس يستعرضنها. تبقى تفاصيلها في أذهانهم. يحفظ الجميع دعايات مروّجة لحلويات، بسكويت شيكولاتة، مساحيق غسيل (شروالك يابو زيد ما بينظف إلّا ب تايد)، (أمواج معروف ومجرّب). تبدل أم هشام اسمه الى "عبد الهادي معروف ومجرّب"، وعقب عرض محاكمات مشهورة يومذاك، يتحمس الرجال في خوض نقاشات سياسية طويلة. تنتشغل النساء بثثرات عادية. يخرج الأطفال للعب على أرضي لتفريغ شحنات طاقة حتى ساعة متأخرة من المساء حين ينهي التلفزيون بثّه شاكراً مشاهديه بلسان المذيع. يخرجون سائرين على طرقاتي، حاملين أطفالاً نائمين على أكتافهم، مخلفين وراءهم أكواماً من قشور لبّ وأقداح شاي فارغة تضيف إلى اعمال أم هشام عبء آخر. تسعد بحالها رغم زعل والدتها الحاجة زهرة وذهابها إلى بيتها في القضاء بسبب فساد ابنتها يوم تجلس أمام المذيع دون عباءة. يتذمر السيد عبد الهادي من تصاعد مبالغ قائمة الكهرباء وشكواه من اختفاء راحة مطلوبة في البيت لوجود أصدقاء فارس وحسّان وهشام في الدار، وبالتحديد إزعاجات يسببها زعيق ستار أبو الطوبة عند نقل مباريات كرة قدم، ويتساءل عن سبب عدم

اكتفاء زوجته بجهاز راديو يشتغل ابتداءً من انغام بلبل الإذاعة صباحاً حتى أغنية جديدة لأم كلثوم أواخر المساء. تستمع إليه أم هشام أثناء عملها وتغني مع مطربات معاني هجر وحرمان ومظلوميات، (هاي من الله قسمتي، دوم أتسلى بدمعتي). تعلّق متحسرة، "شلون قسمة سوده ومصخمه؟ الله يستر، عيني ترّف، يمكن ما راح أتهنا بالبيت الجديد".

* * *

البيت الجديد

الانتقال من بيت إلى آخر ليس هيناً على بني البشر، أمر يتطلب منهم استعداداً مجهداً، ترويضاً متواصلاً لقناعات وتوقعات واستقبالات لاحتتمالات عديدة متشابكة، أدرك صعوبة افتراق البشر عن تعود يلزمهم ونمط حياة يألّفونه. ثمة أمور كثيرة تربكهم، كأن تكون تخلياً عن أشياء مألوفة، خوفاً، قلقاً من قادم جديد، وضع النفس في اختبارات واختيارات محيرة مصيرية، توق وجداني إلى بقعة وناس يتوجب على المرء الابتعاد عنها فجأة، تعسر قبول وضع جديد وتبعاته، ولا يحدث أغلب ذلك دون تعقيدات، بل يأخذ وقتاً طويلاً، ويمسي لاحقاً مرحلة من الحياة البشرية، لحين بدء مرحلة نوعية أخرى من استكشاف لواقع آخر مثير اجتماعياً ونفسياً.

يتفاوت وقع انتقال عائلة السيد أبي هشام اليّ من فرد إلى آخر. السيد عبد الهادي العلوان، أشدّ من رفع راية المعارضة للتغيير الجديد بحجة صعوبة إيفاء قرض المصرف العقاري كما أن فائدته لا تجوز شرعاً لأنها تندرج تحت محظور الربا في الإسلام. تردّ عليه السيدة أم هشام مفصحة عن مقدراتها على توفير مبلغ القسط الشهري بزيادة ساعات عملها، أما عن الربا، فإن الرب غفور رحيم وهو، في الوقت نفسه، عادل، يعاقب مقصّرين في إعالة أسرهم وغير ساعين إلى كسب حلال. نُفحمه. يقترح عليها أن تذهب إلى زبونات الموقّرات

إذا كنّ لا يفضلن المجيء إلى دارها، ترد عليه قائلة بأن مسافة تقطعها ذهاباً وإياباً، يمكن الاستفادة منها في العمل وقص شعر "رأس أو رأسين". يعود إلى المناورة ثانية زاعماً أنه بالإمكان تجديد الدار القديمة للخوانم زبوناتها. تواصل السيدة أم هشام الشكوى من ضيق صالونها، من سوء حال حيطان جصية منتفخة بسبب الرطوبة مثل بطون نساء حوامل، لا يكفّ فارس، مضروب الجلوه، عن بقرها لتصير مثل "العين العورة"، فتخرج منها حشرات وتولد عفونة خانقة تنفر منها زبونات محترمات، كل ذلك لا يعادل خطر ثعبان ملتحف على شجرة العنب وسط الحوش، آتٍ من خرابة مجاورة. يستمر سجال السيد لإقناع السيدة باستدعاء ابراهيم السحار كي يقرأ ويعوّذ على الدار ليحول بينهم وبين أذى الثعبان، تحببها بأنها لا تؤمن بدجل ذلك الرجل، لأنها تعرف كل أسرارهِ عن طريق امرأته الأولى، زبونتها. تتواصل الحجج بينهما ثم دحرها بالبراهين، إلى وقت وجبة الطعام، أو تتوقف المباحكات حين تدق زبونة على الباب أو لمّا تصيب السيد عبد الهادي نوبة سعال مفاجئة. يصمت الإثنان في انتظار جولة أخرى من مناكفات دون أن يبديا أي علامة لملل وكلل، أو يدركان بأن هذه الأحاديث نفسها قد دارت بينهما في اليوم السابق.

ينظر صلاح الدين، صديق هشام إلى قضية الانتقال إلى بطريقته. يمتدح السيدة أم هشام بوصفها نموذجاً عملياً لامرأة كادحة عنيدة، مناضلة صنديدة، تحاول تحقيق حريتها عبر استقلالها الاقتصادي، رمز شامخ لسعي الطبقة العاملة لامتلاك قوة عملها بيدها من أجل قرار حر وبيت سعيد، تحدٍ لأسوار مجتمع قامعة وتقاليد ظالمة للنساء، ما تفعله هو كسر للمألوف، رفض للموروث، إباحة للاممكن وإزاحة تامة للمفروض الثابت كلياً، لكنه لا يخفي خشيته من تطلعاتها البرجوازية ومن

احتمال انسلاخها الطبقي.

يحدثه هشام عن الوالدة، صاحبة رأس المال، بمنطقه وكيف تستغل في أعمال السخرة كل من في الدار من طبقة عاملة، كباراً وصغاراً، في عملية تنظيف مخلفات أدوات تجعيد الشعر لتحضيرها إلى يوم آخر، بدءاً من ليّ رقائق الألمنيوم ودقّها لإرجاعها إلى وضع مسطح بعد نزع قصاصة ورق عليها ونفض قطع قماش صغيرة جداً بين كل القطع من بقايا تفاعلات كيميائية، إلى كنس الشعر من أرض الغرفة. يقع عبء العمل أغلبه على فردوس. تأخذ قطعتي الألمنيوم، تدس قماش منقوعة بسوائل كيميائية. تلفّها بقصاصة ورق. تطويها وتناولها لأم هشام لتغلف بها خصلة شعر معزولة بمشبك خشبي عن جلدة الرأس، تنتظر انتهاء عملية التفاعل الكيميائي. تغسل الشعر. تمشطه وتلمّعه بدهن الورد للحفاظ على بريق محبّب. وفي يوم مشهود يتحرر فارس الصغير من الأعمال الشاقة المجانية حين يطالب ويحصل على أجر عن كل نوبة عمل يقوم بها. أمّ يدهش الجميع ويجعلهم يشيدون بنتيجة نضاله. يتمادى في طلب خمسة فلوس أخرى عن وقت يقضيه في تدليك كتفي الوالدة والدعس على قدمين متعبتين جراء وقوف متواصل، إلا أن النتيجة هذه المرّة تأتي مخيبة لطموح أبو الفوارس المادي، وعلى عكس ما هو متوقع من نتائج نضال ثوري مطلبّي، إذ تبرز جليّة طبقات نعال موجعة لأم هشام على مؤخرته تضطره أن يغفو على بطنه ليلتها. يحاول الانتقام من والدته بنظم ما يسميه شعراً، يظل يتذكره طوال عمره باعتباره يوم انطلاق موهبته الشعرية من مكنوناتها:

- رأينا الضيم والقهر/ من شقيّة بنت جبر/ عليها ضربة نعال/ ما يتحملها الزمال...

ينال ما كتبه استحسان هشام تخلصاً من ملاحقته لإبداء رأي. يقرر فارس نذر نفسه لـ موهبته الشعرية، يؤرخ كل حدث في العائلة شعراً مستغلاً الأمر لكسب مال، لإبتزاز الآخرين، لإغظة أخيه حسّان حين ينعته بألقاب جاهزة حسب المواقف، كحسّان أبو الذبان، حسّان سلبوح سيان، حسوني الدوني، أو يناديه حينما يكون بحاجة إليه بألقاب مثل، حسان وردة البستان، غازي الوديان، بطل العربان، مدوخ طرزان وغير ذلك من ألقاب.

لألبيز، صديق هشام، وجهة نظر أخرى في أم هشام وانتقالها إليّ، يقول انها امرأة قليلة حظ، لم تحتل حالة عوز وضيق، امرأة تعمل على تحسين أحوال أسرتها دون ان تحسب حساباً لصحتها وراحتها، رمز لحب الأم، لتفانيها، لتضحيتها بنفسها من أجل أولادها. يتنبأ بانها سوف تخلد في دواوين شعراء وربما ينحت لها نحاتو المدينة تمثالاً كرمز للأمومة والتضحية.

على خلاف تلك الآراء، يصرّح ستار بصوت عال كصوت معلقي الرياضة، بأن بنت العلوية تعرف كيف تدير اللعب في ملعبها وتصل إلى الهدف بدقة رغم عدم انسجامها مع لاعبين آخرين في الفريق يحاولون عرقلتها بمناورات غير ناجحة. يبارك لصديقه هشام الانتقال إليّ، إلى الملعب الجديد.

لكن مؤيد، صديقه الآخر، يرى بأن كل ما تقوم به تلك المرأة "الخرافية" من جهد ماهر إلا عبث في عبث، طالما ان البشر في خاتمة حياتهم اللامجدية ينتهون جميعاً سواء فيّ أو في غيري، مضيفاً: ان الحياة غير جذيرة بالعيش ولا جدوى البتة من محاولات الذات المقعرة أو الأنا المستلبة في التغيير مهما تبذل من جهد في اعتناقاتها وكل ما نحيا لأجله هو فراغ

لا طائل من ورائه طالما ان وجودنا خالٍ من أي قيمة.

خلافاً عن الجميع، يعقّب لافي بأن قضية البيت الجديد تصير لديهم أكثر أهمية من القضية الفلسطينية، وبما ان الأمة العربية غير متوحدة فلا يمكن أن يتوحد بيتهم. ترمش أجفان عينية بتواصل حين يقول، "أمك ضد أبوك وأبوك ضد أمك، وانت ضد أختك، وأختك ضدك، وأخوانك القروء واحد ضد الآخر. لا يوجد أفق ورسالة واضحة للوحدة بينكم، ما يخوّفني هو انفصال- شفيقة ستان- عن بقية البيت العلواني، بينما نطمح إحنا للوحدة الكبرى ابتداءً من شناسيل البيت القديم إلى شبابيك البيت الجديد أم السيم، وليس للتمزق والانفصال. نفكر بقيادة قوية، قيادة أمّة، وليس قيادة أمك".

يستنكر الخال عمل "حرمة" رافضة لوظيفة طبيعية في خدمة زوجها وتربية أولادها، غير أبهة بمكوث في الدار حتى الممات، بينما يعلّق أفراد أسرة العم والعمّة السيدة بأنها ترغب في تغيير حالها بسبب عقد وحرمانات، "بت فگر ما شايفه وشافت"، ولزم الأمر الآن شكيمة رجل قوي لكبحها، في تلميح إلى ضرورة قسوة وحسم، بيديهما، السيد زوجها، يصل الجميع إلى اتفاق متعاهدين على بذل جهود تحريضية استثنائية معه كي يأخذ دوره كرجل البيت كما كان أيام شبابه.

يكتب عنها هشام: هي أمي التي أحب ولرؤيتها أسعد. الكلمة الأولى على لساني والوجه الأول في عيني. أول لمسة ليدي من يدها، أول ضمة حنون لجسدي النحيل منها. تستحق حياة لائقة تسعى إليها اليوم بعملها وعرقها، بوقفة طويلة على قدميها لتجمل نساء وتبعث فرحة في قلوبهن. أم هشام، مختلفة متميزة عن بقية النساء في يقينها بنفسها وإيمانها بمسؤوليتها اتجاهنا نحن أولادها، لا تنام حتى تمرّ على فراش كل واحد منا،

تباركه ببسمة راضية تنطّ من مبسمها عذبة منشرحة فوّاحة،
مثل لحظة تفتح فيها قنينة عطر جديدة أو ترتطم بغتة بشجرة
ورد عطرة في موسم ربيع. تسهر أم هشام حتى تكمل عملها،
تستيقظ قبلنا مستقبلة صباحها باجتهاد وكدّ من جديد. تلك هي
أمي، أمثولتي وقدوتي في التحدي وحب الحياة والايمان بأمل
لا بُدّ ان يكتنفها ويسبغ عليها معنى. أمي المليحة، دافئة مفعمة
بأحلام معبأة بشجن بلد ممتد من بدايات التاريخ ليومنا هذا،
واحدة من مخلفات وضحايا عصور حريم متسخة بتسلط وزهو
ذكورة جوفاء ورثت جينات خرقاء لتقاليد قاصرة متخلفة.

ينتقلون اليّ رغم كل وجهات النظر المعارضة. لم يأخذ أحد
من الكبار رأي أولادهم. يابى حسان مغادرة مراتع طفولة،
أصدقاء أمس، مرابع زمن بريء متقد، أرض مسرح شهدت
عروضاً تمثيلية مماثلة لأفلام تاريخية وخيالية رائجة في دور
سينما ذاك الوقت. يجمع صبياناً مجهزين بأسلحة مثل سعف
نخيل وصحون معدنية وأغطية قدور كدروع، وعصي وأسيخ
حديدية قديمة، ويلجؤون إلى مشاغلة خياط الفروري وسرقة
أدواته. يتحول الزقاق إلى ساحة حرب، يطلق الأولاد صيحات
هجومية وصفيراً وتتطاير أسلحتهم. يتحرشون بنداف المحلة
الأحذب، يأخذون عصاه، يجري وراءهم داعساً على لحاف
ممدود على الأرض، تتطاير من ملابسه ندف قطن مع شتائم،
لا يسمعها من يأخذ قيلولة الظهر في سراديب باردة مظلمة.

اليوم، انتهى عهد البيت القديم والسرداب، صارت المروحة
السقفية بدل البادگیر وشرشف الحبل. فقد الأولاد شهيتهم للعب
في بيئة جديدة تحيط بي وصرامة جيران يقدسون السكون في
وقت قيلولة الظهيرة.

تزورني نيدابا بعد زمن طويل، أحسّ بوجيف قلبها لحظة

تطأ قدمها عتبة باب حديدي أسود مرصع بنجوم ذهبية تعدّها في ظهيرات الصيف لتتعلّم الحساب. ما برحت شواهي تحرس سنوات عمرها وذاكرتها، ذاكرة جارفة أسرة، ناصعة مثل دفق ماء يروي تجاويف قلب، يمضي رقراقاً في سواقي دم، وفي رفيع خلايا لماضٍ بهي. تزورني في شيخوختي، لتسألها صاحبتني الجديدة، "عيني عليمين تُدورين؟ على شنو؟"

دعيني أخبرك أنا. تبحث نيدابا عن ذات ماض، عن ذات مكان، عن ذاكرة ضبابية كأنها تعود إلى حياة أخرى، عن أم هشام تجلس عصراً في تلك الطارمة تشرب شاي العصر بعد قيلولة قصيرة، عن ساعة معلقة على هذا الحائط، يضبط بندولها على دقات ساعة بگ بن، عن الله بالخير سمحة تسمعها للترحيب بضيوف وزائرين. تطوف عيناها باحثة عن مكتبة هشام، عن زاوية يخلو فيها حسّان لنفسه مسترجعاً أدواراً مسرحية أو مغامرات مع بنات المحلة، عن سياج يتسلق عليه فارس وقت الظهيرة، عن كلبه سيمو السارق، عن عنتر القط المدلل، يتوارث الاسم حتى آخر سلالة له، عن صينية فيها أطباق حلوى حلال المشاكل، يختار فارس أفضل ما فيها قبل أن تسكبه جارة في فوطتها ويسمع منها، "عساه واصل"، وكيف عن ذلك عند سابع جار. عن ركن الكراكيب خلف المطبخ تقضي فيه أوقاتاً تتأمل. تبحث عن طلائع تمر في بستان قريب، تدفنه في رمل على سطحي لينضج في حر الصيف، عن نبات ليف متسلق يزهر بأزهار صفراء، يعانق جلناراً أحمر لشجرة رمان، عن شجيرة رازقي، يضع الوالد ورودها في علبة تبغها لتضمخه بعطر زكي، عن جرة فخار فيها نقود وماء، وأهزوجة تصاحب كسرهما، "راح صفر جانا ربيع، يا محمد يا شفيع"، عن أول خطوة صغيرة لها في أول يوم للمدرسة، عن حقيبة تشبه الصندوق ترهق يدها، عن دفاتر

مغلّفة بورق أسمر ملوث بدهن كباب بداخلها، عن بواكير أنوثة، عن أنها القديمة التي اشتاقت إليها.

"يا غالية يا بنت الغالية". تتحدث صاحبتى الجديدة عن صداقة ربطت أمها مع أم هشام. تخرجان سوية للسمر ورد الواجب، لحضور مناسبات سارة، يجعلها رب العالمين من نصيبك، وأخرى غير سارة، "يبعد عنك شرها ويحفظك". تحضران قبولاً لعوائل متمكنة قادرة تؤمن بقوله تعالى "وأما بنعمة ربك فحدث". تتوق أم هشام لتتشبه بها، تلقي باللائمة على قلة حظ لم يجعلها مثل مسعدات لا يعملن نهراً وليلاً مثلها، يصرف عليهن رجالهن، "لا خبز بسرجين ولا بنن بطين". تدعو إلى بيتها ذات يوم، جيراناً محسوبين على طبقة راقية، ونساء محلتها القديمة خشية زعلهن، تستعير أقداح شاي وشراب إضافية، تنتسوق كعكاً، سكرّاً، قناني عصير ماء الورد، تحرص على إخفاء ما تشتريه عن النمل وفارس. تغسل ستائر الدار. تفرش فرشاً نظيفة. تستخرج من قطعة قماش صغيرة، حب هال جلبته لها والدتها الحاجة زهرة من مكة، تضيفه إلى كيك ومعجنات تفوح رائحتها في الدار، تختلط برائحة كرات نفتالين طالعة من صندوق ملابس خاص بمناسبات سارة وأعراس عندما تفتحه. ترتدي رداءً من ستان أحمر طويل، تحت صاية مصنوعة من دانتيلا سوداء. تدور حركة نشيطة حين تحضر نساء وشابات من مختلف الأعمار. تمتلئ الدار بأطفال، بهرج، بصخب، بصرخات أمهات محذرات أولادهن معنفات بكلمات مثل "نزل عليكم" أو هامسات على أولاد أخريات، "حرارة، ينطون خبز لولدهم، ما ينطون تربية". تدور أحاديث شتى عن طبخ، شغل بيت، شكاوى من أولاد، من طلبات أزواج. يتحدثن عن مسائل مثيرة للجدل كمحو الأمية ونزع العباءة، عن أحدث الأغاني

لمطربات مشهورات وآخر موضة فساتين سهرة لممثلات وفنانات. يهدأ الجميع لما تقوم امرأة مهمتها ترفيه الضيفات، بأداء حركات مضحكة متقنة تتعدها أحياناً إلى تلميحات وإشارات جنسية تجعلهن يضعن أيديهن على أفواههن وتدمع عيونهن من الضحك وتتورد وجنات صبايا خجلاً فيطرقن رؤوسهن حياءً. تنتشغل السيدة أم هشام وابنتها بتقديم شاي ومعجنات للجميع. ترشّان ماء ورد على من يغادرن، تنهمكان بعد ذلك في ترتيب البيت، كنسه، غسل أقداح والتهيؤ لعمل اليوم التالي. في هذا الوقت، يفلح فارس بالعثور على ما تبقى من كيك وسكر، يشاركه فيها حسّان بعد فروغه من مهمة المراقبة وإخفاء خيوط "جريمة" مفضوحة، تعرفها والدتهما لكنها تغضّ الطرف عنها لتعجبها.

المرحومة أمي أعز صديقاتها، وين ما تروح، تروح ويّاها. مساءً، تذهب معها لمساعدة جارتيهما، زوجة الشكرجي في لف حلوى نوّكه بأوراق ملونة زاهية. صباحاً تشربان الشاي عند جارة أخرى، تصغي أم هشام إلى مشاكلها، تجود عليها بنصائح وأمثال وحكم. قبل الغداء، تتناولان القهوة عند جارة ثالثة، تقلب أم هشام الفنجان وتقرأه لها، غالباً ما ترى فيه بشارات خير وسلاماً، كحمامة تجلب رسالة، أو طريقاً مفتوحاً طويلاً كبشري رزق وشيك. تذهب أحياناً في تبصرها بعيداً فتري رجلين يضعان يديهما بيد بعض في إشارة إلى خطوبة أو زواج. تتواصل على فعل الخير متقصية من بعض الأمهات عن بنات وأولاد لهن بعمر زواج. تتفق معهن على خطط تساعد في لقاء الطالبين، تقوم باستعراض محاسن وصفات الفتيات من أدب ومال وجمال وتشارك في مباحثات تجري حول مبلغ صداق من حاضر وغائب ومصوغات ذهب وبدلات عرس، وإنّ تحصل القسمة والنصيب تتطوع لتجميل العروس.

لا تريد من رب العالمين سوى كسب ثواب وأجر ومغفرة، غير ان أصعب عمل تواجهه هو إيجاد عريس لفتيات يقتربن من حافة عنوسة أو دمامة. كما حدث مع الست أميرة التي غالباً ما تفتش أم هشام في وجهها عبثاً عن لمحة جمال، لكنها مع ذلك لم تياس في البحث عن عريس لها، حينما فلحت أخيراً، راحت تبذل جهداً في تجميلها وتزويقها في يوم عرسها مستخدمة كل خبراتها، تخفي جبيناً عريضاً، تغمر عيوناً تشبه ثقب "چفچير" بالكحل لتوسيعهما، تلبسها بدلة طويلة لكي لا تتبين ساقان معوجتان لها عن إعاقة قديمة ناجمة عن مرض الكساح، لكنها تفشل في إخفاء كشرة فم وأسنان متراففة على بعضها، ربنا يستر العيوب، سبحانه في خلقك وحكمتك. توصي الست بأن تغلق فمها حتى اليوم السابع من العرس، بحجة أنها صائمة عن الكلام، تعترض العروس ضاحكة كاشفة عن فم يشبه فم مغني (ياغزال يا غزال) في اوبريت الليلة الكبيرة. أستغفر المولى، فتقول ست اميرة:

- لكن شلون أكل وأشغب؟

تدرك أم هشام بأن الست - ست أميعة - تلتغ بحرف الراء، تعلم كلمة، رمان، لتلميذات يرددن ورائها: غُمان، غُمان.

تحكي زبونات لأم هشام أدق تفاصيل حياتهن الشخصية بما فيها علاقاتهن في الفراش وطول أعضاء ذكورية لأزواجهن فيطلقن نكات وضحكات عالية. و تزدهم غرفة ضيوفها أحياناً برجال مهمين في المدينة، يتوسطون لديها لاسترجاع زوجاتهم بعد كلمة طلاق، أطلقوها في ساعة تهور وغضب، وإثر تصالح وتصاف، تنطلق زغاريد بهيجة من بيتها.

- أمهاتنا ما يفترقن، وخصوصاً بشهر محرّم.

* * *

شهر محرم

تحتفي بي المدينة مرة في كل عام ممتّحة بالسواد، أتميز بإستعراضات وبموكب احتفائية تخلّد أحداثاً تاريخية حدثت منذ زمن بعيد. تتوحد في زماني مشاعر خيرة لجموع ناسية فرديتها مندمجة مع طقوس تصنعها لي. تُغلق مبكراً دكاكين وتتوقف أشغال، تزدهم الشوارع بريفيين قادمين من قرى تحيط بالمدينة. يتطوع رجال محترمون لتحضير طعام يقدمونه إلى ناس مارّين بلا مقابل، تنتشر في الأزقة أزيار فخارية يملؤها خيرون بماء صافٍ يكون أحياناً محلّى بسكر أو معطراً بماء ورد، يرتوي منه مارّون يتوجب عليهم قراءة سورة الفاتحة على أرواح شهداء بررة وتذكّر عطشهم. ينصب رجال سراققات واسعة في شوارع رئيسية. كل حي يتفاخر بموكب عزائه وانتمائيه لمحلّته، ولا تخلو تلك الأحياء من منتمين إلى أحزاب سياسية معارضة ينتقدون حكومة أو يمجدون عقيدة، مضمّنين موكبهم شعارات تخفي معاني زلقة داعية لفضح ظلم ولثورة، تراقبهم عيون حذرة تحفظ سحناتهم جيداً في انتظار حساب وشيك. يزدهر مزاج وعظ وإرشاد ديني لرجال دين، وينتشر ضاربو سلاسل حديدية. يتجمع لطمّامون كاشفين عن صدور تحمّر من كثرة الضرب. يتوافد طبّالون، صنّاجون، نافخو أبواق. يتسكع شباب يبالغون في تثبيت شعور الرؤوس بزيوت ملمّعة، ما تنفك أعناقهم تشرّيب نحو شرفات وشبابيك

تطلّ منها وجوه صبايا حاسرات الرؤوس أو بعباءات، ينظرون إليهن بين فينة وأخرى بحسرة وأمل في نظرة متبادلة. تمتلئ الطرقات بروث أحصنة يركب عليها ممثلون متشبهون بآل الرسول وأعدائهم، يرفلون بأزياء مقاتلي ذاك العصر من دروع حديدية وعباءات ملونة، معتمرين خوذاً يزينها ريش وأشرطة ملونة زاهية. يتبارزون بين وقفه وأخرى بسيف يؤكد ويحلف بعض الناس بأغلظ الأيمان بأنها حقيقية. يؤدّون أدواراً بلغة تقرب من الفصحى، مبيّنة إصرار أصحاب حق وقوة إيمانية في التشبث بحقهم في حكم الناس وانقاذهم من حكام جائرين. يشدّ عنهم رجال منبذون بملابس حمراء يختارهم منظمو المراسيم من بين سكرّين سيئي صيت وعاطلين. يقوم جبّوري الخبل بدور الشمر، يضع على عينيه قناعاً يشبه قناع زورو، ويترك موقعه في الموكب لو يرى أم هشام قادمة من بعيد، "شلونك خالة أم هشام".

ترد عليه التحية، "عشتو. ما حبّتي غير الجلب والجاهل الماله كلب، وجبّوري ابن نونة الذرب".

تتباين مشاهد العزاء من أجواء مناورات كلامية إلى مشاهد قتال ومنازلات، حتى أصل إلى ليلة عاشوراء، يصرّ هشام على تسميتها يوم تاسوعاء، تتأجج فيه الأحداث. يتكفن حاملو قامات من متطبرين بقماش أبيض، ضاربين رؤوساً مخلوقة لهم بطبر وقامات خشبية أو حقيقية لإحياء يوم الاستشهاد التاريخي، يأخذ الحماس بعضهم، يشجّ رأسه بشفرة حادة، تزداد قوتها أحياناً، عند مكان تكثر فيه نسوة نائحات متلفعات بعباءات بغرض نيل إعجابهن واستعراض قوة ورجولة. ينتهي الأمر به إلى سيارة إسعاف ومستشفى المدينة. ترافق مسيرة التطبير، موسيقى طنانة تخيف الصغار، يطلقها ضاربو أبواق

كبيرة وصنج مدويّة مرفوقة بكلمة "حيدر" بين الفينة والأخرى وبميكانيكية مقدسة. يشدد عويل، نواح، لطم ناس، يضيق المكان بصراخ أطفال خائفين ضائعين أو موجوعين من شدة تدافع واحتشاد بشر. تتلاصق أجساد مع بعضها. يضع صوت امرأة شاتمة لرجل وسط الضجيج ويختلط حابل بنابل. لكن عند انتهاء المراسيم، ينفض المتفرجون إلى أحياء جاؤوا منها، يساهمون في إيقاد نار وطبخ عصيدة قمح مع جيران ومتباركين. يتفاخر كل بيت بكمية حنطة ولحم يضيفها إلى قدور كبيرة متشحة بسخام. يتحمس أولاد صغار في نقل حطب يغذي ناراً تحتها. تقوم نساء بعمل صواني شاي لطباخين ورجال يساعدونهم، يجلسن قرب أبواب دورهن، يلكن أحاديث يومية. تتصدر أم هشام متحدثّة عن رحلاتها إلى المدينة المقدسة، عن مواقف طريفة تواجهها في ساعة مجيء راكضين من كل حدب وصوب لنجدة مقاتلين شرفاء في يوم الاستشهاد، تضيف عليها ما يوجد به خيالها من مواقف مسلية تحلف بالأئمة انها شاهدتها بأم عينها. تعمل صبايا حلقات لطم على الجباه فاكات جدائلهن. يخرج مستون كراسي من دورهم، يجلسون عليها بصمت محرّكين مسبحات طويلة بأصابعهم، في اليد الأخرى علبة تبغ على الأغلب، يفتتون قليلاً منه في أوراق خفيفة يلفونها بإحكام متمرّس ثم يدخلونها بوقار. يتباهى أحدهم بجهاز تسجيل يقتنيه، يسمعهم عبره قصة المقتل الشهيرة لقارئ معروف بنبرات صوت شجي ومثير للأشجان، لافظاً بعض الكلمات بلحن مموسق وتقطيع مقصود في مستويات الإلقاء ومط بعض الحروف: (لعن اللاهوو، أمتن.. قتلتك.. ثم لعن اللاهوو، أمتن، رضيت بقتلك)، لتأجيج شجن واستحثاث بكاء.

في محاولة لإضفاء طراوة على أجواء حزن خشنة، يجرؤ

بعض الجالسين على ذكر طرف ونوادر. يروي أحدهم حادثة حصلت لقروي سألوه عن سبب بكاء مرّ متواصل له حينما كان القاريء منشغلاً بقراءة قصائد تخصّ المناسبة بلغة فصحي لا يفهمها قادم من الأرياف، يعزي بكاءه الحار إلى صوت يذكره بصوت نعجة فقدّها قبل يومين. ينبري السيد عبد الهادي بسرد حكاية عن تظاهرة حدثت في إحدى القرى، يخرج فيها فلاحون ناقمون على مسؤولين هاتقين: يعيش الله والحسين، يسقط مدير الناحية. يواصل جاره الحديث عن محاولات حثيثة لعضو حزبي في إحدى القرى الصغيرة من أجل تعليم قرويين مبادئ الحزب، يستعرض عمله بعد جهد جهيد أمام مسؤول منظمته الحزبية فيسأل عن مبادئ الحزب الثلاثة، يتذكر قروي كلمة "وحدة" فقط، يساعده المسؤول على التذكر بلفظ منتصف الكلمة الثانية "حر...."، يستدرك الرجل، "إي إي، أزرب عليهن، وحدة حرية اشتراكية". يضحك الكبار ضحكات خفيّة وخفيفة، يستغفرون ربهم، يرجعون إلى تحريك مسبحاتهم، إلى وقارهم، كأن ما حدث قبل قليل من متعة لاهية، ذنب ينبغي التكفير عنه، نزوة عابرة تحدث أحياناً حتى لحكام ورعين كيّسين. يتحمس أحدهم صائحاً بأعلى صوته: يا جماعة كل دمة على الحسين تمحو مئة ذنب يوم القيامة، يعود إليه مزاحه من جديد فيهمس لجاره: "ولا ذنب واحد راح منك أبو هشام، دموعك ما توصّلك لراس الشارع مو للجنة، شلون ستّي وييجي على الحسين؟". يستغفر أبو هشام ربه عالياً ليس بسبب قول صديقه، بل لما يخطر في باله قول ابنه هشام بوجوب عدم البكاء على الإمام الحسين لأنه يعيش الآن متنعماً في الجنة، محاججاً بأن الحزن على الشهيد أمر بعيد عن الإيمان والدين. يستنكر في نفسه لا عنأ ابناً لا يقيم وزناً للشعائر ولا يساهم في العزاء. يجلس في البيت يقرأ كتباً تخرب عقله أو يسهر مع

أصدقاء السوء، يسكرون على صوت المقرئ عبد الباسط.
يتمتم غاضباً، "بُشْت..الحسين يسوه راسك وراس أبوك،
زْنيم". يقول ابنه بأن القاهرة تكتب وبيروت تطبع والعراق
نصفه يلطم ونصفه الآخر يشرب عرق، "هتلي..أدري بي
يشرب عرگ ، ويسمّي باسم الله قبل ما يتزقنب المنكر.
أستغفر ربي الوهاب الحكيم".

تتبين للساهرين طلائع فجر يعلن عنه مؤذن، يتوادعون
متوجهين صوب بيوتهم، يركنون إلى مضاجعهم، يغطّون في
نوم عميق. توقظ النسوة أولادهن، تضع في أيديهم قدوراً
فارغة للحصول على حنطة مطبوخة لوجبة الفطور ولنيل
الثواب، ينشغلن بتحضير صحون وملاعق وسحن أعواد
دارسين لرشّها فوق الهريسة مع سكر ودهن حرّ ساخن.

يظهر حسّان مواهب تمثيلية نادرة طيلة فترة حلولي على
تاريخ المدينة، يرافقه سيفه حتى عند النوم، يتبع خطاه فارس،
يتقدم أمام موكب عزاء محلته ضارباً بغطائي قدرين، مقلداً
ضاربين وصنّاجين، فيرجعه منظمو الموكب إلى الخلف، لكنه
يصرّ على أن يتقدمهم مرة أخرى، أو يقود صبية من محلاته
بعد انتهاء الموكب إلى محلة مجاورة منافسة تفوز عليهم بلعبة
المحيبس في رمضان، يخبئ بجيبه كمية من ملح انجليزي
يستخدمه أبوه لمعالجة الإمساك، يضعه في مياه شرب
مخصصة لزائرين ومارّين في تلك المحلّة، يكون الوقت
متأخراً عندما يكتشف هشام الأمر.

لا أخفي عليكم ما أريد قوله، أتمنى لو تنتظرني الناس بفرح
وتبصر لا بحزن وسواد، أن أحمل معي أجواءً نادرة وفريدة
مضمّخة بمعان سامية نبيلة، بطقوس وشعائر لا مغالاة فيها
تصطبغ بصبغة اجتماعية تآلفية، تشبه مجالس نسوية وقرائات

عزاءات تقيمها بيوت معروفة في المدينة، قادرة على دفع أجور أكثر الملالي والقارئات شهرة وعلى تكاليف موائد عامرة تدعو إليها زائرات. تتربع المُلّه الكبيرة على كرسي عالٍ وتجلس جوارها على الأرض مساعدة لها، تخرج من حقيبتها دفترًا مغلفًا بجلد أسود، تستقيم في جلستها مستذكرة ما ستقوله. يبرز حَوْلُ عينيها أكثر لتغدو، كما تشبهها فردوس، بممثلة عربية أسمها نجمة ابراهيم في الفيلم العربي ريا وسكينة. تعلق شفتيها، تصيح بصوت يسكت أطفال مشاكسين لسماع نبرته: "ويـــــــــه يا حســــــــين"، تكون إشارة لتغطي نسوة حاضرات وجوههن بعباءاتهن، يشرعن في بكاء جاهر لما لديهن من جففات مليئة بهوم وأسى، تشرع المَلّاية بشرح مصيبة آل البيت في كربلاء، يعلو صراخ نسوة لما يسمعن بأسم تلك المدينة، تواصل قراءة المأساة بإيقاع منتظم، تلطم النسوة على صدورهن مردّدات معها نهاية كل جملة أو نادبات بكلمة أحاه.. أحاه.. تحفزهن المَلّاية امرأة:

"يلّه خواتي.. يا خوية يا حسين، تبجي عليك العين".. تكمل مساعدتها قراءة ما تبقى من القصيدة بإيقاع بطيء، تقابل الحاضرات إحداهن الأخرى واقفات، يضربن على أصداغهن بتؤدة، ترفع قليلاً أم هشام رداءها الهاشمي كي لا تتعثر به، تتقابل أمام امرأة تعرفها، تضرب بخفة على صدغيها، تحادثها:

- شلونج إخببية؟ شلون وليداتج؟ ..أحّا أحّا
- تجبييها صاحبتها، ضاربة على صدغيها برقة:
- كلهم عبيداتج، بيوسون إيدج.. أحّا أحّا
- وشكّد صارو الله يخليهم؟ ..أحّا أحّا
- رحمة الله، سبعة، والثامن بالطريق.. أحّا أحّا

- صلوات على محمد..أحّا أحّا

يتغير الإيقاع من بطيء إلى سريع. تضرب متحمسات بقوة على جباههن، فاردات شعورهن، مائلات برؤوسهن شمالاً ويميناً، مرددات كلمة أحّا.. أحّا، على التوالي. تعلن المله الكبيرة انتهاء العزاء وشعائر تخصني، تبارك جهود حاضرات ولاطمات لن تذهب هباءً بعون الله وشفاعة أهل البيت. تترجأها صاحبة الدار قبول دعوة العشاء. تنهض الملائية ومرافقتها بعد تردد قصير. تتصدر المائدة أو تأخذ ما يمكن حمله معها. تهرع النساء نحو المائدة ناسيات حزنهن وبكائهن. يعلو لغطهن على مائدة طعام غنية زاخرة بأصناف طعام منه الباري على أهل الدار. يمتدحن صاحبة الدار. يدعين لها بمزيد من نعيم الواهب القدير، بدار عامرة وثواب في الآخرة.

عقب خروج الحاضرات، توقد صاحبة الدار بخوراً وتحرق حرماً في مباخر جاهزة، تحسباً من حسد حاسدات وعقد نفاثات، مرددة آية قل أعوذ برب الفلق سبع مرات، تنفخ الهواء من فمها في أرجاء الدار بعد المرة الأخيرة طرداً لكل عين شريرة، تلافياً لكل ما تغفل عنه خرزة سبع عيون من امتصاص نظرات عيون حاسدات.

بعد انتهاء مراسمي. يرجع السيد عبد الهادي من بقاء ملزم في مقهى المحلة إلى ملازمة البيت، يعبر عن عدم رضاه عن مبالغات في طقوس مجالس حسينية وعن غضبه واشمئزازه من عادات نسوية كالموالييد، القبول وحفلات أعياد الميلاد، يؤيده بعض من جلّاس المقهى.

* * *

مقهى

يقتبسون اسمي من مشروب القهوة رغم انهم يفضلون شرب الشاي. يأتي إليّ رجال بمختلف الأعمار التماساً لصحبة وتواصل اجتماعي، أمّلين بساعة صفو وراحة. يختارني كبار سن ومتقاعدون قريباً من بيوتهم، بينما غالباً ما يفضلني شباب المدينة بعيداً عن أجواء عائلة وجيران ليأخذوا راحتهم في كلام وتسلية. في مكاني قرب شاطئ النهر، أعتاد على وجوه بعضهم وأنس، يأتي إليّ عصراً هشام عبد الهادي وأصدقائه، صلاح الدين الطيب، ستار أبو الطوبة، آلبيير الولهان، مؤيد الخامل ولافي ذي الطبع الحاد. يتبادلون هموماً شخصية وعامة، حول ما يجري في البلد وفي العالم.

في يوم غائم، يحضر آلبيير متجهم الوجه على غير عادته، يجلس على كرسيه دون ان يساهم بالحديث، ينهي ستار آخر حركة من لعبة الشطرنج صائحاً بمرح: "كش أخته ملك، انتهت المباراة. خير آلبيير؟ أرى وجهاً عبوساً قمطيراً، خسران فريقك بالدوري؟"

لا يردّ عليه صديقه. يلاطف صلاح الدين القادم الحزين، دارياً بمعاناته، جازماً بأن كل مشاكل البشر، حتى العاطفية منها، سببها الرئيس طبقي واقتصادي يتعلق بوسائل الانتاج وملكيّتها، ذاكراً، كدليل على نظريته، سبب رفض أهل فتاته محاسن، لأنها ابنة مقول ثري، وآلبيير طالب فقير بمعهد

التجارة مثله، أهله من حثالة الطبقة العاملة ومن دين غير دين أهل الحبيبة.

يقترح ستار على ألبير الخروج في مظاهرة أمام بيت محاسن هاتفاً ضد والدها البرجوازي أو أن يقوم بلعب الكرة أمام بيتها مكسراً كل زجاج الدار. تخرج كلمات ستار متقطعة من فم يرمي نحوه حبات فستق يمضغها بصوت عالٍ:

- يعمود ألبير، شنو خلصن البنات؟ تخسر مباراة، تربح اللخ. هاي الحياة يوم خسارة ويوم ربح. لا تستمع لحنالة الأصدقاء وأفضل لاعبين بلعب الحياة.

يطرق ألبير رأسه الكبير، يشرح بعيون دامعة حبه للفتاة، حباً لا يعترف بطبقات أو بديانات:

- إذا يزوجوها من غيري، ننتحر، هذا قرارنا.

يضع ستار يده على جهة قلبه مغمضاً عينيه بتأثر مصطنع، تظهر مكانهما غابة من شعر ورموش وحواجب كثيفة معقودة:

- أوي عيني. كسرت لي جام غلبي بضربة رأسية. رفاق، في هذه اللحظة الفاصلة من تاريخ أمتنا المجيدة وفي ظل التحديات الخطيرة التي تواجهها شعوب المنطقة، راح نسوي فاحتين على روح ألبير الطاهرة إن أراد أبانا في أخدار السماء، وحدة في حسينية القلب الأقدس والثانية بكنيسة أبو خرغة الخضرة.

يجد مؤيد الصامت في الموضوع إثارة فلسفية. يدلي بدلوه:

- الانتحار أحسن شيء، لا توجد قيمة ثابتة توجّه سلوك الناس، ينبغي على كل إنسان فعل ما يريد، بلا قيود ولا ممنوعات لحين ان يعيد اعتباره الكلي، بلا دين، نظريات،

إملاءات، بدون حياة غير مجدية فارغة تافهة، انت الذي تقوم بتكوين جوهر وجودك أو عدمه. لا يعرف المفكرون والأذكىاء السعادة أبداً في عالم حقير تافه.

يحرك ستار رجله بحركات عصبية دلالة على ضجره:

- أعتقد هذا الخراط بعيد كلياً عن مرمى الهدف، عليك انذار وبطاقة صفراء، العقلاء يگولون حكم ومقولات، والأغبياء يرددوها، سخافة، مثل لاعب طوبة يطلع هدف على فريقه.

ينادي على عامل يشتغل عندي:

- وحوّدي. نزل كيلو إرهابات مشوية وعليها صلصة وجودية وكأساً من الجعة بسرعة.

يفرح مؤيد بنقاش ستار الجاهل، يرد عليه في حالة تسلق وتألّق وجودي:

- المعرفة تتكلم، والحكمة تصغي، والجهلاء لا يتكلمون بشكل جيد، ولا يصغون بشكل جيد أيضاً. لعلمكم، البشر صنفان، من يتذكره الآخرون، ومن يتذكر الآخريين، فمن أي صنف أنت؟

ينفخ ستار دخان سيگارته عالياً:

- هراء وخراء، أني من صنف حنّا أبو العرگ وفصيلة دمّي مسيّح، لأن العرق الأبيض ينفع في اليوم الأسود، وأنا أچك اذن أنا دبوس. كراتك يا مثقف بعيدة عن ساحة أبو الوجودية، محسوبك أقرب للهدف لأن اسمي ستار، يعني سارتر بالفرنسية.

يتدخل هشام واضعاً يده على كتف آلبير، طالباً منه التروي وعدم اليأس، مذكراً بأن الإنسان ينتهي حينما يستسلم. يؤيده

صلاح الدين بمقولة جاهزة:

- صحيح، إيقاد شمعة تشق الظلمة خير من البكاء على فراق الشمس طوال الليل، والسلوك البشري أو معظمه خاضع لإرادة الإنسان ذاته وعزمه.

تتألاً دموع مكبوتة في عيني البير يفشل في إخفائها. يتأثر الجميع من حزنه ولوعته. يداري ستار تعاطفه وتأثره بالطرافة:

- بشر في كلامك يقطع القلب والبصل، صاير مخملي ابن ماري، ويلها الرومانسية منك. لكن آني ما شايف واحد رومانسي سمين وكثيف الدسم.

ماذا بوسع شباب عمله في زمن تضيق فيه أحلامهم وتتوه عنهم؟

يتحدث ناس المدينة عن قصة الحب الشهيرة بين البير ومحاسن عندما يسمعون نبأ خطوبة محاسن، يحكون عن ظلم زمن وقسوة أهل، يتابعون أخبار تردي صحة الفتاة. ينظم شعراء المدينة قصائد عن ظلم أزمان وناس ومظلومية عاشقين، رامزين إليهما بأسمي قيس وليلى، يلوم بعض منهم أهل محاسن وصرامتهم، مباركين الحب ومغنين أغانيه بحسرة، ويلقى البعض الآخر باللائمة على البير نفسه، لأنه لم يكّد ويشغل ليثبت جدارته أمام أهل الفتاة، بينما يلّمح آخرون بضرورة تغيير دينه أو تظاهره بذلك نصرة لحبه. تصبح قصة البير ومحاسن شغل أهل المدينة وحديثهم اليومي، حتى الفتى فارس يعطى رأيه شعراً بهذا الموضوع.

ذات صباح، يصدّم أهل المدينة خبر محاولة انتحار محاسن. تسكب الفتاة نطف المدفأة على ملابسها لتحرق نفسها وترقد في

المستشفى بين الحياة والموت. يشيد من يعرفها بجمالها وعفافها، ينقل بعضهم آخر حديث له معها بتفاصيل ومبالغات مؤكداً على تميزها وذكائها. يذكر مختار العطار بأنه يسامحها في مبلغ أشياء اشترتها منه قبل أسبوع أو شهر دون أن تدفع إليه، لكن المدينة تستفيق لاحقاً على خبر صاعق آخر.

يأتي البير إليّ بعد مضي فترة يختفى فيها. يبدو ثملاً من مشيته وسحنته. يجلسه هشام محاولاً مساعدته، يهّم بتقيله ناطقاً بصعوبة ويغني:

- (صوت السكارى يوم، مروّ عليّ..) يقهقه عالياً ويغني (عمّي ييو البار صبلي لبلي، تراني سكران وصاير عصبي).. لك عيني هشومي، ليش أظلم نهار اللي ما أشوفك بيه؟ ها؟

يجيبه صديق، لأنه سكران طينة، وفي طور الرجوع إلى أصوله السومرية في المثل القائل، "لذة الخمر تذهب وعشاء الطريق"، لكن طريقه يصبح أظلماً بعد قنينة خمر كاملة.

يروح المسكين باكياً لا طمأً على رأسه، تصطبغ عيناه العسليتان بلون أحمر، يتهدج صوته لما يفضض عن دواخله ملثاعاً، يضرب رأسه بيده بين حين وآخر:

- سكران؟ گول حلمان، گول أتعس إنسان، گول شبعان قهر وأحزان .. "أنا غيمة في سروال"، لا أبداً، أنا حمار في سروال.. نذل.. جبان.. نعال في سروال.

يطلب هشام من الصبي وّودي دورق ماء وقده.

يسهب البير في الحديث عن مقدار عشقه لمحاسن أم الحسن، كيف تغدو وردته، أمله، حلمه ووجوده. يصف ضحكتها بإطلالة الربيع، وجهها بوجه ملاك. هو الأغبر الذي خذلها،

بعد ان تجاهل توسلاتها بضرورة هروبهما لأنه خاف وجبن.
يروح شاتماً نفسه، لك ليش آلبير الحقير، ليش؟ نسيانها محال
طالما أنه لا يستطيع نسيان قمر أحلامه، شمسها، عهود طفولة
وشباب، كل أغاني عبد الحليم و(انا لك على طول خلّيك لي)،
شنو الإنسان بلا حب ولا أحلام داد هشومي؟ وشنو فائدة
عيوني إذا ما أشوفها بيهن؟ يصمت هشام، يفيض آلبير:

- لك بالمسيح والعذرا أحس روعي مشلوعة من عرگها.
فارغ بلا روح. مجوّف مثل كشر إنسان.. مُر مثل كشر
رمان.. لا.. أني حيوان، ما ألوم أخوك فارس لما گال: "آلبير
أبو صماخ الجبير/ خلّه محاسن تطير". خلّيه يكتب عن
مأساتي، خلّيه يشوف شلون أموت كل لحظة. ما أريده يرثيني،
أنّي ما أستاهل الرثاء: أيها النحل/ هاهي أزايري/ أنا منذ
اليوم لا أخشى لسعك/ فليس عندي سوى شهد عذاباتي....

تبوء محاولات صديقه في التخفيف عنه بالفشل، لم يملك
سوى كلمات موساسية مشجعة، ويا ليتة لم يكتف بذلك.

تصعق المدينة كلها للنبا الفاجع، نبا انتحار آلبير. يبقى
حديث ناسها لفترة طويلة. ينتشر الخبر يوم تجده أمّه جثة هامة
متدلّية من مروحة في سقف صالة البيت، على الأرض تحته،
ورقتان فيها قصيدة لشاعر مشهور يكتبها قبل انتحاره، عنونها،
إلى جميع من أحب:

"انتهى الأمر/ وقارب الحب/ تحطم على صخرة الحياة/
التي صقيتُ حسابي معها/ لا داعي للحزن/ على الآلام
المشتركة/ والمصائب والمنغصات/ أتمنى لكم السعادة ببقائكم/
أن نموتَ في هذه الدنيا ليس صعباً / لكن أصعب بكثير أن
نصنع الحياة".

بجوارها ورقة أخرى إلى صديقه هشام:

"وداعاً صديقي، بلا كلام ولا سلام/ لا تحزن ولا تقطّب
حاجبيك/ ليس جديداً أن نموت في هذه الدنيا/ وأن نعيش،
بالطبع، ليس جديداً أكثر".

تبيع أم آلبير كل ممتلكاتها، تهاجر وبناتها بعد الحادثة إلى
خارج البلد عند أخيها، يحتفظ هشام بلوحة طبيعية لمنظر
غروب يحبها الراحل لتكون سبباً آخر يدعوه إلى معاقرة
الخمرة كلما ينظر إليها متذكراً صداقة غربت.

* * *

صداقة

الإنسانية، الإيجابية، الألفة، تلك هي بعض صفاتي وليس كلّها، أضيف نكهة على حياة الناس باعتبارهم كائنات تعيش بحالة جمعية. ليس من الضروري أن يتشابه الأصدقاء في أدواقهم ووجهات نظرهم بالحياة، غير أنهم يلتقون وفق معطيات أساسية، يتفقون على ملازمة بعضهم البعض دون شروط أو منفعة، كما في حالة فسيفساء فكرية تجمع أصدقاء هشام مع بعضهم، يأتون من مشارب وثقافة مختلفة، ناجمة عن تناقضات زمن وجيل جديدين، يحترمهم معظم ناس مدينتهم، يقتدي بهم صبيان وفتيان المدينة، يغضّ بعض الكهول سمعهم وبصرهم لعلمهم أنهم يشربون المنكر، وأحياناً يحترمون آراءهم واندفاعاتهم، يتعاضدون معهم لما تقع لهم نائبة أو يلمّ بهم كرب.

سرعان ما ينسى الناس ما جرى لألبير ويشرعون بالكلام عن حادثة أخرى أكثر حداثة، قضية صلاح الدين.

يلتقي الأصدقاء عادة في بيت هشام، يتبعه بين فترة وأخرى، لافي المعروف عنه سرعة غضب وتهور. يصفه هشام بكلمة نزق، بينما يلقبه ستّار بلافي شخّاطة، أو لافي سريع الاشتعال، يقترح ترك عمله كمعلم ويشتغل قّداحة.

يأتي صلاح الدين إلى بيت هشام. يستقبله السيد عبد الهادي

متمتماً بصوت خفيض، هازاً يده بحركة عدم رضا، "هلا
بالمسقوفي، هلا.. يا صلاح الدين يا قمر الدين! فساد الدين
وهجمان البيوت".

تفرح أم هشام بمجيئه، يمتدحها مشيداً بدور المرأة في بناء
المجتمع، مقبلاً يدها:

- أم هشام، قدوة النساء، رائدة الطبقة العاملة ونصيرة
الفلاحين.

يغتتم أبو الفوارس الفرصة، يستقبله بالشعر مستغلاً طبيئته:

- صلّوحي نصير الروس/ ناوشني فد خمس فلوس...

يعطيه صلاح ما يطلب ضاحكاً.

حين يكون لافي معه، يلقن القرد الصغير، كما يسمّيه، درساً
بسبب طلبه الدائم للنقود ومداهنة الجميع بشعره:

- يا استاذ لافي ياشافي/ نورك ساطع ووافي/

يقاطعه لافي باحتداد:

- إش لا تدوخنا يا طافي/ انجب قزلقرط كافي/ وانعل أبوه
لمختار/ هذا العطار الحافي

يستدير نحو هشام ساباً لا عنأ بعصبيته المألوفة:

- هذا ضراط مو شعر. تالي ويّ أخوك الطرگاعة؟ مثل
حَمَام الكاظم، يلگط بالكاظمية وبأبو حنيفة، وكلما نجي
يفرهدنا، هذا بيت لو قناة السويس حتى ندفع گمرک؟ أكيد
مؤامرة من مختار القندرة. والقاسم، أحرگ أبوه ودكانه
وحلوياته أم الذبّان، وأخّلي طشاره ماله والي، أبن
ال.....هیچی من عرض أخته.

يدور بينهم نقاش طويل يمتد إلى ساعة متأخرة من الليل،
ينتهي في الغالب بغضب لافي وخروجه مهدداً متوعداً بالذبح
وسلخ وتفليش الوجوه. يعترف بتجاوزه حدود اللياقة أحياناً
حينما يخالفونه في وجهات النظر:

- يابه طير انت والاتحاد السوفيتي مالتك، كلها نظريات
مستوردة ما تتلائم وياه خصوصية وطننا العربي، يا أممية يا
اشتراكية يا بطيخ! خلّي نَعْمَر بيتنا أول، بعدين نروح برّه،
أصلاً حتى الديمقراطية ماتمشي ويانه، راح تشوفون بالتجربة
العملية، بلا استراتيج ولا تكتيك ولا خرط الديالكتيك.

ينادي حسّان من الغرفة بهدوء ولطف على غير عادته:

- حسّان.. حسّان

-

- حسّوني.. حبيبي

-

- حسّان الوردية.. حسّان

-

- لك صُخمان!!!

يأتي حسّان راكضاً أثر سماعه صراخ لافي الغاضب:

- نعم استاذ.

لا يتراخى حين يرى أن الحسم والحزم جاءا بنتيجة، بل
تزداد شحنة غضبه ويصرخ حانقاً شامتاً:

- شفتو؟ شعب ميمشي إلّا بالعصا، وانت ابن شفيقة القبطية،
صايرلي ديموضراطي؟ أصلاً انت وآراءك وأخوك ذاك

المجدّي، متسون عانة. أعقل وحده بالعائلة بكم، حبوبتك الكونتيسة زهرة، كشفت لعبة الأمريكان ليلة باتت بالسطح للصبح وما شافت واحد منهم نزل على سطح الكمر.

يسمع فارس يغني في الصالة: (عفلق يا عفلق يابو الدسايس، ليش اتخوفنا يا عفلق بالبعث الخايس).

يذهب إليه ويصق في وجهه:

- تفووو عليك يا فارس يا خايس، عفلق تاج راسك، يلوگ لأبو ضروگ.. تفو عليكم كلکم.. ما أعرف ليش أنتم اصدقائي، يزربون بتّئاتك ويردونك تسكت.

يغادر البيت صافقاً بابه، وكعادة تلازمه في كل مرة، يرجع بعد خمس دقائق بهيئة معتذر دون تقديم اعتذار.

لم تشفع وساطته عند معارف ومسؤولين عندما يأخذون صلاح من بيته دون السماح له بتغيير ثياب نومه، يجرجرونه إلى مكان معروف للجميع في أن من يدخله لا يخرج منه حياً. آخر مرة يراه فيها، يبدو مشوشاً وقلقاً، يبوح إلى هشام بما يعتمل في نفسه متحسراً: "يا أخي ما أدري، أما نضالنا بيه شيء خطأ، أو إصلاح الأمور مستحيل. بصّرني، انت أكثر واحد عاقل وواقعي بيننا".

يستشهد هشام بكلام أمّه حول أسباب سوء الطبخة كمواضع غير جيدة، مقادير غير مضبوطة، أو عدم كفاءة الطباخ. يضيف ستار، أذا اللاعبين يبذلون جهداً كبيراً في المباراة ويخسرون، فيقع اللوم حينذاك على المدرب وخطته الفاشلة، أو على أرضية الملعب غير الصالحة.

يغيب صلاح مع نفسه في عالم آخر:

- يعني تظل تنتظر، لو يموت الوالي، لو يموت الحمار. لو يمكن انت تموت.

يستغرب لافي من رخاوة صديقه، من تخلخل أفكاره، من تشككه وعدم إيمانه بجدوى النضال. يقطع أفكاره مؤيد:

- اسمعوا، استنتاج هام مني شخصياً، كلما زادت معرفتي بالناس، كلما زاد احترامي للحيوانات، وعلى رأسها كلبكم سيمو الحرامي. هشام، رجاءً بلّغه احترامي وحبّي.. "كلب صديق خير من صديق كلب".

تهتم والدّة هشام بموضوع اختفاء صلاح، ليس لأنها تحبه فحسب، بل لما ترى من حزن ولدها على فراقه وتأخيرته عن المجيء إلى الدار كل مساء، يتأثر هشام لما يراها واقفة بانتظاره عند منعطف الشارع بعد انتصاف الليل، يتألم أكثر عندما تهرع نحو البيت وتظهر بالنوم ظناً منها أنه لم يلمحها. تسترسل بالحديث دون انقطاع، عن أم صلاح، كيف أنها "داخت السبع دوخات" وهي تبحث عن ابنها في المعتقلات والسجون، كيف راحت "تبوس إيد هذا وذاك"، كيف تعيل سبعة أولاد وزوجاً عاجزاً. تعتب على ابنها الصغير فلاح لهروبته إلى مكان غير معلوم، تسأل عن جريمة صلاح وما سبب خوفهم منه، تذكر لساناً طيباً له مثل قلبه، وتشهد باحترام كل من في المدينة له، وبأن أحداً لم يره يعتدي على شخص أو يغلط بحق مخلوق، "الله لا ينطيمهم، راح، قبل ما يتهنّيه بدنيه ويتزوج، شلون راح يعيشون أهلّه من بعده؟ أني.....".

يتسرب خبر متوقع عن تصفية صلاح. يظل كل من في المدينة يحكي عن لطفه، عن مزاياه، شمائله، معاناة أمه الحفّافة وصبرها على مصابها، يلقي بعض الناس اللوم على السياسة

والأحزاب، يلعن البعض الآخر في سرّهم بطش السلطة، قسوتها في تصفية خصومها، انعدام رافة وإنسانية في قلوب البشر. يرفع بعض كبار السن أيديهم متضرعين نحو السماء لترفق بالعباد، داعين بالصبر للمرأة المنكوبة. يوصي رجال ميسورو حال زوجاتهم بإكرام أم صلاح حين تحفّ لهن وجوههن، يقوم بعض البقالين بإرسال مواد غذائية إلى دار أبي صلاح، عناد المشلول.

يوصل ناس المدينة الحديث طويلاً عن قضايا تشبه قصة صلاح تحدث الآخرين، حتى تقع حادثة لعاشق الكرة، ستوري أبو الطوبة تجلب الانتباه، تنسيهم ما جرى قبلها.

يرتاد ستار أحد المقاهي في وقت معين في انتظار برنامج رياضي مفضل، لا تشغله أمور سياسة كثيراً ولا يأبه بخطب ومقولات قادة وحكّام. يصدف أن يبدأ القائد بإلقاء خطبة على شاشة التلفزيون مع موعد بدء البرنامج، يقوم عاشق الكرة بتغيير القناة: "إي.. إي جيب هدف.. غول.. غول.. أبياه! هذا شلون هدف ملبلب، عاشت رجلك أبو سمره.. إي إي.. لك ناول.. يله.. انطي باص.. ل.. لالا.. بالعارضة.. شلون ضربة! خفيفة وسخيفة.. الخطأ من الهجوم، بطاً اللعب.. إي ماكو غير هذا الفاشل تخلوه مهاجم؟ صوچ المدرب والحكم زودها، ما حسب البنرتي.. راح ينتهي زمن المباراة".

وسط دهشة زبائن المقهى، يتجه شخصان بشوارب كثة نحو ستار، يقتادانه عنوة إلى جهة مجهولة. تنقطع أخباره إثرها.

محزن أن يذهب شاب بسيط طيب مع لاعبي الاحتياط قبل أن يحقق له هدفاً واحداً، أو أن يحصل على كارت أحمر يودي به إلى ترك ساحة الحياة بملاعبها، لم يتقن قواعد وأصول اللعبة، انتهى كهدف ضائع قرب المرمى.

يلقي بعض ناس المدينة اللوم على الرياضة في قضية اختفاء ستار، على حب غير طبيعي للكرة، ينسيه تحذيرات من حذر حول عدم تبديل قناة التلفزيون أثناء خطاب القائد. يتحسر من يعرفه بصوت خافت على شاب بريء مهووس بالكرة وعلى عدم إدراكه بأن البلاد تمرّ بوضع استثنائي.

فقدان أحد أركاني خسارة كبيرة للإنسان. كلما يفقد الإنسان صديقاً طيباً يحتاج إلى عمر آخر لتعويضه، غير أن طبيعته في الانصياع لغريزة البقاء تجعله يمضي في سيره بدروب الحياة حاملاً كل مرارته متناسياً كل ندبة من جروحه إلا ذكريات الصداقة.

يختلف حالي عند الشباب عما هو عند الشباب. تتباين سيرورتي ووقعي بسبب تكوين طبيعي وعاطفي مختلف لدى الإناث. لا يمنع انحدار فردوس من أسرة متواضعة من علاقة بصديقات متباينات؛ راحة الثرية، خالدة بأفكارها الثورية، فضيلة بازدواجيتها وغرابتها، ومع ابتسام بسذاجتها وسطحياتها. أحاول أن أوفق بينهن بوثق اهتمامات مشتركة عديدة كقراءة، عناية بمظهر وملبس، محادثات وبوح، مثلهن مثل فتيات في عمرهن وزمنهن وأنوثتهن.

* * *

أنوثة

في المعنى والمفهوم، أظل موضع لبس وتخالف عند الكثير من رجال ونساء. يصنفوني كفن من الفنون في مجتمع يهين الفتيات ليصبحن كاملات صالحات كزوجات وربات بيوت ممتازات: "تعلمي كيف تظهرين جمال مظهرك من خلال ملابسك ومشيتك. تكلمي بصوت منخفض لتظهري رقتك. حافظي على قوام متناسق. اتقني طريقة جلوس أنيقة تكون فيها ساقاك على شكل خط مائل إلى جهة اليسار. تعلمي طريقة تناول طعامك ببطء وكيفية ترتيب المائدة لتبرزي رهافتك من خلالها. إحرصى على معرفة خطوط الموضة. ضعي المكياج الهادئ صباحاً واللون الغامق للمساء والسهرة.. لا، لا تلعبى الكرة، خذي هذه الدمية. تظاهري بضعفك وعدم مقدرتك على فتح علبة من المعلبات أمام رجل، سيفتحها لك راضياً مرضياً مفتخراً بقوته وبضعفك".

تعالوا معي إلى تفصيلات تخصني في يوم من حياة -انثى- تعزم على لقاء صديقاتها من -الاناث-.

ترتدي فردوس ثوباً فصّلته وخيّطته بنفسها. تتأكد من تموجات شعرها في المرأة مرات عديدة، ترتسم على شفثيها بسمّة قناعة ورضا. بعد عناء طرح وشقاء شرح تأذن لها أم هشام بالخروج. تعبئ الأم كلامها بأدوات استفهام؛ لماذا؟ كيف؟ متى؟ أين؟ بنظرات غاضبة وأخرى متروية، بطلبات

في إنهاء أشغال بيتية إضافية. تلبس الفتاة عباءة يفرضونها عليها، تمسك مقبض الباب لتفتحه، يجيئها صوت أمها محملاً بقائمة محظورات وأوامر؛ لا تفتحي فمك بأي كلمة في الشارع. انظري أرضاً حينما تمرّين أمام المقهى. لا تمضغي لباناً أو تضحكي. خفّضي صوتك أثناء الكلام لا تتأخري كثيراً. كوني في البيت قبل حلول الظلام. تختتم أم هشام وصاياها بكلمة، "زين؟"، أي ينبغي الحصول منها على موافقة لشروطها أو خلافاً لذلك لا يمكنها الخروج. تتملل فردوس. تتمتم بكلمات تدمر، تعقب عليها أمها بصرامة، "مخطوبة ما مخطوبة وراح تصيرين معلمة لو وزيرة مثل نزيهة الدليمي، هذا ما يهمني، حتى تتزوجين وتطلعين من هذا البيت سوّي ما تريدين. لا تنسين كلام الناس".

تتنفس براحة لما تطأ قدمها أرض الشارع. تمشي بصعوبة بالغة بسبب حر شديد وكعب حذاء يعلق بقار طري ساخن مخلفاً ورائه ثقباً صغيراً. تعبر جسراً يربط المدينة بأحياء الجهة الأخرى من النهر. تصل إلى دار عالية الجدران تختفي ورائها حديقة بيت راجحة صديقتها. تسمع خطوات صديقتها قادمة تسبقها ضحكتها، تفتح الباب مرحبة بها.

تحرص راجحة على ارتداء آخر تصاميم مجلة بورده، ثوباً وردياً بنقاط سوداء، مخروطاً عند الخصر على شكل - كلوش- بفتحة من الخلف على شكل رقم سبعة يغطيها شعرها. تحرص على مظهر أنيق ومتناسق، ابتداءً من جوارب نايلون تقضي فترة طويلة في ارتدائها وتضيقها ليكون خط الخياطة مستقيماً من الخلف قدر الإمكان، حتى مكملات زينة حديثة مثل طلاء أظافر وأساور وحذاء بكعب عالٍ ورسم شامة بالقلم على الوجنة. تبارك لفردوس انتقالها إلى البيت الجديد. تشاركها بقية

الصبايا، يتحدثن في وقت واحد، تسكتن راجحة عندما تلّوح
بآخر عدد من مجلة حواء. تقفز البنات باتجاه يدها المرفوعة
في محاولة للحصول عليه. تهرب منهن نحو جهاز تسجيل:

- انطي المجلة للي ترگص على معزوفة - شيش كباب-

تند عنهن صيحات مرحة. تتوجه الانظار إلى فضيلة.
يدفعنها البنات إلى وسط الصالة. تتمنع بادئ الأمر رافضة،
"لا.. ما أعرف.. لا لا". يصدح صوت الموسيقى في الدار، يزيد
الرقص من جمالها ويفاعتها. تضع سبابتها على طرف ذقنها،
تدور وتدور جديلتها الطويلة معها. تصفق لها صديقاتها. تهرع
ابتسام إلى مشاركتها وتقليد حركات راقصة عشوائية تجعلهن
يضحكن لعدم تناسق وبدانة جسدها.

يخرجن إلى حديقة فيها أرجوحة تسعهن. تبادر أبتسام
بسؤال فردوس عن وقت تقضيه لوحدها مع خطيبها؛ ماذا يقول
لها؟ كيف ينظر إليها؟ ماهو شعورها حينما يمسك يدها؟ "أكيد
مثل فائن حمامة وعمر الشريف بفلم أيامنا الحلوة، أحبك
يدوسه، بحبك أوي أوي.. أوف عيني، إلزموني راح أموع".

تلقي بجسمها الثقيل عليهن متظاهرة بالإغماء تأثراً بكلمات
ومواقف حب تتصورها. تغني الفتيات أغنية حبك نار لعبد
الحليم. ترد فردوس متحسرة بانه لا مجال هناك لاختلائها
بخطيبها لأن أمها تصرّ على جلوس أخيها فارس أو أختها
نيدابا بينهما.

- عيني انت، لو مُلازم لو مو لازم.. أما أني، لو مدرّس لو
ما أعرّس.. أكيد فضيلة لو مهندس لو أعّس، وانت راجحة؟

- أي عيني لو دكتور لو أبور.. وانت خالدة؟ من تريدين ان
يسلك معك طريق الحياة الزوجية يا رفيقة؟

تبادر ابتسام بالإجابة عنها، تمسك نظارتها بأطراف أصابعها، تتصنع الجد:

- أني لو أتزوج رفيق، لو سدّوا الطريق.

تبتسم خالدة، تمتد يدها لتصفف شعراً أسود قصيراً كعادتها حينما يحرصها أحد ما. تطلب منهن الكفّ عن التفكير بأن المرأة مشروع زواج ومحض عود كبريت يُشعل بترول أي رجل. تنتهز الفرصة مبشّرة بقانون الأحوال الشخصية، بمزاياه من تحديد سن زواج، مساواة في إرث، منع تعدد زوجات وشهادة في محكمة. تتفق بعضهن مع كلامها، تختلف أخرى، يتشعب الحديث. يطول حتى يحين وقت ذهاب البنات إلى بيوتهن عند الغروب.

في طريق العودة، تنفرد فضيلة بفردوس، تلمّح بأن راجحة فتاة مدللة لا يعوزها رفاهية عيش ولا سعة اختيارات، تتبضع ما تريد من سوق النهر، من أورزدي باك ومحلات الأفراح، تنتقي أمها أحذيتها من محلّ الحرّاق وأحذية والدها من نعيم نعمو، لا يقلقها من يدفع ولا من أين يأتي بالمال. تعبّر عن اشمئزازها من ابتسام في سعيها الوحيد لإيجاد أي عريس بأسرع وقت وتعلمها فنون طبخ وخياطة لتكون عروساً مثالية. تسرّ فردوس بانها تعزّزها لتشابه ظروفهما العائلية ولأنها تحسن الاصغاء، رغم أن تفكيرها عملي ومطاوع لخطوط مرسومة بتأثير أخيها هشام وقراءات كثيرة لروايات تجعلها مثالية. تتحدث معها عن أفكار خالدة:

- ما أفهم قصدها، شنو المجتمع يمرّ بحالة انتقالية، وهذا عهد جديد؟

لا تؤمن فضيلة بإمكانية اختيار المرأة في مجتمع، لا اختيار

سليم ولا غيره، في مجتمع تنظر نسائه إلى الرجال من خلف أبواب مواربة. حتى الأديان كلها ذكورية. أما تغيير نظام سياسي فلا يعني تغيير القوانين والأعراف الاجتماعية وأنماط التفكير:

- ما تنفع قرارات جمهورية وشغل ديمقراطية وكلام فارغ إذا الشعب متخلف وجاهل، شنو اللي راح يتغير من الأعماق؟

أنت على صواب يا فضيلة، في مجتمع ذكوري بقوانينه ونسيجه، لا مجال للأنثى أن تدرك ما تريد. لكن خالدة تفهم معنای الإنسانى والاجتماعى بمفهوم أكثر واقعية، والذي يتجسد بحضور طاغ ولطف وأخلاق حميدة. تقرنني بقضية تحرير المرأة من جميع وجوهها، اعتاقها من مفاهيم تحسبها غير سليمة كاضطهاد ذكوري أو مجتمعي، من ظلم، استغلال، قهر، عنف وما تعانيه من أنواع تمييز جنسي وقانوني في سائر مجالات الحياة. تدعو إلى تكامل ضروري بين الجنسين.

تخالفها أخريات. تستندين على شعارات وأقوال جاهزة تحفظينها لا تلائم بيئتنا. تحقيق المساواة قضية ليست سهلة في بلدنا. عبثاً ما تقولينه عن النضال وجدواه في بلدنا. اسمعي عبد الوهاب (ما أقصر العمر حتى نضيعه في النضال). تعطينهم كراسات ومنشورات، لا يقرأنها، يرميها في القمامة. تنبري لهن بكلام تقريرى يفسد جلستهن، ينبغي أن نبادر، لا نبقى منضوين خلف أسوار الماضي والتقاليد، حركة التاريخ تجري للأمام في كل نواحي الحياة، لم نسمع في يوم ان امرأة قامت بحروب وقادت جيوشاً وقتلت ناساً وخربت بلداناً. النضال ضرورة واجبة للمرأة من أجل تحررها الاقتصادي ونيل حقوقها في المساواة. نحن بحاجة إلى خلق عادات جديدة يتعود الناس عليها ويتقبلونها تدريجياً بمرور الأجيال ريثما يحدث

التغيير والتطور المنشود، من الضروري أن تعمل المرأة، تاريخياً كانت مسؤولة اقتصادياً عن إعالة أسرته ويعود نسب الأولاد إليها، لكن حينما تفوق الرجل عليها وصار يشتغل، تغير دورها في المجتمع إلى تابعة، لا ينبغي حصرها بوظائف فيزيولوجية وجنس. معظم الرجال اليوم لا يحبذون امرأة تناقشهم وتضع رجلاً على رجل. يريدونها انثى مدعنة، ليكونوا هم بالتالي أصحاب الرأي والقرار الأخير. يحبون شيئاً اسمه التفوق على الجنس الآخر. يريدون المرأة ضجيعة مطيعة للتفريغ والتفريخ. لم تكن المفاهيم بذلك التفسير الأحادي، نحن من أبدع في تشويه الفطرة والغريزة. ما هو مفهوم الشرف والعذرية؟ محظورات وضعها المجتمع الذكوري لنا حتى نبقى تحت رحمة تقاليده.

تفغر ابتسام فاها. تندم راجحة لأنها دعت خالدة إلى بيتها. تضيف فردوس رأياً تتذكره عن أخيها هشام، بأن الطبيعة كرّست غريزة الجنس لدى الرجل فضلّ عبدها، ووهبت غريزة الأمومة للمرأة فضلت أسيرتها. تكمل ابتسام لتلطيف الأجواء، "وظّلت أسيرة الرومانسية والحب". تفاجئن فضيلة برأيها، وبأنها تعرف نساء بأيديهن الحكم الحقيقي الذي يتلخص بالدهاء والدلال اللذين بواسطتهما نستطيع قيادة جيوش العالم وبشكل غير مباشر، فقط علينا أن نعرف ماذا يريد الرجال. تفصح عن رأيها ببساطة قائلة بانهم يريدون المرأة أن تكون لهم انثى لطيفة ذاعنة. "ليش لا، صيري مثل ما يريدون، لكن اعرفي بذكائك شلون تسيّر بينهم حتى تحققين ما تردين أنت". تضيف بأن الرجال محض مخلوقات واضحة وهشة، وما على المرأة سوى أن تتعامل معهم وفق ما يرغبونه لتعمل، بنفس الوقت، على ما تريده بحذاقة، "هذا الجنس من البشر يتقشمر"، وأنه يغوى بشكل لا يُصدّق. تلتفت إلى خالدة وتطرح رأياً صامداً

حول العدالة الاجتماعية التي لا يمكن أن تتحقق عندنا ليغدو الناس مثل بعض، حسب رأيها، وأن هذا قدر الناس الذي لن يتغير بندوات ونشاطات ومسيرات، لأنه منذ زمن العبودية يوجد فقراء يخدمون وأغنياء يتمتعون، ناس فوق وناس تحت، فلو تحدثت العدالة والمساواة، فمن سيحرث، يزرع، ينظف الشوارع ويوفر خدمات للأغنياء؟ سيتخلخل الميزان.

يتواصل سجال عقيم وممل حتى تقترح راجحة الخروج إلى الحديقة.

"أحسن شي سويننا بهذا اليوم، شغلنا الموسيقى وركصنا، منو أبو باجر؟"

تسأل فضيلة صديقتها فردوس أثناء سيرهما في الطريق نحو داريهما، كاشفة عن جسد متماسك تحت العباءة:

- شنو رأيج بأنوثتي؟ قرئت لكاتبه، "تقاليدكم هذه ليست ذات سطوة عليّ طالما انها تقيدني أنا لا أو من إلا بسطوة الجسد".

تحاول فردوس إبعاد كلمة الجسد عن مفهومي باعتبارها تهمة أو تطرف. لا تعباً فضيلة بجوابها. تقاطعها بسؤال عن إمكانية قيام المرء بعمل ما، يخاف منه ويرفضه المجتمع، دون علم أحد. تفكر فردوس برهة في إجابة مناسبة. تبدأ حديثاً متأنياً بحكمة تتعلق بالموضوع، "لا تفعل ما تخافه، ولا تخاف مما تفعله"، تشرح، إذا نحن نخاف من فعل شي فينبغي ألا نفعله، ولكن إذا كنا مؤمنين بأن هذا الفعل سليم فينبغي ألا نخاف من أحد، والأمر يتعلق بذات الإنسان، بضميره، برأيه ورأي الآخرين بالخطأ والصح:

- شنو القصة فضيلة صارحيني، إطمئني سرك في بير.

تفكر فضيلة، "هل تتفهم رأيي وما أقوم به؟ لماذا انا مترددة؟. لن أسامح نفسي لتدفق الدم إلى وجهي وخجلي، ما تزال في بقية من بقايا حياء فتيات أكرهه. سأبوح لها وأعترف بثبات وبدون وجل. انا مقتنعة وسائرة في درب أعرفه جيداً. لا يهمني الآخرين، لكني لا أستطيع تحمل أسراري لوحدي، ربما أريد أن أتباهى بوضع مختلف عن جميع البنات".

تسترسل بالحديث عن أفراح جسدها، عن علاقات غير تقليدية لها مع شباب من أعمار مختلفة، عن علاقة غير عادية مع الست ندى، وعن زواج قريب تخطط له من رجل ثري كبير في السن، يتيح لها مواصلة غير شرعية مع جارها المهندس المتزوج، "أني أحب العلاقات الاستثنائية، من غير إطار زواج وورقة سخيفة ومهر وبيع وشراء"

تتوقف فردوس عن المشي فجأة. تغفر فاها عاجزة عن الرد. تفكر بما يقوله الناس عن فضيلة وبراءتها. ماذا لو علموا بما تقوم به؟ تفكر بكلام أخيها هشام يوم باح لها وهو ثمل بأنه يقيم علاقة - خاصة - مع فتاة، لأنه لا يؤمن بطريقة الزواج التقليدية، وأنه يريد أن يلتقي بشريكة حياته، يعاشرها أولاً كي يعرفها وتعرفه، تلبية لحاجة طبيعية عند الطرفين رغم محرمات يضعها ناس يدعون الحكمة وخوف الرب. قد تكون هذه الفتاة فضيلة.

تتمنى فضيلة ألا تتفوه صديقتها بمصطلحات كبيرة لا تطبقها تعلمتها من أخيها هشام ومن كتبه، أو بمعايير أخلاقية مزدوجة وفضائل وغير ذلك من كلام لا تطيقه لمتقنين يدعون الفضيلة. - لا، خالدة المتحررة بالنسبة إليك ملاك. أنت مو فضيلة.. انت....

تدير فضيلة رأسها عن صديقتها، "لتسميني ما تشاء،
رذيلة أو خطيئة، أمر يخصّها. قناعتي واستيعابي لذاتي هما
ما يهمني. لا أريد أن أعيش بشكل آخر. لن أتخلى عن أي
شيء.. انتهى الأمر.. أنا حرة وسعيدة، حتى لو أبقى طول
عمري هكذا.. لا يهم.. لا أنتظر منها رداً.. أريد أن تعرف من
أنا، أن أتميز بكوني مختلفة، لست واحدة من قطع.. ربما
ينكشف أمري، ربما أخفق، إلّا اني أفخر بأنني أجرب وأمارس
ما أريده، بل وأخفي ما أقوم به ببراعة.. أحسن بنشوة انتصار
وتميز في عمليتي الإخفاء والتجريب، أشعر بلهيب أنوثتي
يلفحني، يصيرني مشتتة، أمرٌ أفرد به عن قرينات لي
يعشن حياة عادية باهتة.. أما فكرة الخطيئة وعذرية المرأة،
وأريد أشرب ماي ما مشروب، كلها أمور مطاطة جداً
وسخيفة".

تذهب فردوس إلى بيت أهلها صامته وحانقة من صديقتها.
يخفف من سوء حالها وجود جدتها في زيارة غير متوقعة،
تنسيها حكايات الجدة ما سمعته من كلام تظنه لوّث سمعها
ونفسها.

* * *

حكاية الجدة

أكون جاهزة على لسان الجدة زهرة على الدوام. تخزنني في صرة ذاكرة عذبة نقيّة غير عكرة. الجدة، بئر تحنان ورأفة، دائمة البسمة، بادية العروق، ظاهرة التغضنات وتجدعات السنين، لضعف نظرها، تبذل جهداً كبيراً في إدخال الحبل المطاطي في - بيجامة- فارس البازة، تطلق بخورها وأدعيتها في أرجاء بيت ابنتها شقيّة عندما تزورها، تباركه وترفع كفين موشومتين مبتهلة لها ولأولادها بدعاء السعة في النعمة والعافية، تغفل عن خياطة جيب ردائها المثقوب، وكلما تمدّ يدها فيه تحس بالألم، لأنها تسحب حلمة ثديها المتدلي. تفضل فردوس على بقية أسباطها، تحدّثها عن فخرها بالانتماء إلى عائلة أبو الخير، أحدى عوائل بيوتات عريقة في المدينة، يرجع الناس نسبها إلى السيد جعفر القيم أبو الخير، أول من سكن عكّد السادة، وأول من تبارك بفرش سجاجيد كاشان همدان كرمان على أرض الضريح. قامت يدها المباركتان بتعليق مصابيح ثريات كريستال ضخمة، أهداها للضريح أثرياء من بلدان آسيا البعيدة. يذهب البعض بالقول إلى أنه أول من أشرف على تزجيج سقف الضريح بمرايا ساطعة وبزجاج أبيض وهّاج متألّئ بأشكال هندسية بدیعة زاهية، ويروح بعضهم إلى أبعد من ذلك قائلين بأن السيد أبو الخير وضع أول طابوقة قاشاني على جدران الضريح مزخرفة بنقوش، مطعمة

بمينا زرقاء، مخطوط عليها آيات قرآنية وكتابات إسلامية مثلما هو موجود على أعمدة رخامية ضخمة هناك. قام أيضاً مع آخرين، بنصب باب الضريح الذهبي وشبাকে، وبوضع أساس قبته ومآذنه الأربع، وأنجز أشياء أخرى كثيرة لا يحكي عنها. يده مباركتان. أصله نبيل. صيته ذائع. نقاءه معروف وطهارته صافية مثل ذهب الباب الكبير.

يسألها فارس عن قيمة قطعة ذهب صغيرة لو قطعها أحد ما من باب الضريح وباعها. تباعته بسحب مكنسة قريبة من يدها، تضربه بها، داعية الباري أن لا يستمع إلى ما قاله هذا الغلام الغرّ حتى لا يقلبه إلى قرد أو كلب لشدة ذنبه وقبح تفكيره. يغيضها كثيراً ما سمعته ذات ظهيرة من سبطها هشام حينما كان يتحدث مع صديقه صلاح أثناء تصليح درّاجته الهوائية. تبدأ تلك الحادثة بعد تناول وجبة الغداء عندما كانت الجدة زهرة تجلس في الطارمة. تمشّط فردوس لها شعرها. تضفر حريراً أبيض ضفيريّتين رفيعتين وفي الوقت نفسه، تساعد نيدابا على قراءة درسها. يسمع الجميع ما يدور من حوار وأسئلة بين هشام وصديقه عن العبرة في امتحان الخالق للخلق وابتلائهم، وعن سبب وجوب تضرع الناس إليه وطاعته من أجل الفوز بالجنة، فإن لم يعبدوه يعاقبهم عقاباً وحشياً أبدياً، كالشواء الأبدي بالنار، وسلسلة من الأسئلة التي تبدأ بـلماذا، لماذا خلق الشيطان؟ لماذا جعله يوسوس في صدور الناس؟ أما كان بمقدوره التخلص منه بقوله "كن ميتاً" فيكون؟ لو هناك صراع قديم بينه وبين الشيطان، فما ذنب الناس لليوم؟ هل لا يكفي حب إنسان لفعل الخير والتحلي بأخلاق حميدة لدخوله الجنة حتى لو كان لا يعبد الرب؟ ما فائدة عبادة وتضرع من مكوّن ضعيف كالإنسان ليس مسؤولاً عن أعماله لأنه جاء مع مقدراته للدنيا بإرادة خالق، بما أن اللوم ليس في الانتاج أو

الصنع بل في الصانع والمنتج، "فَيُضِلُّ الله من يشاء، وَيَهْدِي من يشاء... وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين"؟ هل يعبد البشر طمعاً في مصلحتهم بالجنة؟ هل حصيلة ما يرجونه يتلخص بمجرد حوريات، نهر خمر، فاكهة، سندس واستبرق؟ لماذا هم بحاجة إلى اختبارات تفرضها عليهم الذات الإلهية؟ لماذا خلق الرب الملذات ثم منعها عنهم؟ ما جدوى لعبة كتلك، إذا كانت الهداية من الخالق لماذا إذن يعاقب من لا يهتدي؟ لماذا تتكرر كلمات القتل، العقاب، العذاب في كتاب منزل من ذات إلهية منزّهة؟ لماذا كل الأنبياء من دولنا العربية؟ هل قرّبت الأديان بني البشر من بعضهم البعض؟ لماذا يسود التخلف والانقسام عند شعوب تجعل الأديان قانونها؟ لماذا، لماذا...

تصمت الجدة زهرة برهة في محاولة عسيرة لهضم كلام صعب ومفاهيم غامضة، لا تفهم من فحواه غير أنه جريء يقرب من الكفر إن لم يكن الكفر بعينه، غير أنها تصمت وقتها لنلأ يفسد وضوءها وهي على وشك الصلاة. يأتي صوت أم هشام عالياً من الصلاة أثناء تأدية الصلاة: "الله أكبر". تذهب إليها فردوس سائلة هل يزعجها كلام هشام. تطلب من أخيها الصمت. تصيح ثانية، "الله أكبر"، تروح إليها مرة أخرى. ترى والدتها تعض على إبهامها وتهز رأسها متوعدة أثناء صلاتها. لا تغلح ابنتها في فهم ما تريده منها أيضاً. ما أن تنتهي أم هشام صلاتها على عجل حتى تذهب مباشرة إلى المطبخ لتطفئ نار الطباخ تحت قدر لحم احترق، تخبرهم بأنه سوف لن تكون هناك اليوم وجبة غذاء، "إلك بيها إرادة، تمشي على قاعدة الأقربون والمؤمنون أولى بشلعان الكلب والعذاب، صار لي سنين أصلي، أصوم، أقرأ جزو تبارك وعمّة ومفاتيح الجنان، شنو الفايدة؟ ما شفت غير الضيم والظلايم من يوم

تزوجت عبد الهادي إلى يوم ال..... وإن تصبهم سيئة
يقولون هذه من عندك قل كل من عند الله، ونبلوكم بالشر
والخير... هسة وكتها تبليني؟ إلك بيها حكمة، يا حارگ
اللمة".

ينظر إليّ أولاد أم هشام حسبما يشاؤون. حسان، أكثر من
يحبني، يخطط في باله لشخصيتين تمثيليتين، عبد فقير ذليل
وخالق بهي جبار جالس على عرش كبير ويده صولجان،
ينحني عند قدميه إنسان ضعيف يسجد ويستغفر. يقرر أن يقوم
هو بالدور الرئيسي ويعطي دور العبد المطيع لفارس، بينما
يعاهد فارس نفسه على انتهاز فرصة سياسة الخالق في
الغفران والرحمة، ليجرّب شرب العرق حينما يكبر ثم يصلي
بعد ذلك، أو يحلف كذباً ليصوم شهر رمضان، ويسرق ليصبح
غنياً، طالما أن باستطاعته شدّ الرحال إلى الحج لمحو ذنوبه.
يسأل جدته عن إمكانية تحمل الحيوانات ذنوب ما يفعله العباد
طالما ان الرب لا يحاسب تلك المخلوقات، يفكر في سرّه أن
يعلم كلبه سيمو السرقة بداية. تبوح نيدابا الصغيرة للجدّة بأنها
ترى رب الكون بأذان كثيرة لأنه يسمع دعاء ملايين الناس في
وقت واحد. تسألها عن عدد آذان يسمع بها وعيون كثيرة يرى
بها كل شيء، يقاطعها فارس الذي ينوي ويصرّح أن بمقدوره
أن يؤلف شعراً على غرار القرآن. لا تحتمل الجدّة كلام
الصغار. يأتي رد فعلها سريعاً وحانقاً. تحمل عباءتها عازمة
على الرجوع إلى بيتها ومغادرة بيت الشياطين، مستغفرة إله
الكون بدون توقف.

في ظهيرة ذلك اليوم، تبحث فردوس عن نيدابا، تجدها
غافية في ركن الكراكيب أو غار نيدابا كما يسميه فارس، مكان
مهمل خلف المطبخ عند الحديقة. تجد بجوارها رسالة كتبتها

إلى الرب، تصحّ بعض الأخطاء الاملائية فيها لاحقاً:

"أسلم عليك يا رب العالمين وعندي لك أسئلة كثيرة، رغم اني لا أعرف كم عالماً تملك ومن أنت، أعرف فقط بأنك كبير وقوي جداً، تقدر أن تحمل البيت بيد والسيارة بيد أخرى. لكن هل أنت تشبهنا وتحدث بلغتنا أم انك تفهم وتحدث بلغات كثيرة؟ ذلك أكيد. أرسمك دائماً بحجم كبير ولون أبيض مثل غيمة في السماء أو مثل كومة قطن مندوف للحاف واسع. لا أدري هل أحبك أم لا؟ أمي تصلي لك وتسجد، وأنا أحب أمي، لكني لا أظن هشام يحبك وأنا أحبه جداً. أريد أن أغلق الباب عندما يحكي عنك حتى لا تسمعه ولا تراه فتعاقبه بالمسطرة. هل لديك واحدة كبيرة مثل مسطرة معلمة الرياضيات؟ أخبرني، هل تحب الأطفال؟ كيف تقدر ان تهتم بهم كلهم وأمي تشتكي منّا نحن الخمسة؟ قل لي ولا تقلق، لأنني لن أخبر أحداً بأسرارك. أين انت؟ ولماذا لا نسمع لك صوتاً لو أنت قوي هكذا؟ هل صوتك هو صوت الرعد أم اقوى منه؟ لماذا يتعبك الشيطان الرجيم إذا أنت شجاع وجبار؟ لماذا لا تقتله وتخلص منه ونخلص منه جميعاً كما يقول هشام؟ نسيت أن أقول لك اسمي، أنا نيدايا، بالتأكيد تعرفني، لكن لي عتب عليك؛ من قال لك أن تخلقني في أسرة فيها فارس؟ لماذا تسمح له أن يشاكسني ويمزق دميتي؟ ألا تصدقني؟ قلب دفاترك الكبيرة كما يصفها حسّان، ستجد فيها كل وكاحاته، وبالمناسبة، أمي تضربني ولكنها طيبة، إغفر لها، فهي عصبية قليلاً. ألا تغضب أنت؟ عدني ألا تعاقبها، ولو ستفعل ذلك وتفي بوعدك، سأعطيك دميتي رغم اني لا أملك غيرها. سأبقى أبحث عنك حتى أجدك. مع السلامة".

في أيام الشتاء، تضع نيدايا رأسها في حضن فردوس،

تغطّيه أحياناً بشرشف عندما تصل بي الجدة إلى مواضيع تخيفها كالطنطل والسعلاة والغول، عندها، يقترب جميع الأولاد من بعضهم قرب موقد النار حتى تحمرّ وجوههم. يرتاحون عندما أنتهي بنهايات سعيدة، ببسمة الجدة وكلمات ختام معتادة، "وعاشو عيشة سعيدة، ولو بيتنا قريب، نجيبلكم كيلو حمص وكيلو زبيب".

بعد كل حوار ومناكفة مع أولاد ابنتها، تغضب الجدة. "تستخفر" الله وتحلف "بالقرعان" على انها لن تطأ عتبة دار شقيّة مرة أخرى. لا يهدأ حنقها حتى تقبلها فردوس وترجوها الصفح والسماح. تناديه بلقب يحبه جدها السيد جبر - چچان- تطلب منها أن تغفر للصغار رعونتهم. تقوم بعجن حنة لصبغ شعر جدتها الفضلي ليغدو نحاسياً لامعاً، أو تقدم لها شايتها المفضل من نقيع الكوجرات كي يصفو مزاجها، بعد أن تجلب لها حبوباً للصداع عندما تراها تشد رأسها، ترفضها الجدة لأنها لا تؤمن بـ "كبسون" ولا بأدوية طالما يوجد السيد جبر زوجها، على قيد الحياة.

تستدرجها فردوس إلى موضوع يحلو لها الحديث عنه، تسألها عن كنية أبو الخير. تنظر إليها بحنو وامتنان. قبل ان تبدأي، تقوم بتقطيب ما بين حاجبيها، وبحصر شفتها السفلى بين سبابتها وإبهامها وسحبها للأمام قليلاً، تتحسر، تبتسم، تسعل:

- هاي قصة طويلة بنيتي، من قال وبلى.

تحكي لي حينما يهدأ سعالها. تستعيدني حفيدتها على الدوام، أرسخ في ذاكرتها، تكتبني في مذكراتها عن لسان الجدة:

"كان جدي الكبير وسيم الطلعة رضي النفس طيب الخلق

مبروك النية، منحه الخالق الجليل وخصّه بهبة فريدة ألا وهي قدرته على إشفاء المرضى من علل تصيبهم بروح سمحة بهية ونية صافية نقية. يقرأ على رأس المصروع فيتشافى، يمسح بيده على جبهة المصدوع فيتعافى، يسبغ من ورعه وتقاہ سحراً ربانياً على بني البشر فينشف منبع الشر وتهداً حالة المبتلي والمرعوب ويقرّ حال المتشكي والمتعوب وتحل السكينة في النفوس ويطلع السقم من الرؤوس دون حاجة إلى مشارط وفؤوس.

وفي يوم من الأيام، يجيئه رجل من بلاد بعيدة يسمونها چيچان أو شيشان، بصحبة فتاة ذات حسن باهر وجمال ساحر، لها وجه "يفك المصلوب" ويسكب ماءً زلالاً على القلوب. غير ان تلك الفتاة المسكينة، ابنته، تفقد قدرتها على النطق إثر حادث يصيبها بالخرس، سبب يجعل والدها يتجشم عناء سفر طويل، لكي يعالجها من داء كليل. ما كان من الجد المبروك إلا أن يضع يده على رأسها، يفيض من روحه إلى روحها، يبسم، يقرأ، يستعيز، يتأثر، يبكي، يغيب في أغوار عالم روحاني سحيق، يكتم الرجل الغريب في نفسه أمراً ويقطع على نفسه عهداً ملزماً على تنفيذه لو تحقق المال وحصل المحال. ما أن يمرّ عام على هذه الحادثة، حتى يجيء الرجل نفسه ومعه ابنته التي يعود إليها النطق، يطلب من الشيخ المبروك أن يأخذها له زوجة حلالاً وإكراماً، تبركاً بحظوته عند خالق العباد ومكانته في البلاد، يصرّ أن يرجع وحده إلى أرضه البعيدة، بعد أن يطمئن على ابنته السعيدة في بيت زوجها الورع الصالح".

تداعب فردوس جدتها مازحة بأن حسنها وجمالها لا بُدّ أن يكون مصدره أعجمي مثل ابنتها شقيّة التي ورثت عنها ملاحه

تشبه قوم الشر كس، ولكي لا تفسد ابنتسامة الجدة، تحاول التشويش على قول هشام بأن حب - الموامنة - للإقتران بفتيات أعجميات جميلات وصغيرات السن، هو سر ارتباط جدها ومصاهرته لأهل الشيشان المشهورين بجمال فتياتهم.

تحاول الجدة زهرة أن تثبت لأولاد وبنات ابنتها معجزة الإله في خلقهم من ماء وطين نكاية بهشام وصديقه، تطلب منهم أن يفركوا جلودهم ويروا كيف ان الطين سيخرج منها. ينشغل الصغار بالبصق على أذرعهم وفركها، غير أن حسّان يفاجئها بسؤال عن كنية أبو الجوادين، هل خُلف ولدين يحملان نفس اسم السيد جواد ابن أخيها أم ان لديه جوادين؟ تتمتم الجدة بدعاء المغفرة من الذنوب مغمضة العينين متضرعة، "اللهم إليك مددت يدي، وفيما عندك عَظُمْتُ رَغْبَتِي فأقبل توبتي، وارحم ضعف قوتي، واغفر خطيئتي، واقبل معذرتي، واجعل لي من كل خير نصيب، وإلى كل خير سبيل برحمتك يا أرحم الراحمين". تتوضأ وتصلي ركعتين إضافيتين قبل أن تتناول "بقچتها" عازمة على السفر والبقاء إلى جوار الضريح الشريف حتى تظهر لها علامة تشير إلى صفح الإمام عن شقيّة ابنتها وأولادها وكظمه لغيظه منهم وتنذر زيارة خاصة لضريحه.

* * *

زيارة

تعتبرني أم هشام واجباً أساسياً من بين واجبات كثيرة تقوم بها، كالقائلة، "كلّجن يا مظلومات، للكاظم امشن، عد سيد السادات، فكّن حزنجن". تذهب إلى ضريح فوق مدفن له قدسيته واحترامه. تجلس في أحد إيواناته، تقرأ أدعية. تصلي. ترقب زائرين قادمين من مدن جنوبية، من قرى وأرياف متناثرة بملابس ريفية ولهجة متميزة. تتابع حركات زائرين وحواراتهم. تسجل في ذاكرتها كل حدث. تضيف عليه قليلا من طرافة وخيال كعاداتها حين تقصّ تفاصيله على زبوناتها. تمثّل المشهد أحيانا بحركات ظريفة معبّرة. تطلب منها بعض الزبونات إعادة القصة لمرات عديدة. تعترف أخريات بانهن يأتين إليها ليس بغرض قص الشعر أو تجعيده، بل لسماع أحاديث مسلية ترويها لهنّ. يطلبن منها على وجه الخصوص إعادة حكاية ذلك الريفي الذي يقف مبهوراً مع امرأته قرب جامع، ينظران بانبهار إلى مأذنة شاهقة له وقت أذان المؤذن، تسأله المرأة عن كيفية صعوده إلى هناك، فلا يريد الزائر، كعادة متأصلة عند أغلب الرجال، أن يبيّن عدم معرفته لشيء:

- يا حرمة، هو من غامت عصاة النبي موجّر هناك.

تسأله "الزائرة" وعيناها معلقتان صوب المأذنة، من أين يأكل ويشرب. يجيبها العارف بكل شيء:

- يا حرمة، چا شنهې فايده الزنا بيل والحبال؟ ها؟

لما تنمادی في تفكيرها، تروح مستفسرة عن كيفية تخلصه من فضلات بطنه، فيجيبها الرجل لاعناً جهل النساء وعدم تفكيرهن:

- فلك طرّج يا حرمة، هذا معصوم ما يبول ولا يخرأ.

يسحر نيدابا الصغيرة لمعان أضواء منورة ويبهجها ازدحام غير مألوف. فضاء رحب بين إيوانات واسعة وضريح بهي، شذا روائح يذكرها لفترة طويلة فيما بعد، بعطر ماء ورد لا يبارح فوطة أمها وملابسها. تستهويها أجواء المدينة والسوق. أزيد من هالات مسرّاتها، أجعلها تمضي بعينيها وخيالها، متأملة كل ما تقع عليه عيناها.

تزدهي المدينة بسوق كبيرة في شارع رئيسي ينغطف إلى أزقة صغيرة متشابكة، يجد الزائر فيه بشر من أصقاع ومدن مختلفة تتباين ملامح وأشكال لهم. يلبس بعضهم عمائم بيضاء وسراويل عريضة، متلفعين بأوشحة قطنية حول رقابهم، حاملين سجاداً على أكتافهم، دالّفين زقاقاً معتماً فيه خان خشبي قديم يكتنفه غموض وظلام. تشعر نيدابا برهبة عند الالتفات إليه. ترطن نساء إزاراتهن مرقطة، بلغة غير مفهومة. يتبضعن من صاغة الذهب هدايا لأصحاب ومصوغات لأحباب. زائرون غرباء يشترون مسبحات وخواتم مصنوعة من عقيق يمانى، شذر أخضر ودر النجف، يفركون ويشمّون كهرباً، أغلى وأصلب الأحجار الكريمة كما تنوّه أم هشام. يلمسون ياقوتاً، زمرداً، زفيراً، زبرجداً، فيروزاً، لازورداً. لا يفوتهم التملّي في حليّ، خواتم، جناجل أطفال، حجول نسائية، أقراط وأساور مصنوعة من فضة، مرجان، لؤلؤ، نارجين، سندلوس، عاج وأحجار كريمة أخرى. يتزودون بسجاد حريري

وانتيكات. يتزاحمون على محلات تبيع عطوراً وأنواعاً من طيب وبخور مستخلصة من ورود، عنبر، مسك، عود وأصناف أخرى مستوردة من وراء البحار. يقبلون قطع قماش وغزولاً زاهية بألوانها من شتى أصناف ومصادر. يقفون أمام أكثر المحلات حلاوة، غارفين من حاويات صغيرة متراصفة، حلوى وسكاكر ملونة مخلوطة بزبيب وحمص. تنسى نيدابا دهشتها بالمكان حينما تتذوق حلاوة دهين مغطاة بطبقة كثيفة من مبروش جوز الهند تذهب بطعم وجبة كباب شهير تملأ رائحته المكان.

تمرّ أم هشام أيضاً على بيت خالها في المدينة لأداء واجبي، أو لحضور مناسبات ولادات وختان أو زواج. لا يفارق بال نيدابا حدث اقتران قريبتها بأحد أفراد أسرة أبي الخير. ترى ابنة خالها عارية في الحمام، خائفة متكومة على جسد غضّ نحيل تخفي خجل، نهدين صغيرين بيديها، تغرس فيه نساء متطفلات نظراتهن، مطلقات العنان لزغاريد وخيال حول ما سيجرى ليلة الدخلة لتلك الصبية الضامرة حينما يدخل عليها ابن السيد المعروف بفحولته وحبّه للنساء. يتطوعن بإسماعها بعض أسرار عملية وخبرات ثمينة عن الفراش، وعن كيفية التعامل مع الرجل في تلك المواقف كيلا تفسد ليلتها. تساعد جمع النساء "المّلاية" في سكب الماء على رأس العروس ساعة جلوتها، منشدات وراءها، "من الزهرة شغّت الانوار، والفرحة بدار الأخيار، أمها بيها فرحانه، تتباهى بنسب الأطهار".

تُلقي أم العروس نظرة غير راضية على ابنتها بعد تزويقها وإلباسها ثوب "الجلوة" الأبيض، تحشو صدر بدلتها بلفائف من القطن الطبي تفادياً لمظهر عدم أمتلائها. تبكي الفتاة خوفاً من أمور لا تفقهها. تبكي نيدابا معها. تهدئ فردوس من روع

أختها. تحكي لها عن سعادة ابنة الخال برغبات تتحقق لها في أدوات زينة ومستحضرات تجميل وحذاء ذي كعب عالٍ وسكن جديد في العاصمة.

يتفاداني السيد عبد الهادي فلا يذهب إلى الأضرحة، يخبر أهله وأصدقائه بان لا شفاعاة عند الله من بني بشر بعدما عانى مني يوم ذهابه إلى مدينة مقدسة أخرى. يطوف في الحاضرة الحسينية. يقوم بالدعاء. يصلي. يستغفر. ينوى الذهاب بعد ذلك إلى الضريح الآخر. يدخل من الباب الثاني للضريح نفسه الذي خرج منه. يرفع يديه بالدعاء: "السلام عليك يا أبا الفضل العباس". ينتبه إليه شخص جواره، يصح له المكان، يخرج من أحد الأبواب. يدخل ثانية من باب آخر للضريح نفسه، يدعو الدعاء، يصح له ناس حوله التباسه، يرشدونه إلى سبيل صحيح يقوده إلى مأربه، غير ان التعب يأخذ منه مأخذاً ويصيبه دوار شديد، يقرّر الرجوع إلى مدينته، بحجة ان دعاءه سيصل إلى من يريد إيصاله لقرب المسافة ولصلة القربى بين الإمامين، زاعماً أن سبب ضياعه وتوهمانه ناجم عن نسيانه لنظارته الطبية، يؤكد أنه سيتذكر وسيحرص على أخذها في سفرته القادمة، التي لم تحصل بسبب نوبات ربو ترهقه وتقعده في داره، تمنعه مني ومن ذهابه إلى بيت السيد جبر، جد أولاده الذي يقع في قضاء صغير هادئ، يسكنه الجد والجدة وابنهما مع عائلته.

يمتأ بيت الجد بأعشاب برية ونباتات زهرية مختلفة الأحجام والأشكال والألوان والعمور. يفرشونها على أرضه أو يعلقونها على جدران فنائنه لتجف، لتعباً لاحقاً بقلب وقوارير تتكدس أما في زوايا غرف أو على أرففها أوفوق أرض السطح. تفوح روائحها في أرجاء الدار، ممتزجة برطوبة نبات

عاقول بريّ مبلل ومعلّق على النوافذ للتبريد. تلزم تلك الأعشاب السيد جبر في مهنته كعشاب متمرس. يحلو لابنته شقيّة نعت مهنة والدها بطب أعشاب، والدها بطبيب أعشاب. تتعلم منه أسرار هذا العلم وخبايا هذه المهنة. تنقلها إلى أهل دارها وزبوناتها. إن اشتكى أحدهم من مغص، تنقع له بذور "قطونيا وبلنگو" يشربهما على الريق. إن اشتكى من معدته، تصف له عشبة بابونج ونعناع يابس لتهدئة الأم وتخفيف أوجاع. تنصح بـ "كرفس البير وكفشة الإذرة" للكلّى. تفخر أمام الجميع بعلم والدها وخبرته بإيجاد دواء لكل داء، بنصائح صحيّة يطبقها على أسرته بصرامة من يطبق أوامر عسكرية. يوصيهم بشرب ماء دافئ عند الاستيقاظ من النوم صباحاً، بعدم الإستلقاء بعد الأكل، بأخذ نفس عميقٍ للتمتع بصحة جيدة، بالزنجبيل وعرق السوس مع الحبة السوداء والعسل لعلاج معظم العلل، بعدم أكل الفواكه بعد الأكل وإراحة معدهم لأنها بيت الداء بحسب قول الرسول. يضيف فارس الشقي ابن شقيّة أقوالاً ملقّة من عنده على لسان جده، بلّحالاً، لا تُضَيّع مالاً على طبيب أو دجّال. يشيع خبر قارورة يحملها جده معه بشكل دائم، يستعملها عند حاجة للتبول. ينتقده جده بالقول: "هذا الولد من جيل ددع، ياكل ما يشبع، اتسخره ما يسمع، اتّزه ما يرجع، عمره كله يحصد ما يزرع". يقوم الصغير بتأليف شعر حكم صحيّة، كما يدّعي، يستلهمه عن لسان جده، گنېص لا تتعب/ شناو لا تلعب/ عرگ لا تشرب/ بول بالبطل أوجب/ واگد راحة لتتكهرب.

يعمر السيد جبر إلى ما يربو على المئة عام. يتنبأ الجميع بأن عمره سيبلغ كما نوح مستشهادين بقول حكيم: "لبث في قومه ألف سنة". يجزم لافي صديق هشام، بأن سيد جبر عاصر حيوانات منقرضة اسمها الديناصورات دون أدنى شك.

يعلق هشام بأن جده سرق أكسير الحياة من أفعى كلكامش، يسأل السيدة زهرة عن تاريخ ولادة جده، تؤرّخه بأحداث وقعت منذ زمن بعيد: "من وقت السفر بر، من يوم شعلو الفوانيس بشوارع القضاء، من يوم دغة رشيد عالي الكيلاني، من يوم الفيضان، لا لا، من يوم ما حلّ مرض الهيضة، والعياذ بالله، في الولاية".

يوقن الجميع بخلود السيد جبر ويفقد ابنه الأمل في حيازته على الدار وعلى ملكية دكان الأعشاب مع حزام ملفوف على بطن الجد، يخبىء فيه ليرات ذهبية من زمن الاحتلال العثماني.

على حين غرة، يصاب السيد جبر بنزلة برد تفشل كل أعشابه في علاجها. يموت بعد أسبوع من رقاده في الفراش. يغمى على ابنه لعدم تصديقه مقدار ثروة ضخمة سيرثها. يتعجب ناس المدينة حين يرونه مغشياً عليه ثم باكياً نائحاً بحرقة. يتعاطفون معه، ظناً منهم أن لوعته ناجمة عن شدة حبه لوالده وتأثره لوفاته. يكتّون له المزيد من الإحترام والتعاطف. يحكون عن حادثة إغمائه في جلساتهم وسمهم بمقاهي المدينة. يمتدحون حسن تربيته وعدم عقوقه مرددين بفخر: "من خلف ما مات"، خاتمين كلامهم بالدعاء والرحمة على رجل فاضل ترك ذرية صالحة. يتأثر فارس بالمديح فيهدف متحمساً: "يعيش المرحوم جدي، يا يعيش". يؤلف شعراً مطلعته: أبكي على جدي بعالي الصوت/ وكم من جدٍ مات بسبب الموت. تكتب الصغيرة نيدابا رسالة إلى رب الناس تترجاه إلغاء قرار موت جدها لأن خالها في حالة حزن شديد. من يعرف الخال جيداً، يدرك سبب دهشته ورد فعله القوي. يحسدونه على تغيّر حاله. تُخاصم السيدة أم هشام أخاها. تتهمه

باستحواذه على إرث أبيها كله. تغادر بيته متجهة صوب بيت أختها في العاصمة لتشتكي من أخيها.

بحركات أنيقة، تنشغل الخالة في ترتيب دارها، تحرص على كل ما فيه بدءاً من كل قطعة من الأثاث إلى ستة أطفال، كحرص دجاجة على فراخها كما تقول أم هشام. تدبر شؤون عائلة كبيرة بمصدر رزق واحد لموظف دخله متواضع. يوم نقلوها بسيارة إسعاف إلى المستشفى وهي تنزف بعد حالة إجهاض، لم ينس جيرانها موقفها حين أوصت بناتها أن ينزلوا ملابس منشورة في السطح كي لا تتلفها أشعة شمس حارقة. يظل الناس يتندرون بحكاية الملابس وينصحون أولادها بعدم السير تحت الشمس في أيام الصيف كي لا تهترئ ملابسهم، يبكي ابنها عندما يسمع أصواتاً هاتفة عليه: "بالفي، بالفي".

تسهب أم هشام في وصف شخصية أخت مختلفة عنها، تحيا وتتصرف بطريقة عجيبة. تعجب من مقدرة نادرة لها في التدبير المنزلي والمهارة اليدوية. تصير خضار رخيصة تقرب إلى التلف أكلات شهية بإتقان طبخة ماهرة. تتحول ملابس قديمة إلى أخرى مناسبة لبناتها الصغيرات. يصمت أولادها وتتحكم عليهم بسهولة ليكفوا عن ضجيج ومماحكات حينما يرجع أبوهم من العمل. تقوم بكل ذلك بحكمة زوجة حصيفة إكراماً لولي نعمتها ومعيّل أسرتها، ولا تعود الحياة إلى طبيعتها في البيت، إلا بعد أن يتناول زوجها وجبة الغداء ويأخذ قيلولته ثم يستيقظ لشرب شاي العصر في حديقة الدار.

تكثر في حديقة بيت الخالة الصغيرة نباتات خضراء مثل "كفشة مريم" بلون أخضر طفولي، شتلات زهور سيسبان صغيرة ملونة، شابوي أبيض عاطر، جعفري حنّي وذهبي اللون، وأصص زهور أصلها صفائح سمن معدنية فارغة، لا

تخلو من ياسمين عابق الشذا، جوري عاطر وأصناف ورد زينيا بألوان مبهجة. يجلس كبار البيت على كراسي نايلون تغطيها الخالة بشراشف من بقايا أقمشة متنوعة حفاظاً عليها من الشمس، وتسمح للكبار بقطف وردات رازقي وشمها. تسكب لهم شاي العصر، يتناولونه ويتبادلون حديثاً يكتنفه هم سياسي واقتصادي. تُطلع البنات إلى غرفة في الطابق الثاني للبوخ بأحاديث خاصة، بعيداً عن رقابة الأهل.

تعجب أم هشام من طريقة دبلوماسية تلجأ إليها لكسب ود زوجها ولتحقيق مآربها، مثلما تفعل عندما تريد الحصول على قطعة سجاد جديدة. تشيد بسجادة قديمة مهترئة يمتلكانها، بشدة تعلّقها بها رغم سخرية جاراتها من عتقها وتدعي بأن ذلك أمر غير هام وتُرفي. تغفر ما ينطلق من ألسن لناس عائبين على ما يمتلكون وما يتبع ذلك من إحياءات مخجلة، حتى يجيء وقت يقرر فيه زوجها شراء سجادة أخرى جديدة من ذات نفسه، متعاطفاً مع مكابدة وتحمل زوجته لسخرية ناس ليس لديهم هم وشغل سوى تبيان عورات الآخرين ولوك كلام عن ضيق عيشهم. تبتسم الخالة بعدها مفتخرة بنفسها، مدركة ان باستطاعتها تحقيق ما تريد ليس عن طريق نقّ ونكد، بل بمناورات ذكية وبمطاوعة عقل الرجل، على عكس سلوك أرعن متهور، في إشارة خفيّة لأختها، سرعان ما تفهمها أم هشام فتزعل.

تقطعني أم هشام وتقرر الرجوع بصورة مفاجئة، إلى دارها لخلاف بينها وبين شقيقتها، "إذا تريد تهجّ أكنس وعجّج"، تحلف بأن لا تطأ عتبة دارها مرة أخرى. تغيظها شقيقتها لأنها أفضل حالاً منها، تسكن العاصمة، زوجها موظف، لا تتعب ولا تشقى مثلها، ومع ذلك تحسدها على مورد عملها كحلاّقة

نسائية. "طول ما أختي ورايه، ما راح يطول غطاية". تمضي في شكواها المعتادة مبتدئة بيوم ولادتها: "أويلي عليّ، شنو شفت من دنياي؟ من يومي وسبع تيامي، حظي الخايب... الثمر للغير وأناي النوح إليّ.... والرجال مابيه لا نفع ولا دفع.... تگلي السعيدة لا تمرّين ولا من شرايعنا تشرابين، همّج هواية وأخاف تَعْدِين... "

تعيد على مسامع كل من في البيت كيف أنها صرفت مبالغ لم تكن في الحسابان عليّ لما ذهبت إلى العاصمة، مصاريف نقل وشربت ولوزينة وحلاوة دهين كهدايا وصوغات، ولم تساعد أختها على كشف ومحاسبة الأخ على ما فعله من سرقة لحقوقهما في الإرث. تذهب لتشكو حالها إلى بيت خالها.

* * *

بيت أبو الخير

أقع في منطقة مكتظة ببيوت قديمة وأبنية عتيقة ذات شناشيل مزخرفة، يعبق منها ضوع ماض بخالص أصالة ومثانة رسوخ. أطلّ على درب ضيق كشاهد حي على عصور فائتة. تتوسطني باحة كبيرة مكشوفة، تحيط بها غرف واسعة بشبابيك خشبية صغيرة، وسدرة عالية يعلّقون عليها وقت الصيف حزم ثوم، قلائد باميا، عثاغيل رطب للتجفيف وسلال خوص تحفظ أطعمة جافة. تحت الشجرة، ينصب أصحابي حنفية ماء لغسل أيديهم وملابسهم، يضعون بقربها صفيحة مملوءة بتراب حنطة لجلي الصحون. يشربون الماء من زير مغلف بجنفاص رطب دائماً. تسرح دجاجتان وديك بحريّة في باحتي، مخلفين ذراقاً ساخناً خلفهم. في كل غرفة من غرفتي، يسكن أحد أبناء الخال الكبير المتوفي مع زوجاتهم وأطفالهم، وفي الغرفة الغربية تقطن أمهم، أرملة خال السيدة أم هشام، وبعد منها تسكن العمّات الثلاث في الغرف الشرقية.

أشهد ديبب حياة داخلية وحركة يومية دؤوب لنساء لا يهمدن، يكرّسن حياتهن لخدمة أصحابي من الرجال ولتكاثر النسل وتربيته. تتولى الأم مع العمّات مهمات إدارتي، كإعطاء توجيهات مع تكاليفات، إصدار أوامر، إسداء نصح للكّئات والبنات، منذ الصباح الباكر حتى أذان العشاء، عندما يخلد الجميع إلى غرفهم أيام الشتاء، أو في الصيف على سطحي،

فوق أسرة محمية بكلل بيضاء.

تُبْرَع العمة الكبيرة في عمل كل أنواع المعجنات والحلويات. تصنع حلوى الساهون بسكر محمّر ولوز محمص، وأنواعاً من الحلقوم الملون وحلاوة جزر ودهنية ورز بالحليب وحلوى النوغة اللذيذة المقرمشة. تفرش ما تعمله بمهارة في صوانٍ كبيرة، تتركه يبرد بينما ترسل بيد الأولاد الصغار إلى الفرن، صواني - شكرلمه وكليچه - محشوة بحشوات تمر وجوز عشية أعياد أو مناسبات سعيدة كأعراس ومواليد وختان. تتخصص العمة الثانية بحياكة الصوف، تصرف وقتاً طويلاً في غزله بمغزل خشبي وغسله وتمشيطة بمسامير مرصوفة على جانب خشبة خاصة. تصنع منه سجاجيد للصلاة، إيشاريات، مفارش، أغطية وبطانيات صغيرة للأطفال يملؤون رحابي، لا أنا ولا غيري يعرف عددهم. تتفوق العمة الثالثة بعمل مخلات ودبس للشتاء، تغلي تمرأ ناضجاً في قدر كبير. تحركه حتى يتبخّر ماءه. تخزن عصيره في أوعية فخارية حافظة، ترصّها في ركن من أركان السرداب جوار جرّات فخارية تحوي كل ما تصنعه. تحرص على ترك باقات نعناع بقربها أو قشور خيار وفلفل أسود، لتبعد عنها الفئران والنمل. لا تغفل عن وضع مصائد لجرذان جريئة تسطو على مخزونات أطعمة من أكياس طحين ورز، مخلفة برازاً تستدل به على وجودها. تشرف العمة نفسها أيضاً على عملية صنع المعجون بدءاً من غسل حبات الطمّاطمة، عصرها، تجفيفها في سطحي، تركها لحرارة شمس صيفية سخية تبخّر سوائها، حتى أوان تعبئتها في قنّان زجاجية وغمر أعلاها بملح. كل امرأة من النساء الثلاث، لا تتعدى على اختصاص الأخرى كعرف وقواعد غير مكتوبة داخل جدرانها التي تتذكرهن وتتذكر حفيف ثيابهن وتتهدات عالقة في النوافذ وأسيجة السطح

لهن، مصاحبة لصدى حسرات حارة تخرج من صدورهن عندما يمشطن شعورهن بأمشاط خشبية بعد كل حمام، وتمرق أمامهن زفرات أحلام وتأوهات أجساد تذوي دون أن تلمسها أنامل رجل.

تسهم جميع النسوة في الطبخ وتهيئة الطعام لضيوف آتين من ولايات أخرى، محملين بهدايا ونذور، صناديق فاكهة، سلال خضار، تنكات دهن حر، زبدة، بيض، خرفان، جوالق رز عنبر، أكياس حنطة، علب حلويات، خصافات تمر، وعرر لا أحد يعلم ما تحتويه من الكثير مما فضّله الخالق على العباد واستحق السادة خمسة.

يختلي السيد جواد وأخوانه مع ضيوفهم في سردابي. يدخلون بأشياء ملفوفة بأكياس مخفية عن الأعين، تثير أسئلة وفضولاً شديداً لدى كُنات يتلصصن النظر نحو السرداب ويسترقن السمع إلى كلام الضيوف. تبادر والدة السادة بإصدار أوامر زاجرة حول عدم الاقتراب أو المرور من أمام ذلك المكان. يأمر السيد جواد النساء بتحضير أطباق خفيفة، كصحون خيار مفروم ممزوج باللبن، بعض مكسرات مليئة بفستق حلبي طري، لوز جبلي مستورد من خارج البلاد، صحون باقلاء مسلوقة وحمص، وينزل بها إلى ضيوفه. يسمع من في أحيانا صوتاً رجولياً عميقاً وغلظاً، مازحاً ومقهقهاً من أسفل السرداب، "نزل البيكات سيدنا، قبل ما أنعس وتنزل كبنكات عيوني".

في نهاية المساء، يخرج الضيوف بحذر كما دخلوا. يدخل السيد غرفته وتتطلق آنذاك قهقهات رائقة له، تجعل الكنة الكربلائية تسأل عمتها في اليوم التالي بينما ترضع وليدها:

- عمّة. أمس سمعت صوت ضحكك بغرفة السيد، بنائي السيد

ما يقبل أحد يطلع صوته بالبيت؟

تخزرها حماتها قليلاً. تجيبها من مكانها بهدوء وبرودة لهجة كظماوية:

- عجب يُول ما عندج لا شغل ولا عمل؟ اسمعي العصافير تتعارك على النبغة، أكيد جايينه خطّار.

تطلب منها أن تناولها الرضيع قائلة، "طيّالي". تكلفها بجلب صندوق البرتقال: "جبيّالي". تأمرها بالذهاب إلى المطبخ لطبخ "تاجينة الكلم" بعد رمي ماء الغسيل في الشارع.

- الطبخ اكتمل عمّة. بس مدّري صدگ الكواظمة فطرّ مثل الشجر مثل متگول أمّي يو لع؟ أنه باذني سمعت السيد يغني: (لابس كشيدة، والبطل بيده، خل...)

تقاطعها حماتها. تنهرها. يبرز حَوْل عينيها هذه المرة بصورة أوضح كعاداتها حينما تغضب، تتوعدّها بقص لسانها إذا ما تسمعها تلفظ مثل هذا الكلام مرة أخرى، "نزول، شلون تريد تعرف المضروبة شيسوون الرياجيل. چناين آخر زمن".

تطيعها الكنة وتنظر إلى عمتها بإعجاب وهي تلف كبة الرز بطريقة حاذقة، بحجم واحد وبقشر خفيف. تصغي إلى نصائح قيّمة حول ضرورة تخفيف حشوة الدولة لجعل الرز يتمدد وينضج بسهولة، "ياريت أتعلم أصير نادرة مثل عمتي".

تؤدي أم هشام فرض زيارة الضريح. تصلي تاركة ولديها يلعبان في ساحة الصحن. يجيء إليها بعد فترة السيد جواد ابن خالها، مصطحباً الولدين، يدفعهما نحو شقيّة:

- بت العمّة، رحمة على روح أخوالج، أخذي ابليس وأخوه وطلعي من الصحن بسرعة.

يحكي لها كيف سرق الصغير البدين عصا الكشوان ولصق على طرفها علكة، أدخلها خلصة في شباك الإمام ساحباً مبلغاً من المال في وقتما كان أخوه، ذلك النحيف الأسمر، يمثل باكياً نائحاً صائحاً بأنه يتيم وضائع، في حيلة لجلب اهتمام الناس إليه وصرفهم عما يقوم به أخوه. يكتشف أحد الزائرين ما يجري ويخبر السيد بالأمر. يحكي له آخرون عمّا فعلاه في الصحن الشريف حين جمعاً أطفالاً في مظاهرة تطوف الفسحة الواسعة بين إيوانات الصحن والضريح المقدس، منشدين بحماس ثوري، لا طمين على صدورهم، محرقين أغنية وطنية: (دَقَّت ساعة الأكل، والقيمة، وتبسي البيتنجان، صار ضرب النعل، بالحضرة، وانفشخ الكشوان، والزوّار، همّه الشعب).. ينتقلون بعدها إلى لحن آخر: (زوّار زوّار لآخر مدى، زوّار زوّار).

ليس غريباً أن يرث أولاد شقيّة طبع أمهم، يفكر بذلك عندما تزجه تصرفاتها وتعليقاتها حينما تراه ماشياً وراء إحدى الزائرات طلباً للنذر أو الدعاء. تتنصت ضاحكة على دعوته للغريبة بزيارة - خاصة - في الطابق السفلي للصحن.

تذهب إلى أبعد من ذلك يوماً. تلبس إزاراً أعجمياً تخفي به وجهها وتطلب منه بلهجة أعجمية، قراءة - الزيارة - والقيام بالدعاء نيابة عنها. يرفع السيد يده وبصره نحو السماء، ناظراً إليها بين الفينة والأخرى، مردداً بخشوع، "نويت أن أزور الإمامين الكاظمين موسى بن جعفر ومحمد بن علي الجواد عليهما السلام أصالة عن نفسي ونيابة عن والدي ووالد والدي ونيابة عن أهلي وذريتي ونيابة عن المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء والأموات ومن التمسني الزيارة. السلام عليك يامولاي موسى بن جعفر. السلام عليك يا باب

الحوائج. السلام عليك أيها الرضي الزكي. السلام عليك يا باب
المراد. السلام عليك أيها التقى الوفي. السلام عليك يا كاظم
الغيظ..... خانم ماكو نذر، أحوالي شوما خانم؟

تصل إلى سمعه ضحكة متغنية خافتة.

- سلام جونم، چتوري؟ تو خوشگل هستی

- بیو عزیز دلم، چي میخوي؟

تؤشر له برأسها ضاحكة، يلحقها لاماً عباءته بعجل. يتبعها
إلى عكد السادة حتى تصل قرب بابي. عندها تكشف له عن
وجهها ضاحكة:

- ها سيد؟ وين رايح؟ تعال. تعال. مرتك عدها نذر.

- تالي وياچ بت العلويه! هاي دگه تسويها بلّه؟

رغم مناكفات وتهديدات غير جادة بفضح أسرار مغامراته
ومعاقراته للخمرة، إلا أن السيد يفرح بزيارة ابنة عمته التي
يرى فيها شخصية قوية صقلتها الحياة وجعلتها تملك قراراتها
بيدها. لم يستغرب لمعرفته بأنها تخلت عن مذهب أبيها واتبعت
مذهب والدتها، مع شكّه بحكاية يسمعها تبرر ذلك الفعل بأنه
نكاية بزوجها عبد الهادي العلوان، لكنه لا يستبعد ذلك لكونها
لا تعرف من مذهب سوى اتخاذ أحد الأئمة قدوة وتسبيل اليدين
أثناء الصلاة.

تجادل أم هشام السيد عبد الهادي، زوجها، حول رأيه
بأقاربها من آل أبي الخير وإعابته لامتهانهم السدانة. تستقتل
في الدفاع عن أسرة خالها ودحض كل ما يسيء إليها، لينتهي
الأمر باستسلام مؤقت للسيد عبد الهادي لما تسرده امرأته من
استشهادات ونصوص أقوال للخالق ومن السنة النبوية حول

النسب الصالح. يلف ويدور هذه المرّة منتقداً تصرفاتها
وتساهلها مع ابنهما حسن في محاولة غير ناجحة لتغيير
الموضوع.

ينشغل البيت كله عندئذٍ بحسّان ورغبته بدراسة الفن.

* * *

فن

أوقّر المتعة والترويح عن النفس للناس، ألهمهم بكل ما هو خير، أدخل في صميم حياتهم وأتغلغل في واقعهم، أهبهم معرفة وقيمة إبداعية حتى أغدو معلماً وقيمة جمالية تميّز البشر عن الحيوانات، بل الحياة نفسها.

يتملك التمثيل، أحد حقولي الإبداعية، عقل حسّان ولبّ. يحلم باقتحام دنياه ودراسة خفاياه. يواجه صعاباً شتى تمنعه من مواصلة دراسته، كمعارضة والده ورفض المجتمع لما يعزم عليه، رغم وجود المسرح في هذا البلد قبل أكثر من خمسة آلاف سنة على شكل عروض فنية وطقوس دينية محفوظة في خزائن ذاكرة التاريخ.

في يوم تموزي مشهود، يصفق حسّان الباب خلفه، يسلم نفسه للشارع. يلفح وجهه لظى قيظ لشمس صيفية تشبه مقلاة على نار حامية وتحرق طابوق سطوح الدور لو يدوس عليها حافي قدمين يخسر رهان الشجعان. شمس تنمأهى مع ناس البلد في عنفوانهم، عنفهم، عاطفتهم، شجونهم. يقول هشام، البيئة والإنسان في هذه الأرض الطيبة متلاحمان متواشجان، لا نعرف أيهما اكتسب صفاته من الآخر.

يقف بانزعاج، متأملاً ما حوله من أبواب مغلقة على ناس أخذين قيلولة بعد وجبة ظهيرة دسمة. يفزعه فجأة صوت تفرغ

أحجار من سيارة حمل لردم مستنقعاً قبالة الدار، يُرجع كلب
لاهت الانفاس لسانه الطويل إلى داخل فمه ويركض فرحاً نحو
بستان قريب. يحس حسّان بصعوبة ابتلاع ريقه وتيبس شفثيه.
أين يذهب في ظهيرة ملتعبة كهذه؟ تصدّق جدته حينما تقول ان
حر الصيف أحدّ من حد السيف.

يفكّر في لحظة ضعف بالعودة إلى البيت، يتراجع الفنّان
محدثاً نفسه بصوت مسموع، كأنه يقف على خشبة مسرح،
"كلا، لن أضعف، لن أرجع لهذه الدار، لا أتمنى عودة أبدية
إليها. لا أحد يفهمني. ما من أحد يقدر طموحي أو مواهبي.
يقتل أبي أحلامي جميعها. أحلم ان أكون بحاراً، ألبس زي
البحّارة أبيض وأزور موانئ شهيرة ومدن غرب ساحرة حتى
أحصل على لقب حسّان ماجلان. أحلم بالابتعاد عن مدينة
محدودة ضيقة، في دروبها، أتعرّ بنفايات منازل وروث
أحصنة. مدينة قامعة لرغباتي وانبثاقها، دائخة مضخّة
برائحة زفرة منبثقة من شطها تبعث على غثيان دائم، يقول
عنها فارس انها رائحة بول وفضلات الأسماك. أرعن هذا
الفارس. انها رائحة ملابس وسخة ولفائف أطفال تغسلها
نساء تلك المدينة في النهر. نتانة وقمامة، يتبارى سكان أزقة
في جمعها وتكويمها قرب أبواب بيوتهم متفاخرين بريش أو
عظام لدجاج أكلوه. مدينة متخثرة مخنوقة برائحة سوائل
متبخرة لسكارى يتبولون على جدران مقاهٍ ونوادٍ وعلى جرف
شط بانس. مكان يسدّ النفس عن أحلام وأمنيات يحولها إلى
خرائب وزرائب مثل أرضها وما تحويه من ناس متخلفين
دون تطلعات وآفاق، فائرين في حزنهم كما في فرحهم،
عقولهم جامدة لا تتقبل أي جدة أو حادثة، تنطلي عليهم أي
بدعة وأي خرافة."

شمس غضوب جائرة، تصبّ حممها فوق رأسه، تلاحقه، تترصده أينما يحلّ، يهرب ظله إلى داخله مختبئاً من شدة حرارة ودبق، لا ظلّ شجرة في الأفق يقيه من لهيب جهنم أرضية كما في بلدان العالم الأخرى. ما أروع الجو في البلدان البعيدة! مطر ناعم، ناس يحملون مظلات باناقة وأدب، ندف من ثلج رقيق، مناظر رائعة تضي على الطبيعة جمالاً أخاذاً كمسرحية خالدة أو فيلم سكوب ملوّن.

كل من في البيت منشغل بحياته عن حسن الإنسان والفنان، لا يسألون عنه، لم يحضر أحد منهم تمثيليات ومسرحيات شارك فيها ليدركوا كم من الضروري على الفنان أن يواصل دراسة التمثيل وأن يعتلي خشبة المسرح المقدسة. غداً يعصّون أصابعهم ندماً حينما يحترفني، حينما يغدو ممثلاً محلياً شهيراً أو عالمياً، تتنافس مطابع على طبع صور له تُعلّقها البنات في غرفهن، ويتزاحم الأولاد لشرائها مع العلكة ملصوقة خلفها، ولمّ لا؟ كيف تلاًّ كلارك كيبل أو غريغوري بيك أو كاري كوبر؟ ساعدهم أهاليهم بالتأكيد على دخول عالمي دون اعتراض أو استنكاف. لم يقل براندو، أبو مارلون، لإبنه مثلاً، "تريد تصوير شعّار؟ تريد تصوير مارلون يا بلا لون؟ تفو عليك". لم يسمع ما تفوّه به خال باحتقار، "طاح حظك زنانه، يا شين ما خلّفت يا أم مارلون". لم يخرج أخو مارلون الأصغر لسانه له هازئاً أو يضع يده تحت ابطه مقلداً صوتاً يشبه صوت - العفاط-. كم يحسد مارلون براندو الذي وجد فرصته الذهبية حتى غدا نجماً لامعاً.

لم تنفع معهم وساطة استاذ الرسم: "يا جماعة ابنكم موهوب، والتمثيل صار فن راقى ومحترم". لم يأخذوا برأي مدرس الموسيقى: "سيدنا، الفنان شيلة راس، واليوم تغيرت

المفاهيم، شوف مصر، الفنانين لهم سمعتهم ودورهم بتغيير المجتمع وتهذيبه، شنو مزيقة وقرقوز!"

حر قاهر لافح، جمر يتساقط من تنانير سماء يوقدها تنين ماردم عملاق كثير الشبه بفلم اشتهر في إحدى دور السينما. شمس لاذعة سليطة ستحرق رأس رجل أصلع يغطيه بمنديل مبلل مبروم من أطرافه الأربعة. العراقي معذور حين يغضب ويثور، حرارة مثل هذه، تغلي الدماء في عروق رأسه، تذوب شحوماً في دماغه، ويذوب معها كل تفكير رزين. لا نسمة تهبّ عليه، لا رشة ماء تخدم ذلك اللهب الخانق، كل سوائل جسم البطل تتبخّر، ينشف ريقه وصبره.

"لا جدوى من أحلامك يا حسن. لا جداول لا سواقي لا غدران، لا شيء بيدك سوى الخذلان، تبحر في قارب مثقوب مهشّم البنيان. أين تذهب الآن؟ مالي أراك تفقد كل قدرة على اتخاذ قرار بسيط كهذا في مدينة بسيطة كتلك؟"

يمضي من أمام مقهى خالٍ من زبائنه هذه الساعة، يأخذ جودي الأقجم قيلولته داخله، تاركاً الراديو يصدح بصوت أسمهان، (نويت أداري الآمي، وأخبي دوعي ونحيبي).

أدرك بأنك ستداري آلامك قريباً. سرّ، لا تقف على قارعة الطريق هكذا. إذهب إلى بائع مثلجات لتناول مرطبات تتعشك من حر جهنم تموزية، أو انعطف إلى حديقة الجبل لتحتمي بأشجار رقيقة. ربما من الأفضل لك أن تسبح في النهر أو تدلف المقهى، قد تجد عباس وسعدون هناك يلعبان الدومينو. لا تعجبك هذه الحلول؟ إذن إذهب إلى دار عشقك، السينما، ستجد فيها هواء مكيفاً بارداً يخفف عنك الحر.

لم يكن حسن بمزاج يساعده على تحديد وجهته. ما يسعده

الآن رؤية سائح أجنبي في المدينة، يحكي معه بلغة تعلّمها من الأفلام، "هلو، هو ديو يو دو، سبيك انكلش؟ ولّكم، كم هوم". يكون هذا الغريب سبباً لعودته إلى الدار، لكنه لا يستطيع الذهاب إلى البيت، فكيف لو يصحب معه زائراً إلى هناك؟.

"السيد الوالد يعترض على كل ما أقوم به. يعلّق على سروالي، طالع مثل لگلگ. على طريقة تمشيط شعري، عابت هلبكله، مثل راس خس أبو الطوبه. لا تعجبه أغاني أجنبية أحفظها، أحفظ دروسك أحسنك سقوط. لما أتعلم - الشيش- والمبارزة بالسيف، يواجهني، تريد تصوير زورو؟ هاي اللي حصلناه من الأفلام والسينما. أتدرب على الملاكمة بمشقة، أحلم أن أكون أحد أبطالها، يرفع الحكم يدي عند الفوز ويضجّ جمهور كثير بالتصفيق والصفير تشجيعاً لي، لكنه يأمرني بتركها يوم أخسر مباراتي الأولى، رغم أن الحياة جولات كما يقولون. يتدخل في تفاصيل حياتي، في كل صغيرة وكبيرة. يتابعني ويحاسبني حتى في ممارسة العادة السرية. يضربني على قفاي لو رأي أفعالها صدفه. عندما يخرجونني من مركز الشرطة بآثار تعذيب طرية على جسدي، يعفّني صارخاً: "بعد علينا - الشوعية - والمِسْقوف؟ تريد تصوير زنديق؟". يسمعه الجيران، يصل صوته إلى بيت عواطف، حبيبتي. لما أحكي له عن أفكار راقية ترفع من شأن الإنسان، يشتمني مهدداً: "أفكارك هيّ والقنطرة، حياتك أثن". يؤيده أخي هشام قائلاً بأن قلب السياسة أسود وعليّ المحافظة على بياض قلبي، ناصحاً مفلساً، بأنها ليست شغلة الرجل الفاضل. يجبرونني على ترك السياسة وفتاة أحلامي. أفقد عواطف الجميلة بسببهم".

يحسّ بجوع يعصر معدة خاوية. تروح عيناه باحثة عن بائع

- عمبة وصمّون- قريب. منذ مدة لم يذق طعاماً يتلذذ به كما أكلت يراها في الأفلام، يأكلها ناس متحضرين بشوكة وسكين، جالسين على مائدة أنيقة، يلوكون ويمضغون، يلوكون ويمضغون بغم مقفل، لا يفتحونه إلا عند الضرورة.

لماذا الخسارات في حياة الشباب؟ هل قدر لهم سلك دروب أسلافهم؟ لماذا يعتقد الكبار ان كل ما يؤمنون به سليم وصحيح؟ هل تنفع الأخلاق في مجتمع يخلو من الأخلاق؟. مقولة سخيصة لشخص أحقق، يتمنى لو تكون له حكمة رجل في الثمانين، كبير القوم ليس بالضرورة حكيمهم. أليس من الأجدي أن يكونوا قدوة حسنة لهم أولاً؟ هاهم الكبار على مسرح الحياة بنصّ باهت، بإنارة خافتة، بإكسسوارات مهترئة من قيم منطفئة، بديكور مقولات مستهلك منخور، ها هي حياتهم أمام العالم، مسرحية فاشلة لمخرج بائس وكاتب نص تقليدي مغمور. أي سعادة تكتنف حياتهم، حتى ينبغي على أولادهم الإقتداء برجاحتها ومصادقيتها؟ أي سطوة حديدية لقيم، لأعراف، لسلطة جماعة! ليس من حق كبار السن منح منتج جاهز للحكمة إلى صغارهم. ما زال الناس في هذه المدينة يترنمون بالتراث والموروث، بـ(دشداشة صبغ النيل غوم بطرگها، هلووو). يقومون بنفس أدوار قام بها أجدادهم وأجداد أجدادهم، والويل لمن يخالف.

يتريث الفنان عند مروره قرب الشط. يجد عند ناصية الشارع تحت أشجار جوز هند، بائع سندوتشات، يشتري ما يريده. يقضم قضمات صغيرة بتأن، يلوک ويمضغ، يلوک ويمضغ، محاولاً عدم فتح فمه كما يفعل الأجانب في الأفلام. تهيج رائحة العمبة مافي جوفه من وحش الجوع. ينقض على ما بين يده بنهم ناسياً آداباً غربية في تناول الطعام لكي يسكت

جوعه بسرعة.

ينادي على صديقه عباس من خلف ستارة تحجب باب بيت عن عيون متطفلين ومارّين، يخرج له بملابس داخلية. يبلغه برغبته في الذهاب إلى السينما، يجيبه ببرود، "ليش عصبي حسوني؟ أشم ريحة عطّاب، متأكد ما محروك بيك شي، لا فيوز ولا لمبة؟ انتظرنا، سعدون طنطل عندي".

توجّه الثلاثة، سعدون الطويل، عباس القصير، وحسّان الفنّان صوب السينما، متراصفين كآلة (بان فلوت) موسيقية. تمرّ بقربهم عربة يجرها حصان، يجلس فيها رجل حاملاً بيده كارتونة كبيرة مكتوب عليها اسم فيلم اليوم، منادياً، "أقوى الأفلام الرومانية، أجرأ القصص الغرامية، فلان في بطاقة واحدة".

- سبارتاكوس، كيرك دوغلاس، شافيه. نروح لفيلم الخطايا عبد الحليم أحسن.

- هناك السينما مابيهه تبريد، بعدين هذا الأعور يقطع بكرة الفلم كل ساعة، وخاصة لما يبوس عبد الحليم نادية لطفي ويخلي أهل أبو أربعين يثبرونا بالفشار والصفير.

لم يجمع الثلاثة عمر متقارب أو غرابة في طول قامة تدرجاً ولا حتى لقب الفرسان الثلاثة الذي يطلقه عليهم أهل المدينة، بل ما يقرب بينهم هو حبّهم لي، طموح مشتعل في اعتلاء خشبات مسارحي، دراسة التمثيل دراسة أكاديمية. أحلام كبيرة في مدينة صغيرة متلفعة بالعيب، بكلام الآخرين وسمعة الفرد. يقفون على عتبات تطلعاتهم طويلاً في نية لاصطياد لحظات ولوج عالم يسع طموحاتهم. يبيتون في حالة متأرجحة بين صراع حام دام وأمل مصروع مصدوم.

- أني ما عندي مشكلة، زرت أبويه بالسجن وگال، ميخالف، صير سعدون الشعار، صير شمشون الجبار، بس لا تصير شيوعي بهذا البلد، تكضي عمرك كله لو بالسجون لو تناضل حافي وتنتبرع من جيبك.

يشعل عباس سيجارة گريفن أبو البرزون ويسحب منها نفساً باستمتاع:

- أما أني، فأبويه گال، "بيين انت ما بيك خير، أيست منك، أنت مو مال طبيب ولا مهندس، روح صير قرقوز".

يتحسر حسان نادباً حظّه وإصرار أبيه على التحاقه بدار المعلمين والابتعاد عن الفسق والفجور. يحاول إقناعه بأن الممثل لا تحترمه الناس، اي غير مقبول اجتماعياً، على رأي أخيه هشام. بمعنى أنه لكي يعيش وسط الناس، ينبغي أن يدوس على أحلامه إرضاءً لهم.

يضع عباس يده على جبينه بحركة مسرحية متذكراً رد فعل الممثل يوسف وهبي في مثل تلك المواقف، ينطلق صوته مضخماً حتى أنه يثير إعجابي في تلك اللحظة:

- ياللهول! يالطعنات القدر! واغوثاه!.. ويحكم يا قوم. يا بني البشر اسمعوا وعوا. يا أيتها السماء الرحيمة ارعدي، يا أرض اخسفي، يا غيوم انهمري، يا براكين الأرض تفجري. لا يمكن السكوت على تلك الإهانة الشنيعة. مالي أرى وجه العالم كالحاً يسوده جهل وتخلف. هل فقدت البشرية صوابها وحكمتها؟ أي هاملت. أن تكون أو لا تكون ذلك هو السؤال. أيتها الطبيعة أمنا، ارحمي ابنك اليانس البائس. طوبى لكم أيها الفنانون، تبا لكم أيها الظالمون، تعساً لكم وترحاً. تعساً لمن لا يتمرد. أبتاه...

يقاطعه سعدون ببرود كعادته أثناء انسجامه بالدور المسرحي، زاعماً أن الذنب ذنب حسّان لأنه لا يمتلك قدرة على إقناع والده:

- لازم تحسّن مظهرك الفني والسلوكي، جهرتك مثلاً مو مال ممثل، لازم تصعد بنظرونك ليفوگ مثل فريد الأطرش، تفرگ شعر راسك مثل عماد حمدي، متنام مثل عمر الشريف بفلم لا أنام، وتغنيله لسيد عبد الهادي: (هايدي هايدي هايدي هووو، هايدي هايدي)، بعدما تحوّل له لنغم جورجينا: تُم تتك تتك، تم تم تك. وانت طالع فوگ النخل فوگ، راح نبذل اسمك من حسّان إلى جريدي النخل أو جريدي المسرح.

يحاول حسّان الفنّان تطبيق ما أخذه من دروس في الملاكمة على صديقه، يسرع غريمه راكضاً نحو السينما.

ينسى الأصدقاء كل خصومة بعد بدء الفيلم. في فترة الاستراحة، يرتفع صوت بائع متجول يطوف ببضاعته بين رواد السينما بندائه المعروف، حَب جگاير علج. يتوجه الأصدقاء نحو دورات المياه، تنفرهم رائحة كريهة منها تبعث على تقزز وكتابات مرفوقة برسوم جنسية جريئة على جدرانها وأبوابها. يفرّغ فيها متهيجون من مشاهد غرامية، غريزة ذكرية ملحة تحتمّ عليهم التنفيس عنها بتعابير فظة وبطاقة شبابية مكبوتة.

يذهب عباس لمساعدة أبيه وقت إغلاق مقهاه ويتوجه سعدون، إلى زقاق قريب، تقطن فيه فتاة يحبها أملاً رؤيتها طالّة من سطح دارها. يدندن بأغنية (بتلوموني ليه) علّها تسمعه، متقناً نبرة حزن المطرب ولوعته مثلما تدرب مرات عديدة أمام المرأة. وما أن ينفد صبره ويأس، يذهب إلى بيته، ينزوي في ركن من سطح داره مع مارلين مونرو وغيرها من

النجمات، حالماً بحب عاصف وبشهرة منتظرة في الخيال.
يفضل حسان البقاء لوحده قاطعاً الشوارع على غير هدى،
مؤجلاً رجوعه إلى البيت حتى موعد عرض مسلسل الخميس
"بنت الحثّة" أو عند العشاء، وقتما يكون الجميع في انشغال
عنه بما هو أهم.

قرب حديقة على الشط، يستنشق رائحة ورد دفلى ممزوجة
برائحة الماء ونسمة خفيفة خجلى، لم يثنه حنوّها عن فكرة
استحوذت على عقله وشغلت باله طويلاً. يردد في نفسه أبيات
شعر:

"ومن يتهيب صعود الجبال/ يعش أبد الدهر بين الحفر".
و"ما استعصى على قوم منال/ إذا الإقدام كان لهم ركاباً".

نعم، انتهى الأمر. اتخذ أمراً حاسماً في سرّه، من الغد سينقذ
قراراً أخفاه عن صديقيه الحميمين. ستقوم المدينة حينذاك ولن
تقعد، لا يهم أمر الناس من يمضي نحو هدف غير مكتفٍ
بالحلم، فالأحلام للأغبياء والكسالى فقط. لا خير أبداً في بلد لا
يختار فيه ما يريد ولا يتمكن من تحقيق أحلامه فيه. شخص
واحد سيرتاح لقراره، أخوه الصغير فارس الذي يقرر الإلتحاق
بالكلية العسكرية خادماً في سلك الجيش.

* * *

جيش

أحرس الوطن مثل سور. أحميه من كل اعتداء خارجي.
أحافظ على حدوده. أدافع عن أمنه. أفضّ إشكالات ونزاعات.
أساعد محتاجين في حال وقوع كوارث طبيعية. أعتز بمهامي
ودوري في خدمة البلد. يشكّلون قواي المسلحة وفق تدريبات
خاصة ويزودونها بتجهيزات مكلفة من أجل تحقيق أهداف
ترسمها الدولة، فلا غرو أن يشبهونني بمصنع الأبطال
والرجال.

أنتشرف بانضمام فارس، الابن الأصغر لأم هشام، إلى
صفوفي لغرض دراسة فنوني العسكرية. يظل كل حياته
يتذكرها مع وقائع خشنة كطاعة عمياء للأوامر، خفارات ليلية،
حجب إجازات، وأكرهها إلى نفسه، تدريبات صيفية شاقّة،
يستعيد ذكراها اللحظة، بفعل حر أخرق وظهيرة ملتهبة متربة
لا يطيقها.

يستلقي في فراشه لأخذ قيلولة قصيرة. يغيّر وضع جسمه.
يواجه نافذة قبالتة، منظر قابض للنفس. تراب وغبار يحجبان
رؤية أشجار الحديقة ويلوّنان الأجواء بلون برتقالي جارج.
ينقلب إلى الجهة المعاكسة للشباك في محاولة مستعصية لكسب
إغفاءة لا تتخللها تداعيات وأفكار مقلقة:

- نفس الخره، عجاج وطوز وتراب.

يمتلكه هاجس كتابة قصيدة عن الحر يستهلّها: إحنا يفجرنا حرّ ويقتلنا عجاج وطوز/ وغيرنا ينام على المكيفات، ياكل جوز ولوز. يلغي فكرة مشروعه لعدم وجود كلمات وقافية أخرى في باله، تنتهي بحرف الواو والزاء غير كلمة موز. تقوده أجواء عاصفة ترابية ممائلة في مؤخرة رأسه، إلى إنزال سحب ذاكرة بعيدة على زمن قضاه على الحدود الشرقية للبلد أثناء خدمته العسكرية.

في تكنته بالموقع العسكري، يحاول اللجوء إلى شتى الوسائل للتغلب على ضجره من جو حار ووقت ممل. يعيد قراءة مجلات يجلبها معه كلما يذهب إلى العاصمة حتى تنهراً أغلفتها. يلعب بوكر وطاولي بمفرده ومع حارس يقف على باب خيمته. يعود شيطان الشعر لإغرائه، يكتب: ضجراً ألعب في وحدتي/ أنيف ودومنة لسلوتي. يستسحف ما يكتب. يمزق الأوراق. يخرج من الخيمة. يصدمه منظر فضاء خشن لا روح فيه، لا شيء غير متسع من فراغ، أرض حدودية مترامية يغمرها غبار، رياح، رمال، ووحشة لا متناهية. يتمشى قليلاً، يواجهه سائر قوات دولية مكلفة بمراقبة الحدود، يتحاور مع بعض أفرادها بلغة أجنبية بسيطة. يتبادل معهم نكات لا يفهمونها. يضحكون معه بملء أشداقهم حينما يشاهدونه ضاحكاً، ربما لشعورهم بالضجر مثله. يفكر بمشروع تعليمهم اللغة العربية، لكن بعد محاولات مضنية يفشل، ليس تماماً. يتعلمون منه في نهاية الأمر نشيد الأطفال، (عصفوري من كفي طار) باعتباره النشيد الوطني لبلده كما يوهمهم. يرددون وراءه "عصفوري من كافي تار". يصف أخوه هشام وضعه بأنه حالة استيحاش واستجحاش.

في أحيان أخرى يذهب إلى غرفة الأمر، يقضي وقتاً معه.

يتعلم الكثير من حكمة عسكري مهني مجرب. يعارضه في آراء حول ضرورة بقائي على الحياد بخصوص ما يجري داخل البلد. يستغرب من موقف قائده حينما يهيب بـ برقيتين في حالة سماعه لنبا قيام انقلاب في البلاد، مفتتحاً الأولى بـ "نحن أمر فوج — نستنكر بشدة"، يبعثها إذا فشل الانقلاب وفي حالة نجاحه، يكتب في مطلع الثانية "نحن أمر فوج — نؤيد بقوة". "ابني، خلّي راسك مرتاح، اللي ياخذ أمني أصيحه عمي، أول وتالي الجيش راح يخضع لسياسة الدولة والحكومة، بعد شنو دوخة الراس؟"

يسأله فارس عن مصداقية وطنية قوات البلد المسلحة، عن بسالتها المعروفة ومواقفها البطولية بحرب عام 48 و 73 وغيرها. يؤكد قائده إيمانه بي كمدرسة وشرف وطني، يشيد ببطولاتي ومآثري، "لكن لما يكون العسكر تحت هيمنة سياسة وسياسين، أيّس منه، يصير آلة طيعة وأداة قمع بيد الدولة، ينكمش دوره ويدخل في صفوفه شعيط ومعيط، مدنيون غير مهنيين ضماناً لمصالح ساسة وأحزاب، يتحول إلى جهاز مخابرات وأمن خاص، يفقد الانضباط والوطنية. يا شؤون عسكرية، يا مهمات وطنية، يا بطيخ!.. الحال نفسه ينطبق على برامج الأحزاب الوطنية ومسيرتها، لا ينفع شي لما يهيمن عليها قيادات تنفرد بالقرارات".

يخبر الأمر عن رأي أخيه هشام حول دور دوائر استعمارية، مؤامرات خارجية، تدخلات في شؤون الدولة وتخاذل حكام أمام مخططات تستهدف رضوخ البلد وتسليم الأمور للأجانب، أسباب منطقية وراء تهديدات تلوح في الأفق على الحدود اليوم. يؤيده القائد العسكري ويباغته بتفسير غريب لوجود فوجهم على الحدود:

- لا نفع ولا دفع. بعينك تشوف التردي بالتدريب والتجهيزات، تسمع عن إملاءات خارجية، فساد، وساطات، محسوبة، منسوبة وغيرها من أمور تنخر المؤسسة العسكرية العريقة.

يشدد الأمر على ضرورة تقويم نفوس وعقول الناس قبل عكسرتهم، يقصّ عليه قصة معروفة عن صينيين قدامى حينما أرادوا بناء سور عظيم. اعتقدوا بأنه لا يوجد من يستطيع تسلقه لعلوه، لكن خلال المئة سنة الأولى لبناء السور تعرضت بلدهم إلى الغزو ثلاث مرات، في كل مرة لم تكن جحافل العدو البرية في حاجة إلى اختراق السور أو تسلقه، بل كانوا يدفعون للحارس رشوة ثم يدخلون عبر الباب. انشغل الصينيون ببناء السور ونسوا بناء الحارس. "إذا تريد تهدم حضارة أمة استخدم أربع وسائل؛ الأسرة، التعليم، القضاء والجيش. عوائلنا تعبانة، تعليمنا فاشل، قضاؤنا مشلول وجيشنا مكتوف اليد. هاي كل القصة وما بيها. ماكو صورة حل بعد غير نراعي خبزتنا ونحافظ على حياتنا".

يحاول فارس نسيان حديث الأمر، لكن كلما يتذكره، يشعر كما أنه يرفع غطاء بالوعة تفوح رائحتها حوله، في داخله، في وطنه وفي المستقبل. تستوطنه رائحة كريهة وتفاقم حيرته حالة عقيمة تقوده لبأس من وطنية ووطن. يلوم من ورّطه في هذه المهنة. يلحّ عليه مجيد زوج فردوس لكي يسجّل في الكلية العسكرية قائلاً بأنها مدرسة تصنع رجالاً وأبطالاً، بلدنا بأمسّ حاجة لهم. "مجيد العالم والعارف بكل شي، مفتّح باللبن والدبس، هوّ بس وغيره راس خس، اذا ما تسمع كلامه وما يحالفك الحظ، يلومك، ها؟ شكّلت آني؟ مو عرفت". يلوم نفسه أيضاً لأنه اعتقد أنها فرصته المناسبة. "الله ربك أبو

الفوارس، تُشدّ لك نجمات تلمع على كتفك، وتقبض راتب زين، والبنات راح يتصارعن و- يتمالخن- عليك، والبلد على الراس، محفوظ المقام، نحبه وندافع عنه ونفديه بأرواحنا وقت الشدة. لكن وين تتوفر هذه الفرصة؟ منو يهتم بهذا البلد المسكين؟ ماكو أمل حتى بالأحزاب السياسية".

بفضول وبرغبة ملحة في معرفة الخاتمت، يسأل فارس عن نضال أحزاب وأفكارها وبرامجها، هل سيطول، وإلى متى؟ ألا يحق للذي ينتمي إليها أن يرى نتيجة وجدوى نضاله وتضحياته؟ ألا يمكن أن يضع مؤسسوها أفكاراً وشعارات قابلة للتطبيق في حياتهم، حتى يستطيع أن يعرف الناس ما إذا كانوا سيشهدون نهاية لما قاموا أم لا.

تسبح لفارس فرصة الاستماع إلى نقاش صلاح الدين مع أخيه هشام حول عملية تغيير ينشد إليها حزبه. يحك صلاح رأسه، كعادته كلما يريد التحدث عن موضوع جاد:

- يحضرني قول قائل بأنه ليس مهماً أن تصرع التنين، بل المهم أن تصارعه. إذا ما نناضل شنو نسوي؟

- لكن هاي قوافل الشهداء اللي نطيتوها، وأهلكم وأحبابكم اللي تأذوا بسببكم، دربكم ما كان اختيارهم. موهاي أنانية المناضلين؟

يجيب صلاح بأنها أنانية الظالم الذي يقارعه الحزب، المسؤول الأساسي عن أي مأساة تصيب الشعب، أما التضحيات فلا بد أن ترافق كل مسيرة خيرة، لا يمكن أن يوجد يأس من الحركة النضالية رغم عمر طويل للنضال. يعطي مثالاً لما جرى في أوربا ونضالها الطويل من أجل نظام ديمقراطي عتيق.

الحديث عن نظرية ماركس، عن مصطلحات البروليتاريا وديكتاتوريتها، الرأسمالية ووسائل الانتاج، يروق لفارس، رغم عدم فهمه لما يقوله، أخوه وصديقه، لكنه يحرص على حفظ تلك الكلمات ليتباهي باستخدامها أمام أصدقائه، وليناكد بها لافي الذي يكون موجوداً في الغرفة ساعتها، "ما أحبه، واحد مخاطي ولزج يسوي جالي بالمعدة".

لايكفّ لافي عن لوم هشام لأن مكتبته تحوي كتباً مستوردة تحمل أفكاراً هدامة ومسمومة، "خلونا ابيتنا، بلا أفكار مستوردة، دائماً أعيد واكرر هذا الكلام".

يجادل هشام، دون الرد على لافي، صديقه صلاح حول ضرورة خلق ثقافة ووعي سياسي يمهد لاتحاد كل القوى السياسية الخيرة من اجل إنقاذ البلاد وتشكيلهم كتلة معارضة داخل برلمان ديمقراطي، إلى جانب كتلة الحزب الذي يقود الحكومة، حينذاك تتصارع الآراء وتتبلور الأفكار من خلال المناقشات وتبادل وجهات النظر وينتج بالتالي التطور والرقي. يرد عليه صلاح الدين بكلمات منمقة وبآراء تبدو مقنعة لأن هشام يهزّ رأسه موافقاً.

ينتبه فارس إلى احترام وإصغاء أخيه لما يقوله صلاح، يعجب بتوقد حماسه، بحركاته الهادئة، بإصراره، باتقانه وانتقائه لكلمات ومصطلحات كبيرة. يقرر بدون تردد الانتماء إلى حزب صلاح، يسرّ أخاه فلاح بفكرته. يحصل على وعد منه بالاتصال بالرفاق وعلى ترتيب لقاء معهم. يستلم منهم كتاباً يقرأه بغرض التثقيف الذاتي لحين قبول انتمائه في التنظيم. يبدأ بقراءة السطر الأول من الصفحة الأولى: "إن الجدل ليس خيلاً ولا تصوفاً بل هو علم أشكال تفكيرنا في حدود أبعد.. بداية غير مفهومة وغير مشجعة له، ربما يقصد

المؤلف ان الفرد حينما يتجادل ويختلف، مع حسان مثلاً، يعني ذلك أنه على علم بأشكال التفكير، جائز. يصل في القراءة إلى الإستنتاج بأن الجدل يهدف: "إلى التوصل لفهم السيرورات الأعمق والأكثر تعقيداً". يترك الكتاب قرفاً، ينفر منه لأنه ليس بحاجة إلى العمق والتعقيد، يكفيه أن يعيش بعيداً عنهما وعن الصعوبات والتأزمات، الحياة أبسط من ذلك برأيه، إذ كلما يتعمق المرء فيها، تتعقد أكثر ويتعقد البشر بالتالي. ها هم يعيشون الحياة، هل من اللازم عليهم إدراك كل الحقائق، وهل بإمكانهم فهم كل شيء؟

يردّ الرفاق على طلبه بالإيجاب بعد فترة قصيرة. ردّهم السريع يجعله يتمعن جيداً بأهميته وبأنه، ربما، يتفضل عليهم بانضمامه إلى تنظيمهم. يبلغونه بكلمة سر ليحفظها حتى يستلمه مسؤول التنظيم. يحددون له موعداً في ساعة من ساعات ظهيرة قائظة من شهر آب حارق المسمار في الباب، كما تقول أمه التي صار يناديها اليوم "ماموشكا شقيّة"، ويتمنى لو يغيّر اسمه إلى "فارسوفسكي"، لتعلقه الشديد بالاتحاد السوفيتي ولغة رفاق بلاشفة حمر. ينسى الذهاب إلى الموعد الحزبي في المرة الأولى. في المرة الثانية يقضي نهاره في قيلولة لذيذة ويتغافل عن موضوع اللقاء. في المرة الثالثة، ينسى كلمة السر ولم ير جدوى من ذهابه. في المرة الرابعة يتوقف، في طريقه إلى الموعد، عند بائع ينادي على فول سوداني، يرى أن من واجبه توعية هذا العامل البسيط المسحوق، باعتباره مشروع عضو في حزب للطبقة العاملة يدعوالى إسقاط العبودية وعلى رأسها عبودية رأس المال كما يسميها صلاح، "أنت وهمتك ابو الفوارس، إذا لم نعرّفهم بوضعهم، نحن الحزبيين، يبقون في كنف العبودية والتخلف طول عمرهم".

- عمي، انت مبيّن عليك من طبقة البروليتاريا.
- شنو عمّي؟
- ولازم تعرف، هذا فستقك فستق بروليتاري مو فستق عبيد.
- لا والعبّاس عمّي، هذا فستق عبيد.
- أوووف. هاي مشكلتنا، ما نحررّ انفسنا ونكسر قيود العبودية. الله وكيلك ولينين كفيلك، لا زم نغيّر اسم هذا الفستق.
- شلون عمّي؟
- حينما يرى الحيرة في عيني البائع، يقترح عليه تغيير اسم بضاعته إلى فستق الكادحين أو فستق الطبقة العاملة، لأن زمن العبيد ولّى وانتهى. يقرر ان يكون هذا البائع أول شخص يناقشه ويثقفه، غير أن الرجل يتركه خائفاً دون ان يردّ على جدل فارس الديالكتيكي. ينظر بزهو نحو الأفق متفكراً متحسراً، "يا إلهي! مهمة توعية البسطاء والمتخلفين، كم هي شاقة وعويصة حقاً! كم ينتظرنا عمل كثير من أجل هؤلاء المسحوقين!". يأتيه إلهام الشعر، يفكر بنظم قصيدة مطلعها، يريدون فستقاً وناساً عبيد/ ونريد وطناً حراً وشعباً سعيد. يعاهد نفسه أن يضطلع بمهمّات جسام وأمور عظام لا تصعب على فارس الهمام والرفيق المقدام، "لقد تغيرت يا أبا الفوارس وتعلمت من خلال التجربة أن المال ليس كل شي في الحياة. كيف نتعامل مع كل واحد من الناس، هو سر السعادة وراحة الضمير. يا ربّي! ما أدري شلون جنت عايش قبل ما أنتمي للحزب!"

يصل إلى المكان المحدد متأخراً. يعرف الشخص المكلف

باستلامه من وردة حمراء تبدو ذابلة في يده، يسأله برخاوة عن كلمة السر:

- رجاء، منين يطلع الباص رقم 4

يمسح الرفيق حبات عرق تتضح من جبينه وعلى وجهه تبدو آثار كأنها لضربة شمس:

- من طيز اللي خلفوك.

يعجب فارس من قلة تهذيبه وضيق صدره، ماذا لو تخلف عن مواعيد سابقة؟ ماذا سيجري لو تأخر قليلاً اليوم؟

- من طاح حظك وحظ اللي يجي لحزب أنت بيه.

يخبر فلاح بتفصيلات ما جرى، شاكياً من قلة ذوق الرفيق أبو باص رقم 4، يبلغه برغبته في تلقينه درساً من راشديات وكالات بديمقراطية لا ينساها، لكنه حفظاً لماء النضال والرفقة الحزبية، يحجم عن فعله. يتهرب فلاح منه بعد ذلك ولا يحدّد له موعداً آخر. يجيبه لما يسأل عن صلاته الحزبية بأنه ترك الحزب. لم يصدّقه حينذاك.

لم يفكر فارس لاحقاً بالانضمام إلى أي تنظيم سياسي رغم ميله وجدانياً إلى جماعة صلاح لأنهم طيبون ونظيفون، يعجب بفكرهم بسبب إنسانيته وانحيازه للمظلوم والفقير، غير أنه ليس مع تنظيمهم في تزمته الفكري وانضباطه الصارم، اللذين يناقضان طبيعة مشاكسة وفوضوية له. في الوقت نفسه، يميل بشدة إلى وجهة نظر هشام حول مأخذ ماثلة للنظر، على سياسة قياداتهم، حتى أنه يبذل جهداً في نظم قصيدة بهذا الشأن، يهديها إلى روح الشهيد صلاح فيما بعد:

لو زرع چان هسه خضر/ لو غيم چان هسه هم مطّر/ لو

نذر چان هسّه هم شور/ بس للأسف هوّ حلم، خلّه الحلم
يتحسّر/ هوّ أمل وبعده طفل يتعثّر/ هو صبر خلّه الصبر
يتحيرّ/ هوّ دوه، لضلع ناسه ما جبرّ/ هوّ صوم الما بعده عيد
فطرّ/ هوّ شمع ظل يحترگ ما نورّ/ هوّ نغم بالحن لا شد ولا
صقرّ/ هوّ ماي بين الصخور تحجّرّ/ هوّ شمس غوّش ضواها
اتكدّرّ/ هوّ باجر جاي بس انتظاره عورّ/ هوّ فجر مخنوگ
بطن امّه تعسرّ/ هوّ حلگ بالحجي عن ساعده شمّرّ/ لو هوّ
موهيچ واني خطأ أتصورّ/ لعد ليش هذا الليل بعد الليل سيرّ؟/
وهذا القهر ليش بالبلد ماشي يتمخترّ؟/ وهاي الصبخ بالأرض
ليش يتطشّر؟/ وذاك الماعدل بالحكم بالكرسي يتبسمّر؟/ ونسأل
وينه شو ما فعّل ولا عمرّ/ بس نرجع نگوول ونشتكي ونتحسرّ/
هوّ عادة وقسمة ونصيب مقدّر.

لم ينتم فارس إلى الجيش العقائدي وليس لديه أي تحرك
سياسي ماعدا كتابة غير واعية محرّفاً فيها شعار: "من لا
ينضح عرقاً في سبيل بناء وطنه، لا ينضح دماً". حينما يشطب
بعض الكلمات ويضيف أخرى ليصير الشعار، "من لا ينضح
عرقاً، ينضح بيرة". تصل التقارير عنه إلى بعض المسؤولين،
يسامحونه ضاحكين في سرّهم. يبرّرون فعلته بتصرف غير
مقصود سببه حالة ثمالة تجعله غير مسؤول عن أفعاله. ينقلونه
فيما بعد إلى حوانيتي. يبقى هناك حتى يوم تقاعده.

يتعلم من خبرته في الحياة أشياء جمّة، أهمها أنه لا يوجد في
الحياة ما يستحق أن نفسّره ونرهبه عمرنا في البحث عن
حقيقته وجوهره. يحب أن يبقى، كما يصفه هشام، تبسيطياً لكي
يعيش حياته بهدوء ودونما تعقيد وتعّب. سعيد هوّ لأنه يمارس
فن التقليل من جدية الأشياء. ثمة أمور يصعب على البشر
تفسيرها وإيجاد أسباب لها، فلماذا يتعبون دماغهم بالبلاش؟ ألا

تكفيهم متاعب الحياة والعائلة ومشاكل الارتباطات العاطفية؟

* * *

عاطفة

يميل البالغون من البشر إليّ، أمنحهم مشاعر ساحرة مفعمة براحة،طمأنينة، ثقة، تفاؤل، واستقرار. تُتَوَّج جميعها بسعادة غامرة لو كانت متبادلة ومتوازنة. ألبي حاجة استمرار الجنس البشري، أمر تفطرهم الطبيعة عليه لأتحول إلى رغبة الجنس في ممارسة علاقة حميمة غريزية طبيعية. رغم ذلك يعتبرني بعضهم أمراً معيياً وعلى الخصوص في مجتمعات لا تبيح اختلاط الجنسين.

لي حكايات مشهودة مع عائلة السيد عبد الهادي العلوان وزوجته السيدة شقيّة جبر، أولها مع ابنهما البكر.

يرث هشام عن أمه ملاحظة وجه وعن أبيه قامة فارعة. لا تكتم شابات الجيران تنهدات حارقة لمّا يمرّ في الحي، يلجأن إلى أساليب تودد عديدة للتقرب منه وطلب مساعدته بحجة ضعفهم في مادة الرياضيات والفيزياء. يتقربن من والدته مبديات رافة حانية عليها، أسفات لكثرة مشاغلها. يساعدها حين تكون مشغولة بعملها. يقمن بالتسوق لها. ينشرن الغسيل. ينقين الرز. يفصلن ويخيطن ملابسها دون أجر. يعيننها على إنهاء واجبات دروس مدرسة المسائية. يلعبن مع الصغيرة نيدا. يشترين لها حلوى وألعاباً، ويتكثف نشاطهن في أيام تسبق الأعياد والمناسبات. يعملن لها معجنات وحلويات.

يساعدها على اختيار ملابس العيد، تنظيف سقف الصالة والغرف بسعفة نخيل، غسل الستائر وشراء ما يتطلبه الموسم من حاجيات كحلاوة، متبلات، شموع وحنّة. يقمن بأكثر من تلك الأعمال من أجل أن يحظين برضاها وبنظرة خاطفة إلى هشام حين يكون في الدار. يتعلنان بحجج واهية لدخول غرفته وترتيبها. يتلمّسن كل شيء فيها. يتشممن رائحة عرقه في ملابسه. يقبلنها ويسكين دموع لوعة. أحياناً، يكتفين بالتحديق في صورة معلقة على الحائط له بملابس التخرج. يغمضن عيونهم لتبقى ملامحه راسخة في عيونهن. يجعلانه فارس أحلامهن ساعة خلودهن إلى النوم مع أغنية (بحلم ببيك انا بحلم ببيك).

لا يفوت فارس فرصة تكالب البنات على أخيه هشام من أجل كسب نقود من كل فتاة مغرمة تودّ نقل رسائل إلى أخيه. يحدّد مبلغاً محدداً عن نقل رسالة خطيّة، وسعراً آخر لو كان معها هدية، أما السعر الأعلى فهو للرسالة الشفاهية لصعوبة حفظها وبذل جهود في تقليد أصوات نسائية وحركات تمثيلية، رغم أنه لا يقوم بإيصال أي شيء خشية غضب أخيه وعقابه.

يدرك هشام جيداً مقدار ضعف صديقه عاشق الكرة أمام النساء والطعام. يحسده ستّار، صاحب مفهوم الانشراح في الطعام والنكاح، على مساحة ملعب عاشقائه ومناوراتهم في كسب ود الجمهور النسوي، عندما يرى في غرفة صديقه أطباقاً مليئة بأنواع لذيذة من معجنات وحلويات تصنعها فتيات مغرمات. يخبزنها على شكل حرف هاء، أول حرف من اسم صديقه:

- هشام، الكرة مالتك مچنّصة، لو آني منك أختار أطيب صحن حلويات وأتجه إلى المرمى بدون مناورات.

- داخل مطعم لو ملعب؟

- الله ربك، كل الحلوات يحبّك، ما عليك غير تدخل للهدف برجليك. أويلي عليك ستوري، ما محصل لا كورنر ولا ضربة ترجيحية ولا ضربة جزاء، ولا حتى نظرة ولا خبز عبّاس. ما أفتهم، انت شتريد من المرأة المنتظرة؟

يرجع هشام جذعه إلى الخلف متكئاً على ظهر الكرسي، يشبك يديه خلف رأسه، يفكر بصوت عال قائلاً أنه يحلم بمواصفات خاصة لفتاة أحلامه. يريد أن تكون الساقى، الكأس، المدام، النديم. بحضورها تحضر كل الأشياء، المباحة والممنوعة، المتألقة والمدهشة، وكل ما يلزم في الكون، يتوهج روضه مزهراً معها، يورق في أفيائه عمره، يضيف وجودها إلى جانبه كلمات جديدة على قاموس العشق، يزيد من كثافة ندى معطر على اخضرار حياته. يبغيتها تعرف ما بداخله، ما يخفيه وما يفكر به. تباغته لما تتملكه فكرة لتقولها قبله، تقرأ معه، تناقشه ببراعة وفطنة. يعلن اتحادهم معها روحياً لتكون معادله الموضوعي. فتاة أحلامه وأيامه لأولوة فاتنة، مضاءة بشمس حب ومعرفة ونباهة ورقّة، رمزاً لتناسق ماهر بين روح وجسد، و..

يقاطعه ستار:

- كافي، انتهى اللعب وخلصت المباراة. وصلت، طالبك عندي.

يسأله هشام بفضول عن من باله.

- أم ستار، بطة التصنيفات النهائية.

ينتفض هشام في مقعده:

- أمك؟

يفسر له أسباب الاختيار، مبتدأً بتطابق اسم امه- ليلوة- مع مواصفات امرأة يريد لها أن تكون لؤلؤة، كما أن أمه أكثر النساء دراية بما يدور في البال وأفضل من يقرأ الأفكار، فعندما يأتي إلى البيت بمعدة خاوية، تسأله إن كان جائعاً، كأنها تقرأ ما يدور في ذهنه ساعتها، ولها عادة في خوض النقاشات المتواصلة حتى إعلان الحكم لخسارة الفريق المقابل بدون أهداف، تناقشه بالتحديد في مجال الاقتصاد ومصروف البيت، أين يذهب براتبه الذي يخلص بعد منتصف الشهر. ولا ينسى أن يزيد بأن والدته تتحلى أيضاً بثقافة لا بأس بها، فهي لا تتأخر ولا تغيب عن دروس محو الأمية المسائية، "بعد شتريد؟ أحسن مباراة وأحسن نتيجة؟ إلعب على المرتدات أحسن".

يضحك هشام طويلاً ليعود إلى جدّه قائلاً بأنه سيأخذ رأي أم هشام. ينفذ صديقه ما علق بيده من فتات كعك وكليجة في الصحن، خوفاً من تصديق أم هشام لمزحه. "أفضّل الانسحاب من الملعب قبل ما تتحول المباراة من ودية إلى قتالية، أصلاً أبويه من يوم شاف أمي ليلة الدخلة اعتزل اللعب والحياة كلها، صار عنده مرض القلب ومات بسبب الصدمة".

يصل حديث ستار مع هشام إلى أسماع أم هشام، تخمّن بأن حديثه ينطوي عن رغبة بي. يخبرها ستار بضرورة إطلاق الصافرة وإعطاء إشارة البدء للمباراة وتهيئة أرض الملعب باختيار اللاعبين واللاعبات مع خطط التحكيم.

تنتظر أم هشام موعد مع ابنها منذ يوم تخرجه من الجامعة. تتحرك على جبهتين، أولهما عمل جرد لعوائل لديها فتيات على ذوقها، وثانيهما ترغيبه بالعروس التي تختارها. تزور عوائل معروفة. تراقب مواصفات بناتها من شكل،

مظهر، أخلاق، أدب وتهذيب. تبدأ باختبارات النظافة أولاً، تدخل حذائها تحت أطراف السجادة، تتظاهر بالبحث عنه لرؤية نظافة غير ظاهرة. تتوه في البيت عند رجوعها من دورة المياه لتتفحص بدربها نظافة باقي الغرف، وبعد اختبار النظافة، تخضع الفتاة إلى اختبار ست البيت. تتأكد من صغار البيت عمن يقوم بأعمال المنزل؟ من يطبخ؟ من يخيّط لهم الفساتين؟ في المرحلة النهائية، تطلب من أم الفتاة صورة لإبنتها قائلة، ان الزواج قسمة ونصيب تحسباً لرفض هشام للفتاة.

تعرض جهودها على ابنها مع التعليق على كل صورة. يبين هشام عيوب كل واحدة. أنف وذقن هذه يقربانها من صبي المقهى جودي الأقجم، فم الأخرى يذكره بفم اسماعيل ياسين، الثالثة تشبه صديقه لافي، أما الأخيرة فهي مثل ستار صديقه بكثافة حاجبيها المعقودين وعينيها الجاحظتين. تستكين والدته بورع: "يا إبني، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم"، يجيبها بمنطقها: "وإذا وقعت الواقعة، سيعلم الذين خطبوا أي منقلب ينقلبون".

تندesh والدته ذات يوم، حينما يخبرها بأنه يريد رؤية ولقاء الفتاة خولة. لم يردد شروطه التعجيزية المعتادة، رغم ان الفتاة، كما تزعم، عادية الجمال وعتبة باب أهلها مليئة بالقاذورات، "يا ساهية يا فاهية، جدرج فاح ورجلج علنسوان داح". لكن هذا ليس وقت ذكر عيوب يا أم هشام، ها هو سحر طويل يبطل عنه، أهم ما في الأمر أنه سيستقر وتهداً فورة شباب بداخله. تشعر والدته بعدم ارتياح. تقوم بالتلميح إلى عيوبها بتعليقات مبطنّة؛ تسهو عن لحم المرق فيحترق على النار، تعبّر عن امتعاضها بشتى الطرق، توبّخ القط عنتر، تصرخ على الكلب سيمو، تدعو إلى الله أن يبعث لفارس

امراً تريه نجوم الظهر، تغضب وتنتقد من مجيد ابن الحجي
عندما يحين موعد زواجه من فردوس.

على عكس ما كانت تقرأ عنه من حب في روايات
رومانسية، ما تراه من أفلام، ما تسمعه من أغاني عاطفية، يأتي
لقاء فردوس بمجيد عن طريق الصدفة. لا يمكن لها ان تحددني
وتختارني كما تشاء وبحريّة، تجد مهمة إقناع أمها بتشذيب
حاجبيها أو شراء حذاء بكعب عالٍ، عملية صعبة، فكيف
بمقدورها أن تحب وتنتقي فارس أحلامها في مدينة يحكمها
شارب رجولي كثيف، يقف عليه صقر تقاليد وسلاسل عادات
تلتف حول النساء؟ ما كان لها سوى أن تحلم وتتخيل. لا تجد ما
تصبو إليه في شباب من أقاربها، لا يشدّها إليهم شعور لذيذ
كاحساسها تجاه أبطال روايات غرامية تقرأها، تظل تحلم
بسحر أبطال حارقي قلوب عذارى وكبود فانتات، وتهيم
بكلمات الغزل، بنظرات تائهة هائمة لهم، مهمومة بسبب
وبدونه، امتثالاً وولاءً لشروط يفرضها الحب كتوهان، همّ،
حسرات، ألم، نفث دخان سجائر عاليًا، رمي أعقابها أرضاً بلا
مبالاة.

يتقدم لخطبتها المعلم لافي صديق هشام، ترفضه. لم تجد
سبباً واحداً يجعلها توافق على الارتباط بشخص نزع عصبي
المزاج، أفكاره قومية ولثته غامقة من كثرة التدخين. رجل
يشبه الطاووس إلا بجماله ويقرب من المقص، نظراً لطول
جزئه الأسفل وصغر الجزء الأعلى من جسمه. غير أنها
تصارح هشام بالسبب الحقيقي للرفض، لا يعجبها انحدار لافي
الريفي، وتفضّل عليه رجلاً من المدينة، يتحدث بلهجتها ويفكر
مثلها ولا يرى ارتدائها العباءة موجباً، غير أن أخاها يعترض
على سبب الفارق المحلي والطبقي ولا يعتبره عائقاً بين بني

البشر. يعيب على أخته تفكيرها بعقد ونزعات محلية طبقية قومية عنصرية كمعظم أهل البلد، ذاكراً جملة من وجهات النظر غير المقبولة إنسانياً، كنظرة ساكني العاصمة الدونية إلى سكان ألوية ومحافظات، ونظرة هؤلاء الإستعلائية لسكان قرى وأرياف، مثلهم مثل أصحاب قصور أثرياء لأصحاب صرائف فقراء، موظفين كبار لعمال وموظفين صغار، مسلمين لآثوريين، زاعمين انهم، "أنجاس، لا يصلح تناول طعام في بيوتهم". لأرمن وتلكيف، "يبيعون منكر وينظفون مجاري".. لأقليات كردية وتركمانية، "ما يعرفون عربي"، يتندرون عليهم بروح دعابة سمجة. لكن رغم لائحة حقوق إنسان يسردها هشام، فان فردوس، لا تقتنع بملاحظاته بشأن لافي، تبقى في إطار رؤيتها الخاصة للشخصية العراقية بتناقضاتها وتنوعاتها.

ذات يوم، بينما كانت فردوس تهتمّ بتعديل عباؤها فوق رأسها وهي في طريقها إلى بيت صديقتها راجحة، تسقط من يدها مجلة حواء. لم تنتبه إليه حين يناولها المجلة بعد أن يسبقها في التقاطها من الأرض. تلقى عليه نظرة خاطفة مرتبكة، تحسّ ان كل الناس تنظر إليها وصوت أم هشام يرّن في اذنيها: "ديري بالچ، السمعة أهم شي للبنية". تحت خطاها من دون ان تشكره. لم يبق في بالها منه سوى شبح ابتسامة وبدلة عسكرية يعلو كتفيها نجمتين لامعتين. تعرف تالياً أنه كان يتتبعها منذ زمن، يختبر سلوكها وأخلاقها قبل ان يرسل أهلها لخطبتها. في ذلك اليوم تأمرها والدتها بالبقاء في غرفة النوم وألاً تخرج إلى الضيوف حتى تنادي عليها. تسمعها تمتدح صفات لها، عقل، جمال، عفة، إلمام بطبخ وشغل بيت، مستقبل مضمون في سلك التعليم، وعندها أولاد أعمام راغبين بالارتباط بها وعليها استشارتهم قبل أي شيء، بل وهناك ثلاثة أشخاص آخرون

طلبوا يدها في انتظار جواب. تعود النساء مرة ثانية بمعية زوجات موظفين ومعلمات من زبونات دائمات. يحضر الرجال، بعض منهم ببدلات رسمية عسكرية بصحبة بعض الوجهاء، من بينهم مختار الحي وتاجر الأقمشة والصيدلاني. تبعث أم هشام فارس بين الفينة والأخرى، ليستمع إلى أحاديثهم وينقل مايقولونه، ولتتأكد في الوقت نفسه من قيافة السيد عبد الهادي وعدم تخلصه من ربطة عنق تضايقه وطقم بدلاته. تفرض أم العروسة شروطا ثقيلة للمهر لكنها تضطر للتنازل عنها بسبب ضغوط أخيها وزوجها. تنقلب سحنتها لسفر ابنتها إلى شمال البلاد في شهر العسل، يزيد من حزنها سوء حال حسّان معي.

تعجب به فتيات حي يقضين الليل ساهرات مع أغنية (أسمر يا أسمراني). له قصص حب شهيرة يتفاخر بها أمام أصدقائه بطريقة تمثيلية، ورغم وسامة وألقاب يشتهر بها في المدينة، كالأسمر الجميل، جيمس دين، أبو عيون جريئة وغيرها، لا يهيم بفتاة كما هام بها.

يقابلها في رواق الجامعة، مفعمة بملاحة يانعة تليق بالهة سومرية. هيفاء، ممشوقة القوام، ذات عينين عسليتين تحيران النحل في تحليقه صوبهما أو صوب الورد. لا يوجد شيء حي في الوجود زاهر الابتسام مثل وجه يرفع مستوى بهجة أرواح ويدersh كل ناظر، خطواتها مثل رشّات عطر زهر، تحوّل اللحظات من عاديتها إلى عجائبيتها في برهان ساطع على مقولة الفناء في الجمال. يسأل عنها، يخبرونه أن اسمها هيف، يصير من يومها "كَلَفْ بغزال ذي هَيْفٍ". يجتهد في لفت انتباهها بشتى الوسائل. يقف تحت شمس صيف، تحت مطر شتاء، في انتظار طلّتها. يكتب لها أحلى كلمات وله وجوى

على بتلات ورد ليست بجمالها. يتشاجر مع كل من يتودد إليها أو يتقرب منها. ينسى في غمرة تفكيره بها يوماً إذا حلّ، وصحواً إذا ما حلم بها. يقلّ تركيزه وينسى تناول طعامه فيطلق شعر رأسه وذقنه لا مجارة لموضة، بل لغفلة وتوهان في محراب غرامها. كيف يكون لديه وقت لأناقة ووقته مكرّس لا لشيء سوى للتفكير بها؟ يصير كدرويش في المولد النبوي أو كشحاذ مجنون يغني: (من أول يوم راح مني النوم). يظل بهذه الحال حتى تتجاوب معه ست الحسن ومليكة الجمال فتبادلته حباً ووصالاً. تصل أخبارهما إلى زملاء فيطلقون عليهما ألقاباً لعشاق خالدين، يختارون لهما اسمي روميو وجوليت. يبقيان متلازمين في كل الأوقات لا يفترقان. يفوح ضوع حبهما خارج جدران الجامعة. يأتي شباب وشابات من معاهد وجامعات أخرى يتباركون بشذا عشقهما. يشي مغرضون نبأ عشقها إلى أخيها. يحذّرها، يوبخها، يهددها، يمارس عليها عنفه الذكوري. يشهد الجميع كدمات عنف وقسوة على خدود السوسن. يشتكي أخوها إلى عمادة الجامعة. يفصلون حسّان لسوء سمعته وسلوكه. يحتج الطلبة. يهتاجون. يبعثون رسائل وعرائض إستنكار والامتناع عن حضور المحاضرات للدراسة إلى كل الأساتذة. يعتصم بعضهم بحضور طلاب من جامعات أخرى احتجاجاً على القرار المجحف، يرفعون لافتات مخطوطاً عليها بأوراق الورد: "حسّان لهيف، وهيف لحسان.. يحيا الحب". يلقي يساريون منهم خطاباً، مبيّنين فيها بأن ما تقوم به إدارة الجامعة ما هو إلا انتهاك لحقوق الإنسان وتعدّ على الحريات الشخصية. يستغلون المناسبة بتوزيع منشائر تؤيد قضية حسّان وهيف وتدعو في الوقت نفسه للانضمام إلى صفوف اتحاد الطلبة. يوزعون حلوى ملفوف عليها أوراق، يرسمون فيها قلباً ينضح دمعاً

ودمأً وكتابة "ناضلوا بكل قواكم، ضد القرار التعسفي القاضي بفصل الزميل حسان وإبعاده عن يحب، وتبرعوا إلى الاتحاد العام لطلبة العراق المجيد". يبعث فارس من كليته العسكرية قصيدة يطلب قراءتها في الإعتصام، منوهاً بأنه كتبها على عجل نظراً لخطورة الوضع وسخونة الموقف: لا عليك أخي حسان/ إملأ قلبك بالإيمان/ فالحب أقوى من الطغيان/ ليسقط العميد الجبان/ وأخوها ذاك الحيوان/ وكل من مزق الأوطان/ ففي نهاية الأزمان/ ينتصر العشق والإنسان.

يلبس مجيد زوج فردوس بدلة عسكرية تعلوها نجمتان، يحرص على تلميعهما بشكل مبالغ فيه، رغم تحرقه شوقاً إلى ترفيع متأخر مأمول يطول انتظاره. يتدخل في قضية حسان عارفاً، "أني عرفت من الأول. توقعت توصل الأمور إلى هذا الحد. لكن خلص، جاوز الظالمون المدى وبلغ السيل الزبي، وصار موقف أخو البنية كجلمود صخر حطه السيل من علي".

لم تفهم أم هشام كلماته لكنها تؤيد ما يقوله بقوة لأول مرة في حياتها حين ترى حماسه وعزمه. يمرّ بسيارته على جماعة لابسين بدلات عسكرية بنجوم ذهبية، يذهبون لمقابلة أخ متعنت لهيف. بالصدفة يتضح أنه ضابط يخدم مع ملازم مجيد في موقع عسكري واحد، وبعد تصالح وطبّطبات على الأكتاف وتبسيط أمور عقدية تتعلق بحالة حسان المادية وتصرفات شائنة غير مقبولة له تؤثر على سمعة الفتاة وأهلها، كملاحقتها إلى كل مكان تذهب إليه حتى باب دارها. يتعهد مجيد مع الرتل العسكري على ردع تصرفات صبيانية لأخ زوجته ومطالبتة بالابتعاد عن الفتاة المصونة. يوافق الأخ على قطع وعد لهم بموافقة على الخطوبة. أمر يحدث في الأفلام ولا يشبه ما حدث لي مع فارس.

ذات صباح، ينزل فارس من سطح الدار، "صباح الخير"، يفاجئه صوت غريب يصدر منه. يكرر تحية الصباح بنفس نبرات الصوت الغليظ. يلتفت الجميع صوبة بدهشة، بيتسمون، "صباح النور". تختبئ نيدابا خلف ظهر أمها خائفة. يناديه هشام إلى غرفته، يناوله مرآة يرى من خلالها بوارد بثور على وجنتيه وجبينه وزغب فوق ذقنه. يوصيه بعدم ققع دمامل وجهه في المرأة، ويعلمه طريقة حلاقته وكيفية الاهتمام بنظافته وتصرفاته:

- تعرف أبو الفوارس؟ هسه انت صرت جبير وبعير، كافي شقاوات بعد.

منذ ذلك اليوم، تتغير تصرفاته، يميل إلى اهتمامات أخرى غير تدريب الكلب سيمو على سرقة كرات الأولاد ودفنها في الحديقة، أو مضايقة زبونات لا يعطينه البخشيش بالإيعاز إلى الكلب لإصدار صوت ممهد لهجوم. يتخلى عن عادات غريبة أخرى، كدق أجراس الدور والهرب في ساعات الظهيرة، وقطع خيوط الطائرات الورقية لأصحابه، وربط نفسه بسرير أو قفل باب الغرفة على نفسه ورمي المفتاح من تحتها حين مراجعة اجبارية لدروسه. ينزع إلى سماع أغان عاطفية، إلى قراءة أشعار غزلية، إلى مطالعة روايات غرامية، يكتفي بقراءة صفحاتها الأولى ثم ينتقل غير صابر إلى الصفحة الأخيرة لمعرفة نهايات قصص يلف ويدور فيها الراوي حتى يصل إلى الخاتمة. يلجأ أحياناً إلى تصفح ملخصات روايات من دفترى هشام أو فردوس ويتحدث عنها أمام اصدقائه كأنه قرأها.

تظل علاقاته العاطفية هامشية وغير جادة حتى يوم يوصل نيدابا إلى بيوت الطالبات الجامعيات للسنة الاولى ويلتقي

بسعاد. للوهلة الأولى، يجذبه في الفتاة شعر رأس طويل أسود يصل إلى نهاية تنورة قصيرة، وعينان واسعتان كستنائيتان تصيبان أبو الفوارس بسهميهما. يسأل أخته عن أقصر سبيل إلى قلب صديقتها، "بصدق مشاعر ونزاهة أحاسيس، بعذوبة كلام وتهذيب، بترفع ساعة اقتراب وحنوّ ولهفة ساعة ابتعاد. بكل شي جميل إلّا شعر من نظمك".

يفاجئ الجميع بحضوره إلى بيت فردوس، يوم تدعو سعاد للتعرف عليها عن كثب، يباغتهم بإلقائه قصيدة ليست من نظمه كما وعدهم، يبدأها: "بانث سعاد فقلبي اليوم متبول"، مشدداً على الكلمة الأخيرة من الشطر الأول، يدرك متأخراً أنها تعطي معنى آخر غير معناها الأصلي، تأتي النتيجة مخيبة للآمال، تضحك فردوس، تخجل الفتاة، يتململ كعب بن زهير في قبره كما يتندر هشام. ولإيمانه بأن الفرصة لا تأتي إلا مرة واحدة وبأنه لا وجود لمساحات حيرة وتردد في جغرافيا تفكيره، يقرر أن يطلب يد الفتاة. تصبح سعاد زوجته بعد شهرين من لقائه الأول بها، ولم يبقَ ما يقلق ذهن أم هشام غير نيدابا الصغيرة.

بقلق بالغ، تحسّ نيدابا بعدم ترحيب أمها يوم بلوغها ومجيء الطمث. تتأفف أم هشام وتكتتم على الأمر كأن غماً وهماً نزلاً عليها أو ان جريمة على وشك الوقوع وان ابنتها المتهمه الوحيدة فيها. تخفي الفتاة مظاهر أنوثه بارزة عنها كي لا تضايق والدتها، تشدّ قطعة قماش بقوة على نهدين نافرين. ترفض اهتمامات جديدة تملئها عليها طبيعتها الانثوية. تحاول إظهار براءة طفولتها كلما تسنح لها فرصة. تبذل جهداً بالغاً لنفي تهمة تحولها إلى امرأة تهيء الطبيعة لها وظيفة غريزية مطلوبة.

لم تكن لها تجربة جدية حتى يوم تنتبه فيه إلى عيني
ترقبانها في الباص. تستقيم في مقعدها وينتابها احساس جديد.
تكبر الفتاة الصغيرة اليوم. يصير لها ظل على الأرض ويهتم
بها أحد الذكور. يتبعها شاب طويل في طريقها إلى المدرسة.
يتكرر فعل الملاحقة الصامتة كل يوم بنفس الصورة. ملامح
جارها الشاب تشبه صورة معلقة في خزانها لمطرب روك
شهير؛ شخصية رزينة واثقة تنم عن طبع هادئ رصين. تتأخر
يوماً عن زمن الدرس الأول، تراه جالساً ينتظرها في مقهى
قريب من المدرسة. يلحق بها غير مكترث بنداء صباغ أحمية
لمع فردة حذاء واحدة دون أخرى مغمورة بطين. لم يتحادثا
مع بعضهما أو يلتقيا. اكتفيا بنظرات وبأحاسيس داخلية مريحة.

مع صبايا بعمر يافع من قريبات وصديقات، تتمشى نிடابا
في شوارع المدينة. يأتي شبان من الجوار وآخرون من مناطق
بعيدة على دراجاتهم حائمين حولهن. ينتابهن فرح داخلي
ومحاولات خفية لمعرفة عدد المعجبين وأكثرهم وسامة.
يرسمن على وجوههن صفة امتعاض ونفور من تصرفات
مراهقين طائشين حين يجروا أحدهم على رمي رسالة أو
وردة. يقمن بحركات عصبية ساخطة كهز رؤوس أو تقطيب
ما بين حواجب ويسرعن في الذهاب إلى الدار والاختباء في
السطح لمراقبة من بقي، في الخفاء. تسمع أم هشام قهقهات
وكركرات فرحة، تخدمها بصيحات رادعة وطلب بمساعدتها
من أجل إعداد وجبة العشاء والكف عن تضييع وقت ثمين في
مياعة واستهتار.

ليس ثمة شيء أسوأ من أن تتغافل فتاة غضة عن طبيعتها
الأنثوية منشغلة بأمور أخرى عامة تحسبها أكثر جدوى،
كتنظيمات طلابية وشبابية ونسوية، تدعو إلى حب الجماعة

وإلغاء دور الفرد. لم تعرفني نيدايا وتشعر بأهميتي حتى تلتقي
بمخلد في الجامعة بعد زمن.

* * *

زمن

يدوّن الناس بي تفصيلات حياتهم، يسجلون أعياد ميلاد، تواريخ وفاة، أحداثاً هامة تمرّ بهم. يفسرني علماء بأي خاصية من خصائص الكون وجدوني بعد الانفجار العظيم، إحساس، حيّز، تقدم غير محدود للوجود وللأحداث في الماضي، الحاضر، المستقبل. ثمة تعريفات وإصطلاحات أخرى؛ رياضية، فيزيائية، منطقية، فلسفية، غالباً ما تستغرق في حقيقة الوجود. يطلق عليّ البشر أسماء مثل الحياة، الدنيا، الدهر، الوقت لعدم كفاية الاتجاه اللغوي في تعريفي. يحددون سرعة مروري عليهم بأعمار الأطفال ضاربين يداً بيد، قائلين، ما أسرع ما يمضي الوقت! "أيّاه، شوف الزمن شلون يطير بسرعة، ذاك اليوم چانو صغار، شبسرعه كبرو". لكنهم حينما يضجرون، يشتكون من مسيرة بطيئة لي مثل سلحفاة. لا أدري هل عليّ أن أتوقف عن سرعتي أم أسرع الخطى؟ قد أبدو بطيئاً لمن ينتظر، طويلاً لمن يتألم، سريعاً لمن يبتهج.

تحيّر أفاعيلي بني البشر ومضيي بهم إلى نهايات محتومة من موت وتشعب دروب، ما من معركة يربحونها معي. يتهمونني برميهم بالأرزاء في أقوالهم وأغانيهم: (شكواك ما تنسمع، لا تشتكلي للناس، شيمة زمانك غدر، مايبه رحم واحساس، لا تتحني للزمن، خليك عالي الراس). عادة، لا أمتاز ببساطة طوال فترة مرورهم بي أو مروري بهم، إذ لا

أكون لئناً ومنصفاً في أغلب أوقاتي كما هو ظاهر في أشعار بعضهم: "صبرت على الزمان وحقده، وشاب لي السم الزعاف بشهده". لكن ينبغي ان يعرفوا بأن لا ذنب لي في شقائهم: "نعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا، ونهجو ذا الزمان بغير ذنب ولو نطق الزمان هجاناً". أحمل للسيدة أم هشام في أحشائي أوقاتاً متعبة وصعبة على نحو استثنائي، تشكو مني، تتبرم على الدوام من ديمومة هم وكثافة شجن.

ذات مساء، تطلع أم هشام إلى سطح الدار، تتطلع نحو غروب يغتصب شمساً مستسلمة، مخلفة وراءها على السور، خيوطاً من جراح حمراء قاتمة وأنفاساً حارة على الأرض. تدخن السيدة سيجارتها في ركن هادئ. يزيد من أساها هديل حمامة على نخلة الدار، متناغما مع أسى يعتمل في صدرها. يصدح راديو الجيران (أيا جارتا لو تشعرين بحالي).

تعاين السيدة أسرة فارغة مركونة على أرض السطح؛ سرير فردوس، تغادره إلى بيت زوجها، هشام، لا يهجع في البيت هذه الأيام، حسن، يدرس الفن في العاصمة، فارس يتعلم الانضباط في الكلية العسكرية بعيداً عن البيت. لم يبق سوى ثلاثة أسرة، لها ولعبد الهادي ولنيدابا. يصير البيت موحشاً بعد حالات صخب وامتلاء شهدها، حياة، كانت ضاجة بمماحكات فردوس وهشام، مضايقات فارس لأخته، مشاحنات حسان مع فارس، نباح كلب ومواء قط الدار. تتمنى بحسرة رجوعي إلى الورا وتوقفي عند نقطة يظل أولادها كما كانوا عليه من عمر، يحتاجونها فيه ولا يكبرون، (أنا من اگولن آه وأتذكر أيامي).

في ماضٍ من أجزائي، يقرر حسن الهروب على ظهر باخرة إلى دول بعيدة. يبعث رسالة يقرن فيها عودته بقبول

دراسته لفن التمثيل. يجلبه هشام من ميناء في جنوب البلاد بلحية كثّة وشعر طويل وملابس رثّة. لا يعرفه أي من في الحي. يلتفتّ حوله أطفال المحلّة مندهشين مذهولين. يجيء الجيران من كل مكان مهنيين مباركين عودته. تتباين آراء لهم بين مؤيدة لمطلبه في دراسة التمثيل، وبين معارضة يرفض أصحابها زيارته حتى يخلق لحيته وشعره الطويل. يحرّضون أهله على عدم الرضوخ لتهديداته لأن الجوع والقمل علّماه قيمة ما يملك، وقذارة حملها معه من بواخر بعيدة وغريبة، لقنته درساً لن ينساه في أهمية سماع كلام الكبار والانصياع إلى سليم ما يروونه. يسهب هؤلاء بالكلام عن تعب وربّي وصرف المبالغ حتى يبلغ الأولاد عمر طيش ليطمردوا عليهم، ناسين أفضال وشقاء أولياء أمور كبار، غير ان أصحاب كلا الرأيين ظلاً يتطلعان إلى تفاصيل حكايات يرويها حسّان عن بلدان الغرب العجيبة وعن ناسها، أخبار نساها على وجه الخصوص. يلبثون سائلين أسئلة غير مباشرة عن الموضوع الساحر، لا تشفي أجوبته فضولهم، حتى يتجرأ أحدهم ويسأله بشكل مباشر عن مدى صحة ما سمع حول إلقاء الشقروات بانفسهن على كل رجل أسمر يأتي من الشرق. يهزّ هشام رأسه مستسخفاً أفكاراً لهم لا ترى في الحضارة الغربية سوى الاباحية والجنس. يراوهم حسّان بخبث وبدلاً من أن يشفي غليلهم، يعلمهم طريقة عمل طبق مكرونة ايطالي، ومن وقت لآخر، يقحم في كلامه مصطلحات أجنبية عمداً، محاولاً بمشقة مفتعلة، استذكار مرادفات لها باللغة العربية، "چاو بيللا"، "گراتسيا". يدرك السائلون بأنه يخجل من التحدث في حضور هشام وأبيه، فلا يرون جدوى من بقائهم في بيت أبي هشام، يغادرونه أملين الاختلاء بحسّان وقتاً آخر ليعرفوا منه حكايا يودّون سماعها عن مغامرات قام بها مع نساء المدن البعيدة

المغريات.

لَمَّا تَسْتَرْجِعُ السَّيِّدَةَ أُمَ هِشَامٍ فِي بَالِهَا عَقُوقَ أَوْلَادِهَا، تَعْتَبُ عَلَيَّ وَعَلَى حَظِّهَا، "أَمْدَاهُ لِلوَكْتِ، الزَّيْنُ وَيَّ الرَّدِيِّ عَادِلُهُ".

يَخْدَعُهَا ابْنُهَا الْكَبِيرُ بِحُلُوكَلِمَاتِ: "أُمَ هِشَامٍ، قُدَّسَ عَمَلُهَا وَوَقُوفُهَا عَلَى قَدَمِهَا لِسَاعَاتٍ، وَشَرَّفَ وَبُجِّلَ جَدُّهَا وَمُثَابَرَتُهَا".

تَتَحَسَّرُ، "كَلَامُ مَا شَفَعْنَا مِنْهُ شَيْءٍ، أَعْبَى عِبَائِي مِنْهَا الْحَجِيِّ". يَجْرَحُهَا حَسَانٌ قَائِلًا بِأَنَّهُ سَيُعْطِيهَا لَاحِقًا ثَمَنَ حَلِيبِ أَرْضَعْتَهُ لَهُ وَيَدَّعِي بِأَنَّ الْأُمُومَةَ غَرِيزَةُ مَوْجُودَةٍ حَتَّى عِنْدَ الْحَيَوَانَاتِ وَلَيْسَ فَقَطْ عِنْدَ الْبَشَرِ. تَأْخُذُ نَفْسًا عَمِيقًا مِنْ سِيَّجَارَتِهَا، "غَرِيزَةُ ابْنِ النَّزِيرَةِ، لَيْشَ كُلِّ وَحْدَةٍ تَعْبَتْ وَرَبَّتْ مِثْلَ مَا تَعْبَتْ أَنِي؟". تَتَذَكَّرُ مَشَاقَ مَا تَحْتَمِلُهُ فِي حَيَاتِهَا حَتَّى كَادَ أَنْ يَطْلُعَ لَهَا شَارِبٌ. تَرُوحُ حَاكِيةً شَاكِيةً وَيَتَجَمَّعُ فِي جَعْبَتِهَا مَا يَكْفِي لِمَأْسَاةٍ، "يَا حَيْفَ عَلَى سَهْرِ اللَّيَالِي وَوَكْفَةِ رَجُلِي وَالدَّوَالِي، مِثْلَ الْجَمَلِ، يَأْكُلُ عَاكُولٌ وَيَحْمَلُ ذَهَبٌ، لَوْ عَيَّرَنِي الْمُسْعِدَاتُ، شَوْ رُوسَ وَجَنَاتِجٍ مَكْجِيَّاتٍ، هَضْمٌ وَدَرْدِيَا خَائِيَّاتٍ، غَرِيبَةٌ وَجَارَاتِي غَرَائِبُ، وَمَالِي بِهَالِ الدُّنْيَا حَبَائِبُ، لَيْلَةٌ شَتَا وَابْخَتْ غَائِبُ". تَتَمَنَّى لَوْ يَجْعَلُ الرَّبُّ الْأُمُومَةَ عِنْدَ الْبَشَرِ مِثْلَمَا هِيَ عِنْدَ الْقَطَطِ الَّتِي تَنْسَى صَغَارَهَا حِينَمَا يَكْبُرُونَ وَلَا تَبْقَى مُتَعَلِّقَةً بِهِمْ وَقَلْقَةً عَلَيْهِمْ طَوَالَ الْعَمْرِ. تَدْرِكُ تِلْكَ السَّيِّدَةَ الْيَوْمَ أَنَّ حُبَّ الْأُمِّ الْكَبِيرَ لِلْأَبْنَاءِ لَا يَجْدِي نَفْعًا وَلَا يَنْتِجُ سِوَى عَقُوقٍ وَنُكْرَانٍ جَمِيلٍ، وَأَنَّ الصَّرَامَةَ مَطْلُوبَةٌ لِاحْتِرَامِ ذَاتِ وَلِحِفْظِ كِرَامَةٍ، وَلِإِرْغَامِ الْآخَرِينَ عَلَى الْإِهْتِمَامِ وَعَدَمِ اعْتِبَارِ رِضَا الْمَرْءِ وَسَمَاحَتِهِ وَطَيِّبَتِهِ، مِنْ الْأُمُورِ الْمَضْمُونَةِ لِلصِّيقَةِ بِطَبْعِهِ وَالَّتِي تَمَكَّنُهُمْ مِنْ تَجَاوُزِهِ وَاحْتَوَائِهِ مَهْمَا كَانَ حَجْمُ أَدْوَى وَجُرُوحِ يَسْبُبُونَهَا لَهُ. تَعْتَرِفُ أَنَّهَا أَعْطَتْ الْكَثِيرَ مِنْ نَفْسِهَا لِلْآخَرِينَ، نَسِيتْ ذَاتَهَا وَاحْتِيَاجَاتَهَا، تَلُومُهَا نَفْسُهَا عَلَى إِهْمَالِهَا وَتَطَالِبُهَا، مُتَأَخِّرَةً، بِالْأَخْذِ بِقَدْرِ مَا أُعْطَتْهُ وَتَعْطِيهِ. تَعْجُزُ عَنْ

فعل شيء سوى أن تجلد نفسها بالكلام، تلوم الخالق، "ماكو
درج أصعد وأعاتب رب الكون. لكن كلها من المحبة، إذا أحب
الله مؤمناً ابتلاه. مو كافي ابتلاء وبلاوي؟"

تفرش أم هشام الأسرة الثلاثة، ترش أرض السطح ليبرد.
تعود إلى جلستها على درج يؤدي إلى سطح آخر صغير. تنفث
دخان سيجاة أخرى. تبتلع ريقاً مرّاً من مرارتي. لا ينبغي أن
يلومها أحد لو تباع هذا الدار "المهجوم" وتنتقل إلى بيت آخر،
لم تر يوماً هائناً فيه. تظل تشتغل وتكدّ لسنين عديدة، تجمّل
نساء، تتعب، تشقى، وبالتالي ينفض عنها الجميع. لماذا؟ هل
لأن موضحة تجعيد الشعر توشك أن تنتهي؟ هل منظر النساء
اليوم أجمل، بشعر لا حركة فيه ولا تموج كالصخور؟ حتى
الصغيرة نيدابا تريد أن تملّس شعرها بالمكواة. أهكذا ينسون أم
هشام وحرفتها؟ ينسون مختار الطرف وركن الولاية؟ كم يتغير
الناس؟ يهملون قديمهم، يتهافون على كل ماهو مستورد
وجديد، ينبذون كل أصالة. (هيمة وجحيل الوكت)، "كل شيء
بيه بارد وبلا طعم". تلوم زوجها، "المني ما يصنع أب،
التربية تصنع. آخ، ما عاكني عن الركض غير كصر رداني.
تفو عليك يا زمن".

أعذرها لو تشتمني وتصفني بأني غادر وقاسٍ رغم أنها
تعاملت معي بعبث دون أن ترحم نفسها. أخبريني يا شقيّة، متى
آخر مرّة فكرت فيها بنفسك واحتياجاتك وما تريدينه؟ أفرح
اليوم حينما تعزم على تغيير حياتها بقرارات جذرية كاعتزالها
لمهنتها وانتقالها من بيتها. سادعها ترتاح أخيراً في مكان آخر
دون حسرة وندم. ستكون لك يا أم هشام حديقة كبيرة هناك،
ستبتعدين عن مشاكل بيت أمسى خرباً، تحطمت أبوابه، صدأت
شبابيكه تأكلت حيطانه وبات إصلاحه غير مجد البتة. لم يعد

الوضع كما كان عليه سابقاً، لزم عليك التغيير.

سرعان ما يعرف الجميع بانتقال بيت أم هشام إلى بيت آخر على مشارف المدينة. يستاء عبد الهادي من تغيير الدار ويعارض كعاداته، لكن صوته يأتي ضعيفاً هذه المرة. لم تشتك نيدابا من ابتعاد الدار الجديدة عن مدرستها. لم يكثرث الأولاد الآخرون الذين يأتون أيام الخميس أو في العطلة الصيفية. لم يلق قرار الانتقال أي صدى لدى الآخرين كما هو الحال حين انتقلت الأسرة من الحي القديم إلى الجديد سابقاً. لم تتباين آراء وتظهر آراء معارضة أو مؤيدة. تعتري الجيران والناس عموماً لا مبالاة عجيبة، كما لو أن نكسة تحلّ عليهم تنسيهم كل اهتماماتهم بانفسهم وتبعد فضولهم عن تحركات الآخرين. يمسون غير ناس تلك المدينة الذين كانوا، يتحدثون بياس وبخنوع مؤجلين كل الأشياء إلى يوم آخر، تاركين ومولين أمرهم إلى من هو قادر على معالجتها وعلى درء مخاطرها، لا يفكرون بايجاد حلول لأي أزمة تواجههم، بل يكتفون بالتأقلم معها. يعتادون على ألا يكثرثوا بتحليل الأمور كثيراً أو الإدلاء بدلوهم فيما يجري.

في يوم خريفي كئيب وبصمت من غير ضجيج، تغادر أم هشام بيتها الذي كان جديداً بصحبة ابنتها وزوجها المريض إلى بيت عند مدخل المدينة من جهتها الشمالية، وسط بستان يحتضن النهر نخيله وحديقة واسعة في مقدمة الدار، يزرعها عبد الهادي بأنواع خضر ومشاريع أشجار صغيرة لم ينتظرها حتى تكبر لأنه يرقد في فراشه حتى يوم وفاته.

يحسّ السيد عبد الهادي باختناق وصعوبة غير عادية في تنفسه عقب نوبة برد. يتحول جهد سعال يبذله إلى كماشة ضاغطة على قلبه. ينادي على من في الدار طالباً الاستغاثة.

يخرج صوته على شكل حشرات متقطعة غير مسموعة. يزداد وهناً مع اهتزاز أعطافه وانقطاع أنفاسه. يعلو على صوته صوت يشدو من الراديو: (رايح يا رايح وين يا ويلي يابويه. و بياهي اوصيك يا بويه). تنتشغل نيدابا بمذاكرة دروسها وتتكب أم هشام كعادتها على أفكارها وعلى ماكينة خياطتها. تقوم لما يحين موعد طعام الغداء. تفتت خبزاً في صحن، تسكب عليه مرق اللحم، تضع بجانبه صحن سلاطة وكأس لبن. تتجه صوب غرفة ابي هشام. تشاهد على السرير جسداً متخشباً ووجهاً أزرق خالياً من الحياة.

يحضر الفاتحة أقارب وأصدقاء وبعض الجيران، من بينهم أصدقاء هشام:

- صحيح الأب عزيز وانت صرت يتيم، لكن المرحوم راضع ويه حمورابي وصلاحيته باللعب منتهية قبل عشرين سنة. سامعين بلاعب عمره خمسة وثمانين سنة؟ أبوك الله يرحمه راح يلعب ويّ عزرائيل على النهائي.

- الموت يا صديقي، هو الجذر الأصم للوجود البشري والبرهان النهائي على عبث كل من الناس والكون، أنه العبث الأخير الذي لا يقل عبثاً عن الحياة ذاتها.

يجيء لافي بسيارة فخمة يقودها سائق، يصافح هشام بعجالة، "راح المرحوم يرتاح يم صاحبه هير شمت لو ويه هتلر. أكيد مثواه الجنة لأنه چان لا يحل ولا يربط، ميت من يوم ثورة أبو إذانات".

أمرّ بوحشة على بيت مقفر، تبقى فيه أم هشام ونيدابا لوحديهما. يقدم شتاء مربداً بأعاصير وعواصف تطيح بسياج البيت الخلفي، تدخل عبره كلاب سائبة إلى حديقة الدار ويتسلل

شخص ملثم، تقسم أم هشام أنها رأتَه من شباك المطبخ في إحدى الليالي. تبيت نيدابا قرب سرير أمها ليلتها في محاولة لكسب نوم غير قلق.

يأتي شحاذ الحي القديم بطيات رقبة متضخمة ووجه مستعطف، يتملأها بعينين دامتتين ماداً نحوها يداً عليها وشم أفعى، سرعان ما تقفز إلى شجرة عنب متسلقة نحو سطح الدار. تهرب نيدابا منها فزعة نحو عشة حمام تجد فيها جدة جارتها الخرفة. تطير خفافيش تخيفها خاطفة أمام وجهها بأجنحة كبيرة. تجري مرتعبة. من شباك يطلّ على الشارع في شناسيل الجيران. ترمي جارة مشلولة نحوها ضفیرتها في دعوة لتسلقها. تتردد نيدابا. تنظر إليها ملياً. ترى ابتسامة مخيفة للمرأة تكشف عن أنياب كبيرة تنزّ دماً. تنزلق رجلها فجأة داخل حفرة كبيرة في خرابة مهجورة. تحاول النهوض والهرب، تبصر بقربها سمحة اليهودية، صديقة والدتها، تمد ذراعين طويلتين متخشبين لها. تحضنها مطبطة على كتفها: (بذلك يوم بدالك نانا.. الحغمي قيعد بالنيني، نايم موشيم وحييم، طلعت سمحة تصيحّ تعالو، تعالو هانا. الحغمي قيعد بالنيني).. تتخلص من ذراعيها بصعوبة، تدخل في سرداب بيت جدّها، ترى اللص الذي حكّت والدتها عنه يأخذ هيئة حيوان ضخّم له فكّ مفترس. يخطو نحوها. تهرب منه. أمي، أمي أمي. ترى أمها منهمكة بتمشيط شعر زبونات ميات. أبي، أبي. تلمح أباهام ممدّداً وسط حديقة الدار، يغطيه رداء أبيض، تتساقط عليه أوراق شجر صفراء وتغمره. يحوم حوله لون خريفي وفراش مشوّش يمتصّه. تنحب نساء متشحات بأردية سوداء دون وجوه. تعجن أم هشام مادة غريبة في أنية كبيرة. تغمر يديها في مادة لزجة تصل إلى كوعها ثم إلى كل جسمها. تتحرك بضراوة حتى لا تبتلعها. مطر ساخن بغزارة،

بلل، عرق يتصبب.

تفزح أم هشام من صراخ ابنتها وتتمتم بدعاء مطمئن فوق
رأسها المحموم، "يافارح الهمّ وياكاشف الغم، فرّج همّي ويسّر
أمري وارحم ضعفي وقلة حيلتي". تمسّد على جبهتها، "يا من
يكفي من كل شيء ولايكفي منه شيء، اكفني ما همّني، اللهم
ادفع عني ما لا أطيق". تزداد حالة نيدا با سوءاً فتقرر والدتها
ترك البيت والمدينة كلها ليرحل إلى العاصمة.

* * *

عاصمة

مدينة مغلقة مغلّفة بحكايات، بطلاسم، بأسحار، بحسرات، بملذّات عشاق وكبود أوجاع. قلعة أسود وضباع، صباية نهر، شوارع عتيقة، نصب شامخة، جوهرة عائمة في أهذاب شعراء، ملاهي، بارات، تأوهات سكارى، موطئ جزمات غريبة ماردة على مدى تاريخ دماء ولعنات، دار سلام وخصام، صابرة دائماً، عاجّة بزحمة، بضوضاء، بوفرة سيارات، بدور كبيرة قديمة وحديثة متناثرة، بناس لا يعرفون بعضهم البعض، لا يكثرثون بمن يسكن حديثاً أو بمن يغادر. تسكن في أطرافي أم هشام ونيدابا مع حسان وتسكن المشاكل معهم.

لم يرتح حسان لقرار نيدابا حول السكن في دور للطالبات، "ليش عيني نيدابا، بيتنا مو بعيد عن الجامعة". تقبّل أخاها مؤكدة حبها له ولزوجته، وأن رغبتها في التركيز على دروسها والاعتماد على نفسها، أسباب تضطرها للسكن بمفردها، تطلب منه مساعدتها في إقناع أم هشام.

تراها ساهمة في غرفتها، تضع على جبينها عصاية سوداء وتدخن وتصوغ مأساة شخصية. تسحب يدها من يد نيدابا: "اسكتي اسكتي، لا ماماتي ولا حبيباتي". يقول عنها حسان: "تشتري ضيكة الخلگ بفلوس". يحلو لها أن تعمل من كل

أزمة دراما. كم تمتلك تلك المرأة من سيرة وجع وتاريخ أحزان؟ وكم يتجذر فيها منجم طيبة لا متناهية وإيثار بالوقت ذاته؟ امرأة خارقة، تجيد إعادة تدوير أحزانها وخلق منكداتها وتشغيل أسطوانة وجعها، أما تبديل أسمها فيثبت عدم جدواه، ستظل في الشقاء دائماً، كما تزعم، حتى تذهب لقبرها "أولي عليج أم هشام، حتى لمن يدفنوچ يلگون بگبرچ عظام". تُعيد قصة زواج غير متكافئ لها وما رآته من عذاب في سكنها مع زوج لا يأبه كيف تعيش ويعيش أولاده، يفكر في متعته بالفراش مع امرأة فحسب. تذكر عملها المضني لسنين طويلة، وقوفها على قدميها لتجمل الكرعة وأم الشعر، استيقاظها فجراً كل يوم، نومها آخر الليل غير مبالية بوجع رجليها وبدوالي تمخر ساقها، تسمي حياتها الماضية أشغالاً شاقّة. تقوم بتربية أولادها الخمس أحسن تربية، ظناً منها انهم سيكافئونها حباً ومودة عند الكبر، لكن ظنها يخيب بعد زواج فردوس التي تنحاز إلى مجيد ابن الحجي ولا تناصر أمها، ليس كما يشير المثل في من تخلف بنتاً، وين درب الصايغ يمسعدات؟ ومع ذلك، فإن أفجع آلامها، ارتباط هشام بامرأة جاهلة "مرقتها ماصخة"، تجبره على الانشغال عنها طول الوقت بالخمر، بأعمال منزلية وتبديل حقّاضات. بات لا يذكر أمه بكلمة أو بهدية، مثله مثل حسن الفنان: "أم البنين، وين ما تمشي تون، منين درب المحكمة يا مسلمين. شفت السعيدة ولحكتها، عبالى تشاركني ابختها، ثاري البخت الها ولختها".

يأتي بعد ذلك دور نيدابا، "بزر الغعدة وبزر الشيب" في الدراما وتصعيد خيبة الآمال، بعد قرارها بالسكن في بيوت الطالبات الجامعية. ما من أحد يستمع إلى شكواها ومعاناتها. مستأجر بيتها يرفض ترك الدار، والسكن بمفردها لا يجوز: "على أبو عيب، منين يعرفون العيب بهذا الزمن؟".

تنتهز نيدابا انشغال أمها بإشعال سيجارة ثانية. تقبّل رأسها. تجثو برجاء عند قدميها. تعرب لها عن حاجتها للاعتماد على نفسها وإلى أجواء خالية من مشاحنات وتوترات لكي تدرس وتنجح. تؤكد على مدى عرفانها بجميلها وما قامت به من تضحيات في زمن لا يتيح للمرأة الجرأة على التفكير. تعدّها بالسكن معاً حين يخرج المستأجر. تداعبها (أنا وانت وبس ولاحد ثالثا). تراها مليحة في غضبها: "يلّهِ يا حلو، لا تشغل البال بأماسي الزمان. شيلي هذي العصبية من راسچ حتى أمشطلج شعرچ. گمر والله، وأحلى گمر. بس لو ما يدخن".

ما ان تقتنع أم هشام على مضض، تجيء أختها فردوس، وتحاول إقناعها بالسكن عندها. تشير إلى أن مجيد قد تنبأ بما وصل إليه الحال.

بعد نقاش، جدال، وعود بزيارات، يرضخ الجميع، يتوقفون عن إلحاحهم، يقتنعون بأنها فتاة عنيدة لا ينفع معها أي شيء، تتقدّ ما في رأسها. ينبغي عليهم البحث عن في العائلة ذلك الذي ورثت عنه هذا العناد والاصرار على خوض تجارب غير مدروسة قليلة المخاطر.

يساهم فارس في إقناع والدته مؤيداً ما تقررته أخته لغرض في نفسه، ويراهن والدته خلسة بأن نيدابا سوف لن تحتمل السكن بعيداً عنها أكثر من شهر وحتماً ستعود. يكتم في باله فكرة وأملاً بأنه حين يزور أخته في الجامعة أو دار الطالبات، يتمكن من رؤية عدد كبير من البنات، عسى أن يجد بينهن فتاة أحلامه. يشجّعه هذا الخاطر على نظم، ما يسميه أبيات شعر:

والله وكبرت نيدورة/ صارت أحلى من الصورة/ تريد تسكن وحدها/ تعيف أمها وأهلها/ خلّوها تجرّب حظها/ يمكن هيّ مسرورة/ ويارب دوماً مستورة.

يتراجع عن إضافة شعرية أخرى، تصلح لتكون تنمة مناسبة وواقعية للقصيدة: وكلّيتها المشهورة/ بالحلوات معمورة/ بلكي وحدة أمّورة/ تعمّر غلبي وقصوره.

تزور نيدابا هشام. يبدو أخوها منشغلاً بمرض حصبة يصيب صغيره وهموم أخرى. تقطع زوجته حديثهما على الدوام. يتأجل الكلام حينما تصعد نيدابا إلى سطح الدار لتتفرج على النجوم والقمر.

حينما تنزل، تسمع هشام يصنّف بلحن أغنية، تراه منشغلاً بتقطيع خيار وخلطه بلبن. يضع صحنه بحرص على طاولة صغيرة إلى جانب كأس خمر وصحن مكسرات. يرفع صوت جهاز تسجيل على لحن يحبه: (آه.. آه من لقانا في أول يوم، ونظرتك ليّ بعنيك). يدعوها، "تعالى حبيبتي نيدا، أكلي أطيب جاجيك".

تتأمله بحب. يرتشف سائلاً أبيض يتبعه بملقعة مازة. يدندن طرباً مع الأغنية وشعور بسعادة يكتنفه. ينأى عن أحلام كبيرة كان حريصاً عليها، تركها خارج حياته وأبواب قناعات. يبتعد عن كتب مؤجلة أو منسية من مكتبة مهملة مغطاة بغبار أيام وأوهام. "أين تطلعاتك وزمن تخضعه لإرادتك يا أخي؟ أين أفكار كنت تتفاخر بها؟ أين هشام القديم؟"

- على لسانج كلام

- لا، بس.....

صرخة مفاجئة تأتي من زوجته خولة، تقطع حديثهما، يهرع هشام إلى المطبخ، يبذل قطعة قماش طالعاً إلى سطح الدار، "أريد أسألك. انت سعيد؟".

يعود بعد برهة، يوجّه اهتمامه وروحه لكأسه، يمسح على

شعرها، "خوش مزّة. مو؟"

يسأل أخته عمّا كانت تريد قوله. تقبلّ جبينه. تتركه مع
كأسه. ترجع إلى العاصمة وتلتحق بجامعتها.

* * *

جامعة

من المعروف اني مكان علم ودراسة، مصدر رُقيّ ونهوض، مؤسسة تعليمية وبناية عالية يأتي إليّ طلاب وطالبات لتلقّي تحصيل عالٍ وشهادات. يقابلني في تلك المدينة، سكن جامعي مخصص للبنين، وآخر، على بعد امتار منه خاص للبنات. تتوسطهما أغنية يرددونها: (ومن القسم للقسم، بوسة هوائيه، دلال أوي دلال، بوسة هوائية عيني دلال).

تحمل نيدابا حقيبتها وتسير وراء مشرفة دار الطالبات. تنهady الموظفة في مشيتها بجسمها الممتلىء وتنورة ضيقة تبرز مؤخرة مرتفعة. تطلق من فمها من فترة لأخرى طقطقات رتيبة متكررة من علكة تلو كها، تتناغم مع طقطقة حزمة مفاتيح مربوطة بحزام عريض أسفل الخصر. تدلّها على غرفتها المشتركة مع ثلاث طالبات.

تلمح نيدابا فتاة سمراء نحيفة ترتب ملابس تخرجها من حقيبة في دولاب مثبت في الحائط. تسلّم على أخريات يشغلن مكانهن في أسرتهن. دهشة ولهفة دخولي لأول مرة، تجمعها معهن وتجعلن يقاومن رغبة في النوم.

تمتد قرب حرمي شوارع عريضة تشغل أرصفتها أشجار يوكالبتوس معمرة، تقابلها بيوت عريضة حدائقها كثيفة وسياجاتها عالية، تخفي وراءها غموضاً وحكايات عتيقة. عند

بوابتي، طلاب جامعيون بزي موحد يتأبطون كتباً. يتجمع بعضهم عند عربة بائع متجول، يعصرون نارنجاً على صحن حمص مسلوق، يتسرب منها بخار ورائحة أليفة. سلّم الدخول، يقود إلى القسم عبر بابي الرئيسي، وأول ما تقع عليه عين الناظر غرفة الاتحاد الوطني ولوحة إعلانات قرب جدارها مكتوب عليها ترحيب بالطلبة الجدد. في ممر يؤدي إلى حديقتي، باحة، أبنية عتيقة، ممرات وقاعات محاضرات كبيرة وصغيرة، مكتبة صغيرة، نادٍ وكافتيريا للطلبة. يحتشد طلاب بين أروقتي متحدثين متضاحكين، تتشاغل عيون شابة بالنظر حولها، باحثة عن علاقات عاطفية لاهية بريئة، ربما تتطور إلى مشاريع ارتباط مستقبلية. يبادر طلاب مراحل متقدمة بمساعدة طالبات السنة الأولى والتعرف عليهن، مستعرضين بثقة تامة درايتهن بأمر كثيرة تقلقهن، يتصرفون كأنهم على معرفة بكل شيء حولهم؛ أقسامي، منافذي، خفاياي، أساتذة وأمزجتهن، المكتبة وكتبها، عمال نادي الطلبة ونوعية شاي مغشوش يقدمونه. يتطوعون بإسداء نصح وتوصيات مجانية، يبيعون أحياناً كتب ومصادر السنة الفائتة إلى طالبات السنة الأولى، بينما يذهب بعضهم إلى توفيرها مجاناً للفتيات الجميلات.

تدوّن نيدا با جدول محاضرات اليوم الأول. تذهب باحثة عن مكان المحاضرة الأولى:

- عفواً..شعبة (ج)؟

تلمحه يذرع القاعة جيئة وذهاباً. يتوقف برهة. يهزّ رأسه بالإيجاب دون كلام مستأنفاً التدخين. تمّدّ له يدها:

- نيدا با عبد الهادي، سنة أولى.

- أهلاً. مَخْلَدٌ حلمي، سنة أولى لكن للمرة الثانية.

بُحّة صوت مهذّبة محبّبة، وسامة وفراغة تبهر رساماً، ملامح حزن تلهم شاعراً عراقياً بكتابة مرثية، شجى كون واسع بفضائه وعوالمه منزو ومتكور في عينين مضيّتين بتألّوات كواكب غامضة. انطباع يخلفه رؤية مَخْلَدٌ في نفس نيدابا. تكتب عنه زميلة لها يوماً، "انه كأرض تجود بنخيل، بسنابل، بمياه، ببشر طيبين، بمحن وفواجع ناس طيبين، وفي الوقت نفسه، لا تخلو من فرح أطفال، من لهفة عشاق وأحلام جميلة بسيطة، من أشياء كثيرة يصعب وصفها، مختلطة متواشجة لا تنتمي سوى إليه". تقول عنه أخرى: "هو صنف من الرجال، تهواه النساء لكونه مترفعاً غامضاً مختلفاً عن آخرين متهافّتين على طيف إمراة. يتخفى وراء متاريس حزن نادر بدروع سحر شخصية مميزة. تتجذب نحوه إمراة تحب فاكّ طلاسمة، تهوى التحدي والمكابدة مثل شجرة تهوى الفأس، تعشق العذاب المختوم بنهاية مأساوية وعلاقة بلا أمل. كلما يبتعد عنها ويزداد غموضاً وعدم اكتراث، كلما تنشد إليه. أما لماذا يحصل ذلك، فهو قضية نفسية انطلاقاً من نظرية -الصيد والفريسة- فالمرأة تحب الرجل لتسعد بالرجل وبالحب ذاته، ويحب الرجل المرأة لأجل أن يُسعد بالحياة".

يعود زميلها إلى خلوته، إلى تدخين سيجارته، إلى مشية هادئة لا تخفي قلقاً داخلياً، غير عابىء بما يجري حوله. تمتلئ قاعة المحاضرات بصخب طلاب وطالبات، بثرثرات وضحكات ثم بصمت عندما يدخل الاستاذ معتلياً المنصة.

لأول محاضرة في حرمي مهابة ووقع ذكرى خاصة عند نيدابا. تظل جالسة بانبهار في الصف الأول على الدوام، لا تغير اهتماماً لطلاب صف جالسين في الخلف من أصحاب

لمخلّد، إلّا حينما يناقشون الاستاذ. تعجب بمواضيع لهم تتلمس مواضع جوهرية حساسة من الحياة، تتحاشاها مناهج ومقررات تخشى مغادرة جمودها وقوالبها. تلتفت نحوهم، تنصت، تفكر، تساهم بصمت، لكنها تخشى إقتراباً من حلقتهم.

يغيظها وقت تقضيه في غرفة الطالبات وهنّ يجددن أدوات زينة على وجوههنّ، يتأكدن من تصفيف شعورهنّ، يدخنّ أحياناً، يثرثرن بكلام عن شرائهن بضاعة جديدة وما استجد في عالم أزياء واكسسوارات، يختلفن بالرأي حول أكثر الطلاب وسامة وأكثر الأساتذة جاذبية. تسير نيدابا وحدها في حديقتي وتختلي مع نفسها على إحدى المصطبات، تصغي إلى ما يتحدث به مخلد وأصدقائه. شباب حالمون في فضاءاتهم، متبرمون من واقعهم، متهمون في جدّهم، متفلسفون في نقدهم، موسوعيون في معرفتهم، مزمنون في وجعهم، يختمون أو يبتدئون حديثهم بحكمة أو شعر أو أغنية، لا ينفك جدل قائم يحلّق بهم في مديات دهشة لا يمكن حصرها، فيهم مس من دهشة منفلة من قارورة زمن عاجّ بأوجاع وفجائع. تجد نفسها على بعد مسافة ضئيلة من دائرة ضوئهم، مأخوذة بشعاع سحرهم، يحول بينها وبينهم حياء متأصل، رغم نبض حياة وتأجج حيوية تتميز بهما، لكن قشرة صمت تغلفها فلا تحسن سوى الانصات. يأتي مخلد، ذات ظهيرة باهرة، فينزعها عنها. يلتفت فجأة نحوها. يتناهى إلى سمعها لحن سماوي، تتجلى أمامها خمائل محتشدة بمروج ورود، ألوان، شذا، بيادر وغلّال، تلوح أمامها زهرة الشاعر ووردزورث قائلة: "محض التفكير فيها يجعل قلبي بالسعادة يمتلئ".

- ها نيدابا، شنو رأيك؟

تحسّ كأنه يرقبها منذ زمن. يترك دم حار جسمها كلّه

ليحتشد في وجهها. تتسمر عيناها في وجهه لائذة به مترجبة أن يدعها لسانها، لا تستطيع ولا تملك جرأة ان تكون معهم. ترد عيناه، لماذا؟ هل أنت غير قادرة على نقاش؟ ما جدوى اكتنازك لمعارف وعلوم؟ ما نفع اختلائك مع نفسك وأفكارك؟

هيا اذن، أجيبه، كوني الإنسان الذي تحوينه في داخلك وتسعين إلى تطويره. هيا، اطلقي ماردك. كلمات له متناثرة كزنايق، تلقفها، تنشقيها:

- نتحدث عن العظمة والعظماء، عندك رأي بالموضوع؟

رايك! نعم رايك، لا ريب أن لك رأياً نيدابا. أفصحي عنه، لا تخشي شيئاً، هيا، لا تنتقي كلمات وألفاظاً، قولي ما تفكرين به بتلقائية، هيا تدفي:

- آآ.. العظمة سمة أفراد.. يتميزون بجهد استثنائي أو بعبقرية.. أو باتنينهم.. بس برأيي مو كل عظيم يكون حميم.

يتأملها. هل يمكن لها نسيان نظرة حريرية له؟ ألدتها قدرة على تجاهل بسمة نيلوفر على شفتين ورحيق عذب أشتف منه عصارته؟ كيف تطيق سماع لسانه ينطق اسمها وكأنه يصطاد فراش كلمات ملونة؟ علام لم تسمعه بمثل تلك العذوبة من قبل؟ لو يتهيا لها ان تختار منظرًا للجمال لحظيت إطلالته تلك الساعة بالمآل، أو ان يُطلب منها وصف مشهد بهاء لما وجدت صورة أفضل من صورته.

- شتقصدين نيدابا؟

ينظر إلى عينيها بالتماع نظرة صقيلة ساحرة. يالعزة وجلال اللحظة! كيف يمكنك أن تجيبي على سؤاله يا نيدابا؟ كيف يمكن ألا يكون ما ستقولينه إلا نظماً وقصائد وهو بلسانه؟ كيف لا تكونين مأخوذة بحضور لولاه لما يشدّ الزهر عزمه وأنجب

ضوعاً ونضارة؟

تصيبها لحظة شلل فكري. تتدارك صمتها بعد حين. تنفوه بكلام متمهل غير واثق. تشرح مفهومها حول العظمة، "ليس كل عظيم جديراً بهذا اللقب، عبقرى دافى، أقرب إلى القلب من عبقرى جامد وبارد. فى مجال الأدب، شكسبير، مثلاً، عظيم كشجرة سنديان، لكن لوركا عظيم وحميمى بنفس الوقت، عظمتة أقرب إلى نفسها وأدفاً. "العظماء الحقيقىون هم من يجعلون كل فرد يشعر بأنه عظيم....."

تنطلقين يا نيدابا. لم يصبك صمت من يومها، تحكين، تواصلين فى وصف وقول، نظرة إلى عينيّن ملهمتين تجعلان روحك ترتمي فى شلال زهر عاطر وخطر دون وجل. تطلع ساطعة شمسك، يذوب سائحاً كلامك من جبال رأسك إلى دروب لسانك كجليد وقت ربيع. لا يمكن أن تنسى ما حييت ألقاً وضياء ينبعث من عينيّ مخلص حلمي، ابتسامة مخبوءة تطلّ برحابة من ركن فمه كمسقط ضوء جليّ باهر ينير عتمة كهف موحش. تظلين تتبادلين معه أحاديث متشابكة عن نفسك وعن العالم حولكما، يفيض بالكلام، تعشقين حركة يديه (بجفوفك الترفات، تتمنى روى تبات). تسألينه عن أحلامه، مسافات اختياراته، علاقة أسمه بالخلود. تسمعين آراءً مطرزة برجاجة عقل تميز بها، الخلود يخالغ سريرة مجتهدين وموهوبين، لكن "لا يقتل الخلود إلا البحث المستميت عنه". الخلود مرض، يؤجل الحب والرغبة فى الحياة حينما يصير مرضاً يرهّن المصاب به النفس له، مثله مثل السعادة، "لن تكون سعيداً طالما انت تبحث عن مكونات السعادة".

لو يتسنى للناس الاختيار، يفضل أن يختاروا أموراً أكثر أهمية من الخلود، سيرورة الحياة مثلاً أو أنجع دروب موصلة

للأحلام. يتفق مخلد مع نيدابا على أن الحياة اختيار، اختيار عقلاني في بدائل معروضة أمام البشر وما عليهم، لو كانت متاحة، إلا أن يحسنوا اختيارها، حتى الألم أو المعاناة يغدوان، على نحو ما، اختياراً وليساً قدراً.

مخلد؛ شمس كون تُفرغ ذراتها في طلعة تنضح نوراً، نيسان يرش ربيعته على روابٍ تزدان بفتنة واخضرار، مفتاح صباحات مغلقة يرصع الأزرق من أيامها بالياقوت، بمحبته تتفتح إنسانيتها كما تتفتح الزنبقة: "في البدء كان السديم يعم الأرض، والفوضى عارمة والظلام يلامس وجه الماء، عندها انبعثت زنبقة ماء من اللج، وببطء تفتحت تويجاتها، ليظهر الإله الطفل جالساً في قلبها، نفذت رائحتها العطرة لتعشعش على الماء، وشع نور من جسد الطفل ليبدد الظلام الدامس، ذلك الطفل هو إله الخلق منبع كل حياة". نهارها يأبى ويمتنع عن الحضور إلى أن تأتي، والمساء، حتى المساء، يرتدي وشاح النور حينما يقبل حاملاً معه نسيماً أخضر؛ هو أول كل شيء، بداية مياه ومنبعها، بواكير شمعة وكمالها، مطلع عشب، مستهل بهجة ولحظة انطلاق ضحكة. تزهو كلمات في فم يمنح ذهب الحديث وفضة القول بريقاً لو يخبو بريقهما. يحكي، فيحولهما بنفخة ونفحة من فمه إلى قلب جمرة، بعيداً عن أصل كتلة رمادية باردة جافة. يضطرها الكلام إلى "تدليعه" حينما تتكلم معه، يطلع من فمها ما يتناسب مع رونقه، مثل مياه تخرج من صخور جبال للعشق وزرع طيب للزوجة يلتصق بالقلب، تخشى أن ينبت نحو خارجها، أن يفضحها، يكشف سر وجدها وهيامه. تستنفر له مافي قلبها من حب ليكون وقفاً عليه، تبهجها وعورة حبه كما شعور يخالج المرء عند طلوعه تعجباً تلة جرداء ليلمح من عليائها حقلاً أزهر للتو، أو لدى انعطافه من أجمة في براري قائطة ليصدمه جمال مشهد غدير جار

تفيء جرفه ظلال أشجار صفصاف وارفة.

أرقب تفتتح حبها في قاعاتي، في دروبي وحديقتي وهوائي وأرضي. أباركه. أينما تذهب لاحقاً وكلما تتمعن بحياتها، يكون هو هناك، في أجمل مكان بأرض قلبها، وللكون يكون مركز قلبه. تقلّب الوجوه، لا ترى سواه كأجمل خيبتها. كم أحبّت مخلد؟ كيف جعلته يغنيها عن رجال الكون قاطبة؟ تتأكد من ذلك حينما تقوم بترميم ضوئها وتفرغ من انكسارت لاحقة. لو يقيّض الزمن لها فعل ما فعلته يوماً، لفعلته مرّة أخرى وبنفس الطريقة، حتى لو تؤول النتيجة إلى انفتاح جرح آخر أو تحول دون رتق وجع. امتلاكها للأبد، تاركاً في حياتها جرحاً ووردة. دعها أيها الوسيم ترحل عنك، لتكون خالداً فيها.

يملؤون أروقتي؛ زملاء تجمعهم صداقة مأمونة صالحة، تصلح مؤشراً ومجهرّاً لاكتشاف ومعاناة الذوات والأشياء، أساس محاجة لثوابت شائعة، طروحات جريئة، قدرة مذهشة على الجدل لكل شأن عام وخاص، معادلاً مضاداً لقبح ومأزومية واقع، جوقة متناسقة مختلفة تناقش كل مناحي الحياة، فلسفة، أدباً، ديناً، فناً، سياسة، تاريخاً. نمط حواراتهم يؤسس لنهمهم إلى بحث وتقصّ لا إلى خلاف وقطيعة. ليس البقاء بالقرب من مخلد ما يجمع نيدابا بأصدقائه من الزملاء. تبحث من خلال صداقتها بهم عن راحة تفتقدها، عن مجسّات تناسب طريقة تفكيرها، عن تماثل أسلوب في نقاش وتمحيص. تمضي معهم في قراءة كتب، استخلاص حكمة عمّا يدور وما قد تسهو عنه، في محاولة عقلانية لتفسير أحداث ومناقشة أخطاء. لم تركز إلى جزمية ومسلّمات. تصير أقرب إلى نهجهم في الشك والارتياب. تبحث بجذلية. تتلمس نقائص. تتمعن بمقارنات تكشف لها الحقيقة. تُلَازم من يطوِّعون الكلام

ويروضون اللغة لتغدو كائناً حياً يتماهى مع أفكارهم ومواقفهم. تبحث معهم عن جدوى أفعال يقوم بها البشر. تسأل عن طرق عيش سليم، عن أسباب معقولة لوجودهم على هذه الأرض، يمنح تفردهم في عالم حولهم قيمة ووزناً كما يمنحونها، ليسوا كما ناس عاديين غيرهم، يمنحونه حجماً وعدداً لا غير. رغم انهم لا يرقون لحالة كمال متناهٍ، لكنهم ينبضون بتقلبات متلونة كقلب طبيعة ومناخ روحي وبفوضوية استثنائية لمنطق. تقطنهم آمال لا يشوبها شحوب، ألوان غير ناحلة لواقع جمر أيام عسيرة الوقع، ملوثة بزمان حاسر الرأس وهش، قابل ومتقبل لجروح وندبات. لا يعزلونها وينفرون منها إن تختلف معهم. يغمرونها بودهم وتفهمهم، كما حالها عندما تواظب على تحصيل دراسي ولا تنقطع عن بعض محاضرات غير ذات قيمة، كما يفعل - شلة المعقدين - كما هو شائع عنهم. يحوّلونها بمودتهم وحرصهم، وبالذات مخلّد، أكثرهم دماثة وتهذيباً.

تحبه نيدابا بصمت. تخبر زملاء مقربين عن عظم مساحة همومها وتعقيد تضاريسها، عن أحزان أكثر توغلاً في نفسها بشأن علاقة لا أمل فيها رغم تقاربهما الروحي. يرونها ترتشفه وتتنفسه، تحطّ معه بانسحارات مدهشة. يخلق حضوره في داخلها تناسقاً متناغماً، بينما يسحن هو الإنسان الذي تحت جلده في طاحونة وجعه السرمدى. هكذا قدرها، أن يظلّ مخلّد خافتاً بارداً في قلبه وضاجاً وهاجاً في قلبها، غير مدرك ان الحب كالموت، يغيّر كل شيء في حياة البشر. تناجيه، (يامن يفكر في صمت ويتركني في البحر أرفع مرساتي وألقيها). "يا أيها المكرس للأسى والمثقل بالهم. يا لوجعك المغروس في القلب! دعني أقتلعه وانثر بذور المهادنة مع الدنيا وأهلها في نفسك المكشوفة". يطلق حسرة كاوية متسائلاً عن قسوة تكتنف العالم ومبرراتها. تجيبه بأغنية:

The answer is blowing in the wind

أو بأخرى..

Because there is not enough love to go around

يهز رأسه موافقاً، يردد مع زفرة عميقة: "نعم. ربما هذا هو السبب".

الى غرفة نومها، تأخذ أوراقاً كتبها تتمحور حول عدم جدوى علاقة خاصة فيما بينهما في مجتمع يخنق علاقات جميلة بالاعتیاد والنمطية، حقل اجتماعي محل لا تنمو فيه بذرة حب ولا قطاف. يفصح عن نيته بعدم السير ضمن قطيع الثوابت والمألوف، وحين يطلب رأيها فيما كتب، لا تجيبه. تنسحب إلى داخل لجة صمت عميقة، لم تقو على مناظرة تبعده عنها.

يتبعثر أمامها مثل أوراق شجر تفاجأ بطلول خريف، تحاول مدّ يديها لتلممه وتتلقفه كي لا يحلق بعيداً، لا جدوى، يتلاشى كله ويتبخر. تفقده. كيف تفقده وهو يغزوها كل لحظة؟ كيف يهرب منها وهي تهرب إليه؟ رغم أنها في الواقع تهرب بطريقتها الخاصة، تهرب به ومعه بخيالها. لا تقوى على مواجهة حالتها. تختار الهروب حلاً وعادة، تنفذ من خلالها بجلد حياتها ولحاء أيامها. تحسب ما تفعله سينسيها بمرور زمن ما تفشل في مواجهته، ما تريد أن تنساه، أو ما تظن ذلك.

يفضلّ مخدّد إعادة سنته الرابعة، ساخراً من مناهج تقليدية ونظم امتحانات مفروضة لا تصلح للتقييم بنظره. تتخرج نيدابا وتطلب العمل في مكان ناءٍ. يحكي مخدّد لزملائه عن لقائهما ذات يوم قرب شاطئ النهر: "تحدثنا، تمسينا، انصتنا إلى أغانٍ، (بأمر الحب افتح للهوى وسلّم). لم نتكلم عن نفسينا

كثيراً. كيف افترقنا على وعد لقاء نعرف أنه لن يحدث؟ لا أدري". يتحدث إليهم عن يوم بعث لها فيه رسالة راجياً لقائها في نفس المكان، عن انتظار طويل لها، عن شظايا دقائق وساعات ترقب حرقتها، عن هذيانها على رسالة استلمها لاحقاً، (احترق الحزن والانتظار. أرتقب الآتي ولا يأتي. تبددت زنايق الوقت)، عن رجوعه في نفس الباص من حيث أتى بعد ان قطع نصف الطريق إلى الموعد، تاركاً حبيبته تنحر أحلاماً وآمالاً، عن رسالة ندم وألم بعثها: "حبيبتي إنني ابن قحبة حقاً. أعتذر لما سببته لك ولي. قد تكون نهاية العالم بالنسبة لك، أما أنا فلا أخاف أن ينتهي العالم، لكن أخشى أن يستمر هكذا". في حديقتي، يدخل سيجارته بلوعة وسط صمت أصدقائه وحيرتهم ودهشتهم، ومع حرارة رغبة لي في التحول إلى كائن بشري فقط لكي أصفعه.

قبل سفرها من البلد، تتواعد مع زملائها عند بابي:

- لا تسافرين رجاءً، شلون راح تتركين مخلد؟

- أبداً، راح أخذه معي وين ما أروح. ما راح يهرب مني حتى لو أني هربت منه.

* * *

هروب

تختارني نيدابا حلاً في عدم مواجهة واقع غير راضية عنه، لعدم قدرتها على تغييره ومواجهة تبعاته. تعزم على العمل في قرية نائية تفادياً لأمكنة تذكّرها بخيبتها وبمشاكل أهلها، "أرجوكم، هذا قرار أخذته وما راح أرجع عنه".

لم تبدِ أم هشام دهشتها لقرارها، لم تكثرث فردوس كثيراً. تكفيهم انشغالات حياة يومية.

يقف حسّان صارخاً وسط صالة دار مفتوحة على المطبخ:

- هيف، انت تخلقين مشاكل من لا شيء، لو تكرمت وتنازلت عن الطموحات العريضة كان عشنا أحسن عيشة.

بشعر مشعث ووجه شاحب، تمدّ هيف رأسها من باب المطبخ وترد على صراخ حسان بصراخ أعلى، فاردة ابهامها بوجهه:

- من حقي أعيش أحسن عيشة لو لا؟ أستحق لو لا؟ منو أحلى مني؟ منو أحسن مني؟ ها؟ ها؟

ترجع إلى المطبخ. يسمع من في الصالة والجيران أصوات صحوون زجاجية ترتطم بالأرض، تتناثر شظايا غضب هيف مع شظايا عدم راحة واستقرار في الدار. تقضي نيدابا وقتها في القراءة مبتعدة عن أجواء الدار، في انتظار تعيينها في قرية

بعيدة تسافر إليها. تهبئ حقيبتها، تعبئني في محتوياتها.

عند فجر أزرق، تطرق نيدابا باب أحد البيوت. تلتفت حولها فتلفح وجهها ريح شمالية عابثة بأوراق شجر متساقطة في شوارع مدينة صغيرة مختبئة وراء تلال محلة. تفتح لها فتاة تنطق اسمها مبتسمة: "آينور"، ترافقها إلى غرفة عند نهاية حديقة الدار حيث ستسكن.

تطلع آينور إلى باحة الدار متلعة بشال صوفي اتقاء برد يجمد مياه جارية في الصنابير. تفكّ باب قن تخرج منه دجاجات ضاجات يسبقهن ديك كبير. يقمن بالتقاط بقايا طعام من على الأرض. تتفقد الزريبة. تتناول عوداً جافاً تنقر به ثلجاً تكوم على ماء طست وتسقي البقرة. تسحب عيدان علف متجمدة من على سطح السقيفة، تطعم به البقرة بينما تقوم بحلب ضرعها.

تسمع نيدابا خطواتها عند نهاية الحديقة، تتوقع أنها ستطرق باب الغرفة. تحاول النهوض بصعوبة متحاشية الارتطام بسريري رويده وشكرية، رفيقتي سكنها، "صباح الخير ست نيدابا".

تأخذ طاسة الحليب من آينور، تضعها جانباً، تعود إلى سريرها الدافئ.

لايكفّ الديك عن الصياح قرب باب الغرفة، تزداد إثره قوقات دجاجات ثرثرات، ترمي نحوه كتاباً من على الطاولة، يركض فزعاً مخلفاً وراءه ذرقاً طازجاً.

تسند رأسها إلى الوسادة في محاولة لاسترجاع إغفاء متجددة، لا يطاوعها نوم. ترنو بخدر إلى تلال بعيدة قانطة تلوح من نافذة الغرفة، تحاول تجنب صوت شخير رويده

بوضع وسادة على رأسها.

نيدابا! عبثاً تحاولين الانفلات من مشاكلك. عبثاً تدعينني أبحر في رأسك كمرادف للنسيان، بل على العكس، أنت تجعليني مرساة تعيق سفينة أحلامك برغبة منك، تخشين مواجهة الموج دون دراية بانني سأسحبك إلى القاع. لا وقت، لا مكان، لا ريح مواتية. جئت لهذا المكان لتتخلصي من المشاكل؟ هيهات. لا جدوى من كتب قرأتها وثقافة اكتسبتها عندما تتأين بها عن واقعك. تتركين كرة ثلج مصاعبك تتدحرج تغضين بصرك عنها، مغمضة العينين. تنتظرين عصا سحرية للزمن تحلّ كل معضلاتك. أنت إنسانة سلبية مثالية بقدرات محدودة، حتى عاطفتك سلبية، انك لا تعشقين، بل تحبين حالة الحب، تعشقين العشق وليس المعشوق. هل أدركت الراحة الآن؟

تنقلب إلى الجهة الأخرى من السرير، يزداد شخير رويده. تتمتم شكرية بشعر من معلقة ابن شداد: "أم هل عرفت الدار بعد توهم". يكدر وقتاً هادئاً كان بإمكانها أن تعيشه، عدم ارتياح مديرة مدرستها لها ومناكفات زميلتي سكنها. تشتكي شكرية بلهجة جنوبية من تصرفات زميلتها الموصالية وأنز عاجها من نشرها البرغل على فراشها ليجفّ. تندب حظاً جعلها تسكن مع زميلة لا تفهم من لهجتها شيء: "تعالى نيدابا خيّه تنوعيلي، انفطر جبدي، گبر لقه للى ياكل هذا البرغل بعد، كله ضرورگ دجاج، طاشته على فرشتي حتى ينشف، والنوب حچيها، چني گاعده بگن دجاج، قيقو قيقو قيقو، مدري شلون تدرّس لغة عربية!"

تجهد رويده لفهم ما تقوله زميلتها، تساعد نيدابا على شرح كلام شكرية حول ضرورة نشر البرغل في مكان آخر

غير فراشها: "غشعو لسين هلبنت أشقد زفغ؟ أشون غاح تخغب مونة الشتي! دحقي دحقي، كن نظفتو فغيشكي، أشتغيدي بقى؟ عفاكي على فند اللي عملتينو يا شكغية، كنك حميتي اللعينة. انفجعتي".

تطلب شكرية من نيدابا ترجمة ما تقوله رويده وتحويل الحوار إلى اللغة العربية الفصحى وحرف الغين إلى راء، "تقول لك رويده، هل لاحظتم كم هو قدر لسان هذه الفتاة؟ سوف تخرب مؤونة الشتاء. لاحظي كيف نظفت فراشك. ماذا تريدن أكثر من ذلك؟ تبا أفند عملتيه يا شكرية، تشبهين حماتي اللعينة. ثكلتك أمك وأم كل مدرسة لغة عربية، تعساً لكما أنتما الإثنان، ويحكما يا معشر الجنوب والشمال".

أرافقها طوال حياتها. تهرب فيّ دائماً، تختفي بين طبقاتي دائماً. تخرج إلى الحديقة أو تصم أذنها في وقت يتشاجر أبوها عبد الهادي فيه مع أمها. تنزوي في ملحق الحمام أو في ركن الكراكيب لما يتشاجر حسّان وفارس. لا تحتمل منظر عنف أو صوت شجار. تشيح بنظرها عن التلفزيون أثناء جولات مصارعة أو ملاكمة. ترتاع لما ينطلق صراخ، "ييوووو"، من جيران. تنام لثلاث ليالٍ متتالية دون أدنى رغبة في صحو ومواجهة الحقيقة. يوم تعلم أن والدها قد رحل عن الدنيا، تبكي بحرقة مع طالبات معاقبات عندما تطلب منها المعلمة أخذهن إلى بقية الصفوف بلافتة مخطوط عليها "هذه الكسلانة"، أو حين تضرب المعاونة في الطابور الصباحي كفوف أخريات نسين قصّ أظافرهن أو سمحن لقمل يدبّ في شعورهن. لا تذهب إلى المدسة في اليوم التالي مدعية المرض.

تحتمي بي الليلة أيضاً. تلمح شكرية بين طالبات تعاقبهن المعلمة، تضربها على راحة يدها بالمسطرة. تنشد باكية

(غزالة غزلوكي، بالماي دعلوكي). تسكب المعاونة على شعرها النفط مقهقهة. تنشد الطالبات: (خالد دخل للغرفة، شاف القطه ملتقة، جابلها فد عصايه، ضربها هوايه هوايه، وهي المسكينة تعيط، وتبجي وتتوسل، وخالد يضحك عليها، وبالزائد يضرب بيها). يقفز ملثمون مجهولون إلى سطح دار أينور باحثين عن مؤونة برغل. يتحولون إلى ذئاب غريبة الشكل تبتلع عنزتين صغيرتين فتأتي أمهما العنزة الكبيرة، تدق الباب بقرنيها مغنية، (رَبِيَّة ورَبَاب، فْكَو لأمكم الباب). يجلس مخلد في الصف الأخير من قاعة المحاضرات. تحاول أن تكلمه. يختفي. تبحث عنه، لا تجده، مخلد حلمي، أين أنت؟....

تصحو على صوت رويده، توقظها وتحثها على النهوض لكي تذهب إلى المدرسة: "نيدابا، نيدابا. اقعدي اقعدي، أشقد تنيمين وتكوبسين؟ أشون بقى تفيقي من الصبح وانت قيعدي كل الليل تقعين كتب؟"

صداع يحوم في رأسها من قلة نوم وكراريس تحتاج إلى تصحيح. في المدرسة، تحتاج إلى بال صافٍ لمواجهة الست آيدن المديرية وهي تسعى إلى انتهاز اي فرصة لإحراجها. تطلب منها التحدث أمام الاصطفاف الصباحي عن ذكرى ردة تشرين. تأخذ مكبرة الصوت على مضض:

- تكثر المناسبات هذه الأيام وتتعدد. تغيرات سياسية تترى تجري في البلد. يخرج الناس في مسيرات هتاف وتأييد. تتوالى تواريخ أيام احتفالية وطنية. وكما تعرفن، يصادف اليوم ذكرى ردة تشرين، وأفضل من يتحدث عن تلك المناسبة، ابنة الحزب البارة مديرتنا الست آيدن، تفضلي ست.

تهمس شكره أثناء انشغال المديرية بتضبيب مكبرة الصوت، "الرفيقة آيدن راح تغطّج بتقرير، عدل للمنظمة الحزبية،

تعزيتي يا نيدابه يا بت عبد الهادي".

يغلّفها شعور لا مبالاة ولا اكتراث. ليكن ما يكون، "لم أعد أهتم بأي شيء. انها نهاية الاسبوع، سأسافر لمدينتي وليحدث ما يحدث".

كل خميس، ترهقها ساعات سفر طويلة إلى العاصمة، تقضيها في قراءة كتب، لا يعنياها أي شيء حولها. تهمل إلحاح صديقتها شكرية حول ضرورة الانتباه إلى راكبين عزّاب من مدرّسي ثانوية البنين. تسمع صوت أحدهم خلفها: "عفواً ست، عندي نسخة مترجمة من هاي الرواية، إذا تحبّين. آني مستعد. عفواً ما عرفتك بنفسي، أن.....".

تقاطعها بجفاء شاكرة وتعود إلى كتابها. يداري المتحدث حرجه بالتكلم مع زميله. يعطي سائق السيارة شريط أغاني لفيروز. تحسّ بعينيه تخترق صفحات كتابها (خايف أقول اللي في قلبي). بعد فترة طويلة، تسأل عن هذا المدرّس، حين لم تجده بانتظارها عند موقف السيارات كعادته ظهر كل خميس، تبلغها شكرية نبأ اعتقاله بتهمة سياسية: "خذوه المگروود جوّه وراح، أويلي على شبابه".

عندما تصل إلى بيت والدتها عصراً، تجد أم هشام ممدة على سريرها، متلفعة بمنديل أسود وسُحب من دخان سجائر تتخلله كلمات منكوبة. تستعرض مزايا خطّاب تقدموا إلى ابنتها لكنها رفضتهم. ابن الجيران، الضابط صديق فارس، رفضته لأنه غير مثقف، "بعد عيني الثقافة والمتقفين، نفعتنا بشي؟". تفوّت نيدابا الفرصة أيضاً حينما ترفض أحد أقارب زوجة أخيها: "موظف، عنده سيارة حديثة ومعارف كثيرين بمراكز محترمة، بمكالمة واحدة ينقلوچ لمدرسة بالعاصمة. بعثي؟ شكو بيها؟ يمكن يطلع نظيف". تتحسر بحرقّة على فرصة ذهبية

أخرى تضيّعها ابنتها يوم ترفض أخ معاونة في مدرسة فردوس، مدرّس لا يهجع ولا يستريح من كثرة دروس خصوصية يعطيها للأولاد، وبمقدورها السفر معه في العطلة الصيفية إلى بلدان أوروبية لأنها تحبّ السياحة: "ما عنده لا ماما ولا دادا. ما أدري شتردين بعد؟". تغطها على حريتها في الاختيار، ليس كما حالها في زمنها. تتذكر مأساتها ثائية وكيف زوجّها أهلها رغماً عنها وما تبع ذلك من حياة بائسة. تستعطفها متوسلة للاطمئنان على مستقبلها: "يمّه أني ما دايمه، أريد أطمئن عليّ قبل ما موت". لا يعجب أم هشام عدم اهتمام ابنتها واستخفافها بكل شيء، إهمالها لمظهرها وحياتها الاجتماعية، تطلب منها الإفصاح عمّا يتعبها. تقبّل نيدابا رأسها، تدعو لها بطول العمر، مؤكدة بأن الزواج قرار ليس بمقدورها اتخاذه الآن.

تهرب. تتشبّث بي مرة أخرى. تقرر البقاء في مكان عملها الأسبوع التالي. تسافر زميلاتها وتخلو الغرفة. يأكلها فراغ موحش يفاقم من ضجرها وعزلتها. تقرأ لساعات. تغسل ملابسها وتنشرها في الحديقة. تراقب البقرة تزرد طعماً. ترمي بقايا طعام إلى الدجاج. تنتظر سماعات عالية لإحداهن تفصح عن فرحها لوضع بيضة. تمد يدها إلى داخل القن. يمنحها دفء البيضة دفء حياة تفتقره. تساعد آينور في أمور الدار. تنشران بطانيات، وسائد، حشيات ولحافات في الشمس لتهوية طبقات فرش مرصوص على دولا ببالغرفة الرئيسية. تعينها على تحضير حمص في صاج كبير على النار لتحميمه. ترقبها كيف تصنع اللبن، تسخّن حليباً في قدر كبير، تمزجه بلبن قديم، تغطيه بقطعة قماش بيضاء نظيفة، تدثّره بالحاف. تذهب معها حينما تطعم - ننه ألمان - الجدة النائحة. تتبع آينور إلى حيث تخزن ملحاً وبرغلاً في حاويات من قرع

مفرغ ومجفف، مخللات وخضار مجففة محفوظة في قوارير بشكل مرتّب أنيق في مخزن صغير. تمسح معها غباراً عن مزهريات وتحفيات مصفوفة على رفوف تقترب من سقف الصالة، تتوسطها صورة لقائد وطني تطلق عيناه نظرتين ناريتين. تسحن حبات هال، فلفلاً أسود، كركماً وتوابل أخرى ثم تجلس معها في الطارمة عند سطوع الشمس، حيث تنسج آينور ليفاً جاهزة للبيع من ليف ممزوج بخيوط صوفية.

تفرح الفتاة حينما تبقى نيدابا معها. تحرص أن يكون حمامها ساخناً. تسرف في كرمها بطبخات لذيذة. تبتسم لكلمات تقولها نيدابا بلغتها: "چوخ تشكرات". تبرز أسنان غير متناسقة فوق لثة عليا واسعة. تحكي لها قصتها؛ ربّتها الجدة بعد تيتها، وتحملت مسؤولية إدارة البيت ونسيت حالها. طالما سمعت من شكرية بأن آينور انتظرت ابن عمها ليخطبها، لكنه تزوج من امرأة أخرى: "وظلت البنية تلوب وتتنه، تحلم وتلوب وتتنه ياخيّه، حتى سمعت ابن عمها متزوج.. يا بعد رويحتي عليها، الخايبة صفت تاليها هيّ والهايشه وجدتها الثرمة".

هل هنالك ما لا تعرفينه يا العارفة؟ يعني شكرية أمر أي شيء وكل شيء مهما كان صغيراً، تمتلك ما تسمّيها قدرة وموهبة وهبها إياها الباري، تستعين بها على درء أحداث جسام، على إقام صبر بحسن احتمال، بعث أمل في قلوب مظلومات وحالات متعوبات، تحسن العزاء بالكلمات، تصلح في النوائب أكثر من العداوات. تحكي لخطيبها مطشّر عن خيبة آينور، عن كآبة نيدابا، عن برغل رويده وضخامة خطيبها دُرِيد: "شني هذا بويه؟ هذا درد مال الله مو دريد، ذيب أمعط، من هاي تزامط بيه! هذا يا فراش راح يكفيهم لو كظّاها ليلة الدخلة؟"

تسرح بتفكيرها متخيلة وضعهما في الفراش، كتلتين ضخمتين بكمية مهولة من لحم وشحم، تلقي باللائمة على البرغل علناً. يثير غضبها سخرية رويده من خطيبها، قميصه بياخة طويلة مدببة يستطيع تنظيف أذنيه بواسطتهما، واسمه، "ذاك اللي ويحد بالشام ويحد بحلب، هون وهونيك، مفشّق"، وصادقها الذي سيكون مؤلفات أدبية شعرية بدل النقود.

تزعج نيدابا نقاشاتهما. تأخذ إجازة طارئة وتسافر لمّا تعلم بسوء حالة أم هشام الصحية.

تجد أم هشام راقدة في فراشها متألمة من مرض لا تعرف ماهو. تنتبه إلى قلق نيدابا ورخاوة حالة عاطفية لها. تنتهز الفرصة لإقناعها بعريس جديد مناسب. تتنوع أساليبها؛ تهدد، فتعزم على رمي نفسها من سطح الدار، تلتمس وتبتز عاطفياً، مفصحة عن رغبتها الأخيرة في الاطمئنان عليها، تعرب عن خوف من بقائها لوحدها تحت رحمة زوجات أخوة وعنجهية مجيد ابن الحجي زوج فردوس. تفصح أخيراً عن خاطب جديد، "خوش ولد وأهله خوش ناس ومتقفين". تباغتها نيدابا بكلمات غير متوقعة، "أشوفه خميس الجاي".

تفغر أم هشام فمها برهة. تنزع منديلها الأسود بهدوء. تأخذ نفساً عميقاً كمن أزيح عنه حمل ثقيل. تحتسي فجان شايتها بصمت. تمضي في خيالها وفيما سيجري لاحقاً.

تصل إلى دارها الخميس التالي لترى في الدار ناساً، وجوه بعضهم مألوفة. تتحرك بينهم والدتها بنشاط، تلمع على فمها ابتسامة رضا وسرور، تبدو أكثر شباباً في ثوب جديد وشعر مصفف وبعض من أدوات زينة كأحمر شفاه قديم تفرّغ ما تبقى من محتوياته يعود ثقاب وكحل عربي من مكحلة جلبتها من مكة، ليس لتجميل العينين، بل لتقويتها كما تزعم.

تسلّم نيدابا على الجميع ببلاهة وبرود، تخبرها أم هشام
بقدوم الخاطبين على نحو مفاجئ، تدفعها نحو السلم تلافياً
لنقاشها:

- يله صعدي للغرفة، نزعي هذا البلا الأسود الكاوبوي،
لبسي الثوب الوردي.

تلك المرة ستهربين للأمام بعدما كنت تهربين نحو الماضي،
"لتشهد البشرية تجربة فاشلة أخرى، ما راح يصير شي
جديد، مو لازم نحافظ على الجنس البشري؟ المهم نتكاثر".

تتمادى أم هشام في الاستفادة من مبالاة ابنتها. تتفق على
عقد قرانها بأقرب وقت بحجة قدوم شهري محرّم وصفر.

تدرك نيدابا جدية ما تقدم عليه. تبعث برسالة إلى مخلد
حلمي، محاولة أخيرة لإنعاش محتضر قبل إيقاف جهاز التنفس
عنه:

{سيزوجونني ويفرحون بي قريباً، ستكون هذه رسالتي
الأخيرة. أنت وحدك من يمكنه أن يغيّر أشياء كثيرة وجوهرية
في حياتي. انتظر رداً سريعاً منك}.

تنتظر اللاشيء.

تفرح السيدة أم هشام حال سماعها خبر موافقة ابنتها على
الخطوبة وتسعى لنقلها إلى مدرسة في العاصمة.

* * *

مدرسة

أفتخر بتاريخي التليد ووظيفتي كمؤسسة تعليمية يتزود فيها البشر بمعارف ومعلومات. أتولى مسؤولية إكسابهم مهارات مختلفة بصورة وظيفية تعينهم على التكيف مع مجتمعهم ومتطلبات تغيير المجتمع. أعتبر نفسي بحق البيت الثاني للمتعلّم بعد الأسرة. أساهم بكشف المتعلّم لذاته أولاً، لتتكامل بعد ذلك مكوناته المادية كفصول دراسية، مختبرات، مناهج، مكتبة وملعب، تساعد ما سبق مكونات بشرية كمعلمين، متعلمين، موظفين، عاملين وهيئة إدارية. لكن، في بعض البلدان، تجري أمور ليس لها صلة بجوهر التعليم والعملية التعليمية، يمارسها مدراء ومديرات لا يحسنّ أمور أدارتي، كالست نذيرة التي حولتني بتسلط قاهر إلى قلعة لتنظيم حزبي سائد.

أول ما يلفت النظر في وجه مديرتي الست نذيرة، عيان تشبه في حداثتهما وشراستهما عيني صقر غائر على فريسة، وجه تنتشر عليه آثار جدي وثآليل لحمية سمراء داكنة وجبين عريض ينتهي بشعر قصير خفيف. تشبّهها إحدى المدرسات بممثل عربي اشتهر بأدوار الإجرام.

غالباً ما نجدها جالسة عند طاولة كبيرة في مكتبها تتصفح أوراقاً بين يديها، تستقبل الزائرين دون عناء القيام للترحيب

والمصافحة. تستقبل الست نيدابا بنفس اسلوب الفخامة والتهريب. توجه إليها كلاماً استخباراتياً تتعمده مبهماً: "نرحب بـ .. الست.. نيد.. نيدابا.. اسم غريب". تؤكد على أنها سترتاح في كنفها طالما أنها متفهمة وملتزمة. تمعن قراءة ملف المدرّسة المنقولة حديثاً. تعلق مستهجنة بكلمات تتخللها كلمة- يعني:- "أشو ما مكتوب بفائلك انتمائك لحزب البعث؟ يعني انت لحد الآن غير منتمية؟ غريبة، يعني لازم الأمور هناك سايية والمنظمة الحزبية عدكم ما تقوم بواجبها بالشكل اللازم؟". تجيبها نيدابا:

- ست، أعتقد ان المدرّسة الملتزمة إذا تقوم بواجبها التدريسي والتربوي، هي أفضل حزبية.

ترمقها المديرية بنظرة متفحصة دون كلام. تشير عليها بالذهاب إلى غرفة المعاونة لأخذ جدول الحصص. تخبرها إحدى زميلاتهما عن علاقة سيئة بين المديرية وبين أغلب المدرسات وعلى وجه الخصوص مع من تكون شابة ومتزوجة وغير حزبية، وأن مركزها الحزبي يسمح لها بمطلق التصرف فيّ؛ كتوجيه نشاطاتي، مناهجي الدراسية، مّلفات عاملين وإدارة شؤون طالبات وكادر تعليمي.

في الصف، مفاجأة غريبة تُذهل الست نيدابا. من جهاز إنصات مثبت في الحائط، تسمع صوت المديرية أمراً:

- ست نيدابا، ليش نسيتي التوعية الحزبية بالاعشر دقائق الاولى من الدرس؟ تفضلي للمكتب بعد انتهاء الحصّة.

تدخل غرفة مديرتها غاضبة بدون استئذان: "أول مرّة أشوف مديرة تتجسس على مدرساتها عبر جهاز تنصت، هاي مدرسة لو جهاز أم...".

يحتقن وجه المديرية. تبدو ثآليل وجهها أكثر قتامة. تهزّ رأسها بابتسامة غامضة. تؤكد أنه بوّدها مناقشة الموضوع مع الست نيدابا باستفاضة، غير انها مشغولة باجتماع حزبي هام. تطلب منها طرح الموضوع في اجتماع المدرسات.

يحلّ صمت مملّ بين المدرسات أثناء الاجتماع. تتعمد ست نذيرة الانشغال عنهن بتصفح جريدة يومية. تتنحّج إحدى المدرسات. تخفي أخرى فيها بيدها لمنع تشاؤب باغتها. تهزّ ثالثة رجلها من مكانها بحركة عصبية. تفكر أغلبهن ببيت، أطفال، طبخ، أزواج في انتظارهن ومسؤوليات. تؤشر مدرسة طريفة للست نيدابا بعينها نحو ما تكتبه في كراسها:

- إلى متى يبقى البعير على التل؟

-

- يبدو - زكي رستم- راح يخلينا بالمدرسة للعشا اليوم.

تغصّ نيدابا بضحكة مؤودة. يخلو الضحك أحياناً في مواقف وأماكن لا يستوجب حدوثه فيها، مما يصعب كتمانها. تطوي المديرية الصحيفة. تضعها على طاولة أمامها. تبتسم ابتسامة تبدو بها كثيرة الشبه بالمثل المذكور. تعدّل قليلاً من شعرها الخفيف. تجول ببصرها في وجوه المدرسات، لا تجسّد نظراتها سوى معاني غل، تحذير، وعيد، إهانة:

- يعني كلّم تعرفون، بعد تبعيث سلك الجيش، صار يعني لازم سلك التربية والتعليم يتبعث. هذا قرار من مجلس قيادة الثورة، مو من جيبني يعني، ومع الأسف، توجد بعض المدرسات تتهرب من توقيع استمارة الانتماء لأسباب مجهولة، لكن راح نعرفها أكيد، يعني راح أصير مرنة وأضع الاستثمارات بغرفة المدرسات. يعني بعد اسبوع أريدها على

مكتبي، موقعة وجاهزة، ومقولة - أنا بعثي وإن لم انتم- بعد ما توكل خبز. يعني راح نتخذ إجراءات مناسبة بحق المدرسات الممتنعات عن التوقيع. يعني..... زين؟ وحزب البعث العربي الاشتراكي يعني.....

تكتب المدرسة، زميلة الست نيدابا، في كراسها:

- صارت 37 كلمة - يعني- لحد الآن.

تقرأ المديرية بعض صفحات كتاب "في سبيل البعث".

تعود زميلة إلى مداعباتها:

- تگدرين تگولين "صفحة سبعة صعبة" عشر مرات وبسرعة؟

يتمنى بعض الناس لو يقوموا بشيء من الحماقات ولو لمرة واحدة في الحياة لتحقيق مأرب ملحاح خفي وظفر ذاتي. يخطر في بال نيدابا أن تصرخ عالياً ولعشر مرات بجملة "صفحة سبعة صعبة"، أو أن تتوجه صوب المديرية، تشدّ شعراً شعناً لها، تعبت به، تقلبه على وجهها وتقطع الكتاب الذي تحمله لتلقمها كل أوراقه. تبتسم لأفكارها وتود لو تفهقه بصوت عالٍ كطريقة لدر فسلها في تنفيذ خواطر مجنونة.

تندّ تنهيدات ارتياح من المدرسات حينما تغلق ست نذير الكتاب معلنة عن نهاية الاجتماع. تسرع المدرسات إلى بابي، تهمس أحدهن، "الحمد للرفيق علق، خلصنا، انشاء الله حماتي ما نست الطبخ على النار".

يمرّ اسبوع دون أن توقع بعض المدرسات الاستثمارات.

تحمل آذنتي صينية شاي إلى غرفة المديرية في وقت تقف فيه الست نيدابا عند بابها منتظرة السماح لها بالدخول إثر

استدعائها. تلتحق بها مدرّسة ثانية وثالثة، يبقين منتظرات عند الباب. يَلْمَحْنَ من مكانهن ضيوفاً غرباء ببذلات أنيقة وشوارب كثيفة، مباعدين ما بين أفضأهم عند جلوسهم على كراسٍ وثيرة في مكتب المديرية. بعد انتظار يطول، تطلب منهن الأذنة المثل أمام ست نذيرة وحين يذهبن إلى مكتبها، تتجاهلهن وتولي ضيوفها الاهتمام. يدق جرس الحصة الأخيرة فتخرج جميع الطالبات والمدرسات وأخلو إلّا من الحارس. تطلب المديرية من المدرسات المنتظرات عند مكتبها، الذهاب في مشوار قصير مع الرجال الخارجين تَوّاً. يبصرن سيارتين حديثتين مظللتين تقفان عند بابي الخارجي. يأمرهن أحد الرجال بالركوب في إحداها. يدركن أن لا جدوى من سؤال هيئة متجهمّة وعدوانية عن مكان تحقيق واعتقال يأخذوهن إليه.

* * *

اعتقال

تجربني نيدابا في غفلة منها. أزهو في ربوع بلدها دون مراعاة لما ينصّ عليه اعلان عالمي لحقوق الإنسان: "لايجوز القبض على أي إنسان أو حجزه أو نفيه تعسفاً". تلك البلدان الهمجية لا تعتبر نيدابا أو غيرها إنساناً، وأن القبض على شخص واحتجازه وتقييد حريته غير مخالف لنظام إجراءات جزائية أو قوانين دولية، بل هو حفاظ على سلطة الحاكم، من يوفر الأمان والسلام لهم.

يغدو الطريق طويلاً ومجهولاً. يفرغ رأس نيدابا من أي تفكير ولا تدق عليه سوى مطرقة سؤال واحد: ما الذي يجري؟ ينزاح غشاء لا مبالاة من تفكيرها ويحلّ بدله شعور احتراس وتوجس.

تتوقف السيّارة أمام بناية كبيرة، عند مدخلها بوابة يقف على جانبيها حارسان بملابس مدنية. يأمر رجال الأمن المدرسات بالنزول. يقتادوهن عبر ممر طويل إلى غرفة قليلة الاضاءة فيها عدد آخر من النساء. تتحول عيونهن إلى ألسن ناطقة دونما صوت، مستنجدة بمن دخل بارتعاب وحيرة. "هل تعرفن لماذا نحن هنا؟ ماذا سيفعلون بنا؟ هل سيعذبوننا؟ هل سيغتصبوننا؟"

"آني أم هشام". تدفع الباب بقوة، تدخل منادية بصوت عالٍ:

"وين الرجال، وين أخو خيته؟". تطالب بإخراج كل المعتقلات من سجن الحرس القومي عام 1963.

- خالة أم هشام، هاي الأوامر

تنظر إلى قريبها بشراسة:

- أوامركم مو عليّ. النسوان المعتقلات شرف ولايتنا، عيب عليكم يا ما تستحون.

يأمر قريبها بإخراج نساء من مختلف الأعمار بحالة مزرية من غرف المعتقل. يلبسن عباءاتهن ويصحبن أم هشام إلى خارج البناية. يعبرن معها الجسر إلى الجهة الأخرى من النهر. يستقبلهن أهاليهن بصمت وبنظرات تنضح بعرفان جميل للمنقذة. هل اغتصبوهن؟ هل عذبوهن؟ لا أحد يعلم أو لا أحد يريد أن يعلم. ما تعلمه وتشهد له المدينة كلها هو بطولة تلك المرأة المنقذة وجراتها. يظل ناسها لأكثر من شهرين يلوكون الحكاية بفخر. تعيدها أم هشام لزبوناتا بمبالغات، بتشويقات، وبإضافات من خيالها، تجعلهن غير مصدقات لما تسرده وكأنها قصة من قصص الأفلام البولسية.

مرّة أخرى، ترفع سكين مطبخ بوجه رجال ينوون اقتحام دارها للقبض على مختبئين فيه:

- ماكو أحد يفتش بيتي، كل من يدخل بيت أم هشام آمن.

يردّ عليها حرس قومي قادم من القرية لا يعرف من هي أم هشام:

- شنو داخلين لبيت أم سفيان؟

يدعونه رفاق معه، يعرفونها جيداً، إلى الخروج والانتظار خارج دارها، رغم علمهم بإخفائها لشابات وشبان من

معارضتي قائمة السلطة وقت انتخابات المعلمين.

"أحتاجك الآن يا أمي، أنا بحاجة إلى أم هشام القوية النادرة. أنا خوف العشب الذي أوشكوا أن يجرّوه، وهلع شجرة يدنو منها فأس".

لا تقوى أي واحدة من المعتقلات في هذه الغرفة المظلمة على الكلام، يكتفين بحركات مثل هز رأس أو النظر بمغزى إلى أخريات خشية كاميرات مراقبة مدسوسة في الجدار. تتكئ نيدابا برأسها على الحائط في محاولة لإغماض جفניה. تتراءى لها أمها لاطمة على خديها لعلمها باختفاء خطيب نيدابا، "عزه عزّاني. اختفى مطيع؟ سوده بوجهي، شلون؟". هل تضرب خديها الآن لاختفاء ابنتها؟ هل ستأتي على عتبة سجانر كاملة، وتستعيد مأساة حياتها مثلما عند كل أزمة بحديث ماضوي متشكك كعادتها؟ "عود أريد أفرح، أولي عليّ، وبين الفرح يا خايبة يا بنت الخايبة، بعيد اللبن عن وجه مرزوك، مهضومة مظلومة من يومي وسبع تيامي..... حتى زواج البنيه..... وذول البعثيين، الله لا ينطيههم...."

تنتقد نيدابا مخدّ، لسليبيته:

- أذكر إيجابياتهم، قانون تأمين النفط و 11 آذار وهربجي كرد وعرب وتوجه اشتراكي في زيادة الانتاجية وخطط تنمية قومية وعلاقات وطيدة مع دول المعسكر الاشتراكي وحركات التحرر وكاسترو وكومرادو كومبانيرو، وحتى الجبهة الوطنية.....

تكتسح وجهه حمرة غضب ويرتعش صوته:

- يا انجازات، يا جبهة نيدابا؟ اعتقالات، اعدامات، مضايقات، قوانين تبعيث قسرية، طلاب اتحاد وطني

جواسيس! صحيح مبدأ التحالف سليم، لكن مع من؟ على حساب من؟ شنو الثمن؟ شوفي هاي النتائج. أما خطط التنمية الانفجارية فأصرت بالاقتماد أكثر مما نفعته، و.....

"واهمة كنت ياخذ، لو تكون مكاني الآن، كيف تتصرف؟
أعربي حكمتك وبعد نظرك".

(حزب البعث، حزب الطليعة والشعب، حزب البعث، ثار ورفع راس العرب).

"ماذا يمكن أن يفعلوا بي؟ هل أرضخ لهم لو يعذبونني؟ أعلم أنهم يتفنون ويتلذذون بأساليب الأذى وطرق التعذيب، يمارسونها بأي عمل روتيني يقومون به كما يذبح جزار خروفاً. أغفو عند أقدام خروف نشتره، نربطه في باحة الدار الخلفية، يحملني هشام إلى سريري، أطعم الحيوان المسالم، ألاعبه، أراقب أسنانه تمضغ الطعام، يخيل اليّ أنه يبتسم لي شاكراً اهتمامي به. يطلب مني حسّان الذهاب معه إلى مختار العطار لشراء ما أرغب من حلوى. في الحديقة، ألمح أبي يسن شفرتي سكينتين ببعضهما. حال رجوعي، أراهم يغسلون دماءً كثيرة تسيل على الصبة. أنتقل ببصري بين طست قريب فيه كتل لحم وعظام طازجة وبين أعين أبي وإخوتي. أترك الحلوى تسقط في بركة ماء ودم. أهرع نحو مكان الخروف، لا أجده. لا تنفع محاولات أخوتي في تهدئة صراخي ورعبي. ليلتها، ترتفع درجة حرارتي وتقضي أم هشام ساعات طوال إلى جانبي، ترقيني، تقرأ معوذات وأدعية، تعمل لي لبخة عجين تلصقها على جبيني لامتصاص الحرارة، تنهر فارس حين يقلد صوت خروف كلما أصحو. لم أصدق يومها ما قالوه لي بانهم أرجعوا الخروف إلى صاحبه الراعي. ماذا سيفعلون بي؟ لماذا يتأخرون هكذا؟ سأطلب منهم تخديري وليفعلوا ما

يشاؤون بي لاحقاً".

تحس بقشعريرة باردة تسري في بدنهما، ارتعاده لا إرادية، اصطكاك أسنان واهتزاز مفاصل. تقوم بفرك يديين متعرقتين تشعر أنهما لا تعودان إليها. سيف ترقب وسكين انتظار يقطعانها إربا، تستحوذ على أفكارها صور ملطخة بدماء، بقسوة بصرخات توجع وأنين. هل ستحتمل بشاعة تعذيبهم؟

"ينغص مجيء الطمث ورؤية الدماء الشهرية علي عيشتي، أكره نفسي ورائحتي، أتمنى لو أكون رجلاً ساعتها. توضح ابنة خالتي بأن ما ننزفه ليس دماً بل أوساخاً تحيط بالرحم كما المخاط، يتيح التخلص منها الشفاء من أمراض تصيب المرأة. أقتنع بهذا التفسير دون أن أعرف وظيفة بايولوجية لجسم المرأة. لا احتمل رؤية القسوة والدماء. كنت صغيرة، أطلع إلى سطح دارنا، أعتلي كرسيّاً أطلّ منه على الشارع، أرى، في يوم لن أنساه، رجالاً يهجمون على شاب يرتدي بدلة بنية، يركلونه بقوة، يقيّدونه، يقتادونه إلى نريزة قريبة، ينهالون عليه ضرباً، يغطسون رأسه في بركة ماء عفن مصطبغ بلون أحمر، ينتفض لاختناقه، يخرجونه ليتنفس، يعيدون الكرة لفترة أطول. أصرخ باكية، لا، لا، لا. يأتي أبي مسرعاً ليحملني إلى أسفل الدار وأنا في حال هستيرية مرعبة".

(لهولة للبعث الصامد.. هل هل هل هل)

حسناً، لا سبيل في تلك الدول لكسب السلطة غير اللجوء إلى القسوة والترهيب. لا يجدي حيال قانوني عندهم سوى القتل، التعسف، التعذيب، والإذلال المعيب للبشر في أقبيتي وسجونني، لكي يرفع رجال مهيمنون مصالحهم ويحافظون على سلطتهم.

يطول زمن انتظار وقلق مؤرقين. يخيل لنيدابا أنها تسمع عويلاً وعظماً تتكسر وأآآآه موجوعة طويلة.

"متى تنتهي هذه الساعات الثقيلة كصبر؟ متى يأتون؟ متى يبدأون بإجراءاتهم؟ يا ترى كم الساعة الآن؟ بماذا تفكر أم هشام في تلك اللحظات؟ كانت تشدّ رأسها بمنديلها من قلقها عليّ حينما تأخر بعد المدرسة وأتوارى عن أعين المعاونة والحارس. أبقى بعد خروجهم. أخفي حلوى ملفوف عليها شعارات كبيرة مثل عدالة وحرية في مقاعد الدراسة، أو أخطّ كلاماً محظوراً على جدران مدرستي الثانوية. أتبع مدرستي إلى اجتماعات تحضر إليها بعض من نساء المدينة، يتحدثن فيها عن كلمة حقوق ومساواة. أقرأ كلمة لهن باعتباري أصغر الحاضرات. تأخذني موجة مدّ يساري مثل أي شابة أو شاب في بداية رحلة البحث عن الذات. أقف على مسرح المدينة بصفائر طويلة وأشرطة بيضاء. أساهم في أعمال مسرحية، يصفق جمهور لي وتكتب صحيفة محلية عني".

لعلّ أم هشام تلعن اليوم الأسود الذي جاءت فيه للعالم صامته ضامرة اسمتها نيدابا، أم البلاوي: "من يوم جبتها لليوم، ما تكعد راحة عبالك ولد، تريد تعذبني بأخر أيامي، فوگ ضيم الله كلام المسعدات، يگولن ليش أم هشام سمنانه، كله من الضيم والقهر. ما شفت يوم حلو بحياتي من يوم تزوجت عبد الهادي إلى....."

في الغرفة المظلمة، يتناهى إلى سمعها صوت قرقرة صادر من بطن إحداهن، ربما من جوع. تبكي ثانية بصوت خافت. تردد أخرى بصوت مسموع مرتجف: "الله لا إله إلا هو الحي القيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم". تغصّ بالكلمات ولا تكمل.

(إحنه طليعة أمة عريقة. إحنه البعث البعث البعث)

"بعد اختفاء مطيع، يتبعونني كل يوم من المدرسة حتى البيت وبالعكس. يتجاهلون التفاتات ونظرات متسائلة لي. يقفون عند رصيف مقابل الدار في محاولة لاقتفاء أثره عن طريق خطيبته، أمر يجعل أم هشام تقلق على أولادها وعليّ. أرقّ ينهشني كل ليلة، أحسّ بهم يتسلقون سياج الحديقة، يطلّون برؤوسهم من حائط سطح الدار، يزيلون اللحاف عني، يمدّون نحوي أذرعاً أخطبوطية لزجة بممصّات ومجسّات جبّارة تلتف حول عنقي، أتمزق وأغدو أجزاءً متناثرة".

يصيبها مغص شديد تتقلّص بسببه معدتها يفاقم من ارتجاع بدنها من خوف ومن جوع. تتأفّف إحدى النساء. تتمتم أخرى بأية: "وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون". تقف امرأة أخرى لوهلة مرتجفة ثم ترجع إلى وضع جلوس متكور.

"لم أنتم في الجامعة إلى أي تنظيم سياسي معارض. أقضي وقتي في قراءة كتب أدبية دون سواها، يرافقني الكتاب ومحبة الناس أينما أكون. أحدث طالباتي عن أهمية الفكر، عن قيمتهن كنساء، عن ضرورة امتلاكهن لأحلام وإرادة سعي للوصول إليها وتحقيقها، أروي لهن عن آفاق معرفة واسعة للفكر البشري، عن سبلها لتطويرهن. أشير في كل مناسبة إلى مفاهيم إنسانية لعدالة، لإنصاف إجتماعي، لتكافؤ فرص، لمساواة. أمنحن فرصة التعبير عن ذواتهن عبر نشاطات مسرحية ومعارض رسم. هل أغاظهم هذا الأمر؟"

لا ألوم نيدابا لو تخشاني، أعلم علم اليقين أساليبي لديهم، يُجلسون الرجال على رؤوس قناني مكسورة، يطلقون عليهم كلاباً جائعة، ينزعون أظافرهم، يرمونهم في حوض مليء بالتيزاب. ليس بإمكان أحد تحمل ما يتقنون به من صنوف

وحفلات تعذيب.

(أمة عربية واحدة، ذات رسالة خالدة. وحدة، حرية، اشتراكية).

"أهتم بمظهري جيداً حينما أصبح مراهقة. أتعلم من بنات خالتي طريقة إزالة شعر الساقين. ألصق قطعة قماش مشبعة بسكر دبق ذائب على ساقي، ولكي أتحمل ما يلحقها من ألم، أندمج في تمثيل دور مشهد صمود أمام جلادين نازيين أثناء قيامهم بعملية تعذيب على سجناء، أتخيل نفسي أحدهم، أتحمل الألم بصمود وقوة خارقة تدفعني إلى رفع القطعة الملتصقة بالشعر، يختفي عندها الألم ولا يبقى غير شعور بقدرتي على الاحتمال والتحدي. يقال ان قوة الإحتمال والجَلْد في الذهن ليس إلا.... هل تراني سأتحمل ما سيجري لي بعد قليل؟"

يرتفع نواح امرأة باكية، يتحول إلى صراخ هستيري:

- آخ خ خ، راح تنفجر مثانتي، يا عالم، أريد أروح للمرحاض، عندي سكر واحتاج دوا، ارحموني؟

يوهن صوته. تنهار أرضاً. ترتفع أصوات أخرى محتجة وأخرى باكية. تختلط كلمات غير مفهومة مع بعضها متحولة إلى ضجيج وجلبة ولغط.

تنهض نيدابا دون وعي منها، تتجه نحو الباب الموصد، تدقّه بقوة كالمجنونة.

عندما ينفتح الباب يخفق قلبها بعنف. يظهر شخص مقتول العضلات، يتطاير من عينه شرر غضب، يتجه صوبها:

- عفواً أخي، هذي المرا عندها سكر وتريد تروح.....

وآني... آني لازم أخابر أُمي حتى تطمئن عـ ...
لا تتذكر قبل فقدانها لوعيها سوى ذراع تمتد نحوها وكفّ
ضخمة تهوي بصفعة قوية على خدها.
من يمرّ بي ويجربني، يبدأ بالتفكير بأمر آخر محتمل، مثل
الرحيل.

* * *

رحيل

أُتعلّق بالجغرافيا والجسد. ترتبط بي مفردات مثل غياب، وداع، فراق، نزوح، مغادرة، غربة وغيرها. أن أكون سلبياً أو إيجابياً، يعتمد ذلك على الراحل نفسه وعلى المكان القاصد إليه، حسبما قال أحد بني البشر: "فما كل من حط الرحال بمخفق/ ولا كل من شدّ الرحال بكاسب". أظن جازماً أن على الراحل أن يترك روحه وحياته السابقة في المكان الذي غادر منه، ولا ينقل معه ما ألف عليه في المكان الذي يغادر إليه. لا أدري ما جدوى قرار رحيل نيدابا وهي تحمل روحها معها، أرى ذلك جلياً وأنا أواكب حالها بعد وقبل اتخاذها لقرار أكون أنا محوره.

يسرع هشام إلى دار والدته. يبلغه جار بأنه وجد أخته نيدابا فجراً، ملقاة على رصيف متنزه قرب داره في حالة غيبوبة. تخبره والدته بأنها ما زالت تنزف من أنفها. يسألها عن جروح أخرى ومصدر آخر للدم. تروح مطرقة لائذة بصمتها باكية دون صوت. تعاني نيدابا من ألم عاتٍ في فكها وانطفاء غريب يصيبها بصمت مستكين. يؤكد هشام لوالدته بأن ما جرى كان مجرد صفة تآديبية تحذيرية، لأن من اعتقلها يبدو على دراية تامة بحياديتها وعدم انتمائها لحزب معارض. تعزو فردوس سبب تعاملهم مع أختها بشكل - خفيف - إلى اسم وسمعة عسكريين في عائلتها من أقارب وأنسباء، وأولهم زوجها مجيد.

يتوتر حسّان محدّراً ناصحاً بضرورة مسايرتهم: "مجرد توقيع يا نيداوي، لا أكثر ولا أقل. قشمر بهم. متعرفين قسوتهم؟"

يستغرب الجميع من صمت أم هشام. يعجبون حين يرونها تخرج من البيت وتقرر بعد عودتها أنه من الأسلم أن تغادر نيدابا البلد ملتحقة بخطيبها، بعد تمكنه من الهروب إلى بلد مجاور.

عند وداع نيدابا، لم يصدقوا حرارة مشاعر فارس. يدير وجهه عن الجميع ويكي بحرقه ولا يؤرخ الحدث بقصيدة توديع كما عادة له. تقبّلها فردوس. توصيها بالرجوع بأسرع وقت إذا لم ترق لها الأوضاع في الغربة. يشيد الجميع بمأثرة هشام ومجازفته يوم غامر بانجاز معاملة سفرها. يعلمون أنه ذهب إلى قريب حزبي في دائرة السفر والجنسية وحصل على تأشيرة مغادرة بعد أن غيّر مهنتها إلى ربة بيت. يبلغها هشام وصية القريب بعدم أخذ حقيبة سفر كبيرة معها.

ليلة الرحيل، تهمد أفكار نيدابا مبررة لها موافقتها على الهروب الأخير: "هَبِّي يا ريح حريتي، سأرحل أخيراً".. ترحلين؟ تتركين وراءك أرضاً، أهلاً، ذكريات، أحلاماً، بيتاً، اتكاءة على جذع نخلة زمن، إغفاءة في بستان مكان، مشاريع قصائد ومسرح؟ كيف لا يتفجر ما بداخلك من حشرات وخيبات ودموع متحجرة بحجم المجرّات؟ كيف ستعيشين في أرض لا تشمّين فيها أنفاس مخلّد؟ هل تعرفين متى سترجعين من المجهول؟

"سأرحل، أعرف من أين، لكن إلى أين، لا يهم. أشيح بوجه أحمله وبحياة أعيشها عن مواضع قلق وذل ومتاعب لا أحتملها. ما أعلمه هو أنني سأغادر كل شيء لأحافظ على ما تبقى لدي من مساحات غير متقرحة في النفس. أهرب مرّة

أخرى، لكن هذه المرة من معلوم رديء حافل بقسوة، إلى مجهول لا يكون أفضل بغموضه ومجهوليته".

قبل حلول موعدى، يقترح عليها فارس أن تعيد النظر فيما هي عازمة عليه، أن ترضى بوضعها الحالي مكتفية بعقوبة النقل من التعليم إلى وظيفة أخرى: "إبقى هنا، وين رايحة؟ أخاف مترجعين بعد. فكّري أكثر. انت بعدك على برّ الأمان. لا تسافرين، الغربة صعبة".

تعمل لها فردوس معجنات كزّادة في الطريق، تضعها في كيس مع كثير من الوصايا: "لا تشيلين هم، عمّج مجيد يعرف واسطات هواية. طلعي وبعدين نشوف طريقة ترجعين بيها. أنت بعدج مكتّبة".

يشخص طبيب أمراض نفسية حالتها هامساً في إذن والدتها: "لا حجّية أم هشام، هذا مو دلّع مال بنات. بنتك عدها كآبة ومحتاجة إلى حبوب فالיום وتغيير جو وابتعاد عن المشاكل بالبيت".

تتمتم أم هشام بكلام خاص لأبنائها تظهر إثره علامات همّ وحزن على وجوههم. تحجز لهما سفرة سياحية في عطلة الصيف. يحاول أخوها حسّان ما بوسعه تضمين أحاديثه بنكات ومشاهد هزلية، وتقليل مشاحناته مع زوجته. يرتدى فارس بدلة خاصة بالمناسبات، يدعواها إلى حفلة موسيقية للفرقة السيمفونية رغم عدم تذوقه للموسيقى الكلاسيكية. غير أنها لا تستمتع بشيء، يموت داخل جسدها النحيل طفل البهجة، تخدم ضحكاته ونشوته. تقصد أم هشام فتّاح فال كملجاً أخير، تضع تحت وسادتها تميمة دون علمها.

تزورهم خولة زوجة هشام، تتحدث ببلاهة متعجبة من حال

الدنيا وما يجري في البلد من اعتقالات لشباب وشابات. تحاول التلميح إلى نيدابا بضرورة قبول الأمر الواقع. يحاول هشام عبثاً تغيير موضوع الحديث ومقاطعتها: "الله يستر، ستار صديق هشام اعتقلوه، مؤيد انهزم للخارج، وابن جيرانا عذبه بالكهرباء.... هاي شبيكم؟ شكوا بيها لو وقّعت على ورقة؟ ما عدها عقل ترتبط بواحد شيوعي ماوراه مستقبل؟ متخاف على أخوتها؟ تتركه أحسن ما تتغرب. ماكو داعي للعناد".

يصّوب الجميع نظرهم إلى نيدابا، يجدونها صامدة هامدة كأنها ليست بينهم.

"تضربني أمي لعنادي، أغيظها أكثر حينما أسمر نظرات تحد وكبرياء في عيني وأتظاهر بتماسك وجلد رغم الوجع. تتركني لما تعجز وتيأس من سماع كلمة اعتذار. عند ذاك، تنسكب دموع ساخنة على وجهي بغزارة". تصرخ فجأة بوجه خولة والجميع وتعود إلى تصويب نظراتها في الفراغ وفي نفسها.

- ما أوقع على استمارة الانتماء، انتهى الأمر.

"انتظر واسطة نقل عمومي للذهاب إلى المدرسة، في حر شمس حزينانية حارقة. يمرّ أمامي أطفال بأسمال وسحنات مزرية، يبيعون ثلجاً وماءً بارداً. أبصر السيارة آتية من بعيد، يركض نحوها رجال متعجلون ممسكين ببابها أثناء سيرها، لا أجد لي مكاناً فيها، انتظر الثانية. أتأخر عن موعد قرع الجرس. أحاول الاعتذار للمديرة عن التأخير، تتركني عند باب مكتبها حتى تنتهي من مكالمة هاتفية. تراني، تتجاهلي، تؤشر لي بيدها بأن أذهب إلى الصفّ دون الرد على تحية صباح. في محاولة سابقة يائسة لتغيير المدرسة، تقف أم هشام عند باب مدير التربية، تترجاه أن ينقل خدمتي إلى

مكان قريب من العاصمة لأكون قريبها. يصرخ عليها، يطردها باحتقار ومهانة، جايتني أم شيبه تريد نقل بنتها! عجل وين واسطتكم؟ لتخليني أتاكون وياچ، يلة بره، بره".

تفكر بي أثناء جلوسها في حافلة تنقلها خارج بلدها، "هل اتخاذي لهذا القرار صائب، أم أنه هروب آخر؟".

صحراء حولها، صحراء في داخلها. تترك رأسها مستنداً إلى نافذة الحافلة. تغمض عينيها في محاولة لإغفاء هاربة، تأتي خطفة وسن خشن بين انتباهات صحو واختلاسات نوم.

يترنم المدرّس الذي كان ينتظرها كل خميس عند موقف السيارات بأغنية فيروز، يهزّ رأسه طرباً (خايف أقول...). يسحبه رجال أقوياء من مكانه، يرمونه داخل زنزانة رطبة ملوثة بدماء، بقيح، ببراز ورائحة أجساد متعفنة محترقة. يختفى صوته ويبقى صدى الأغنية. يحضر ناس كثيرون مباراة مصارعة، يضرب فيها البطل رأس الخصم ضربة تفصل رأسه عن جسده. تتعالى صرخات هستيرية لجمع غفير من المتفرجين وبينهم فردوس. تكون في حالة استعداد أمام عدسة المصوّر، تضع ابهامها وسبابتها على خدّها، تميل برأسها نحو جهة القلب، تلتصق صورتها بقطعة عجينة في ألبوم خاص، يلاحقها غرباء لأخذ الصورة، تتألفت خائفة راكضة، تخبئها في حقيبة أختها المدرسية، تأخذها معها إلى قاعة الامتحان، تجد على مقعد الدراسة أمامها ورقة أسئلة امتحانية عصية على الحل. تخرج إلى شارع تكثر فيه مرائب سيارات ومحلات ميكانيكيين. يُصقّر أصحاب ورش التصليح لها، ترى وجوههم متسخة مشحمة، بيتسمون كاشفين عن أسنان مصطبغة بلون أحمر. تنعطف نحو شارع - أبي نواس - قرب المركز الثقافي السوفيتي، يعطيها شخص شاحب على

نحو غريب مجلة الأدب الروسي. تحاول قراءة الأسئلة بجهد، تعجز عن كتابة أي شيء. الوقت يوشك على النفاد. تجلس ست نذيرة في مقدمة القاعة، تلّوح بعصا طويلة قائلة: باقي من الزمن عشر دقائق. يخرج من فمها دود بأجنحة لا يلبث أن يطير في أرض القاعة وفضائها. ترى نفسها في سوق، تجذبها رائحة شواء آتية من كباب الإخلاص وكبة السراي ممزوجة برائحة ورق، قرطاسية، حبر، صمغ وشريس يستخدم لتجليد كتب. تلمح أم هشام تبري أكواماً من أقلام رصاص خشبية، تتقدم صوبها، لكن كلما تقترب منها تبتعد أمها عنها. تُبصر مخذ، تبتسم، تلتفت ثانية نحوه، لا تجده. يختفي. يعلو صوت المديرية قائلاً: انتهى الوقت.

تُحسّ بحرارة كفّ والدتها على خدّها، توقظها من نوم مضطرب وكابوس، تُعلمها بقرب دخولهم الحدود. يتدلى من النافذة مساء حدودي لا يشبه مساءات دارسة. تحسّه أسود بنجوم ميتة مطفاة. تتصفح وجوه من حولها، مسافرين صامتين، شيخ كبير يضع يده على وجهه متفكراً، امرأة بملابس سوداء تدخل يدها في كيس ورقي، تخرج بيدها شيء منه، تدفعه نحو فمها بدون شهية واضحة، تمضغه بهدوء. تثير معدة نيدابا رائحة كباب بيتي ورائحة ذاكرة بيت ومدينة خلفها.

يهيل الليل بسواده على مدينة تلبس قميص نومها في هدأة ناعسة. تنسلّ من جدران بيوت مجاورة وقت تحضير وجبة العشاء، روائح ممزوجة بقداح أشجار نارنج وعشب لامسه الماء تواء، يلعب فوقه أطفال مقهقهين، تتشابك أصواتهم مع أصوات ممثلين في مسلسل يومي من تلفزيونات منصوبة في الحدائق. تنطلق أغنية (عندما يأتي المساء) من راديو قريب، ضحكات شباب متجمعين عند باب إحدى الدور. تلهث جدران

نهار بسخونة صاحبت شمساً في نهارات مرموقة. تجلس على عشب بمحاذاة الكورنيش، عيونها محلقة في ضياء نجوم مبهرة متساقطة على مياه دجلة، يبهرها التمتع أضواء متناثرة تومض، تأتلق ببهاء مساء منخفض، أليف، غافل عن كلاحه لون وشساعة بُعد وفراق.

"هل ستكون المساءات دوني بلا أقمار؟ هل ستنزل النجوم دموعاً لتسقي أثري؟ حشرات ساخنة تنطلق من صدري، هل سترتفع كالمنطاد؟ هل ستشكل مجرة للحزن فوق أرض أدقّ روي فيها بمسامير حنين؟"

نيدابا، الق نظرة سريعة على أرض وراءك. تأكدي من أن قلبك لم يسقط خلفك ويتشبث بتلك التربة الجمرة، كل شيء يغادر كل شيء، أراجيح وزنايق تترك الحقائق، كلمات تغادر الحروف والمعاني، رائحة غياب وزوال تنطلق متبخرة من قوارير ثكلى. ماذا لو تبكين؟ لو تقوين على البكاء؟ ربما ستخرج منك دمة عملاقة تغرق هذه الصحراء والكون كله.

"يالها من سطوة شعور قاهر ينتابني! ما أخيبها أحلاماً وآمالاً تعلّق وتُنشر على حدود من وهم، تتفتت كما قحل وأرض ممحلة لا يمكن انباتها وإصلاحها!. ما أشبهك بشجرة تُفْتَلَع من قلب غابة، أو لب يُسلخ من جسد نخلة دامعة!"

هذا الليل الحدودي العاوي في روح لائبة. هذه الأرض، ما قربانها؟ أَلُوبُك هو القربان؟ روحك، لست أنت، من تلتفت إلى الخلف واجفة، روحك من تتحني بخشوع لمكان مقدس تتركينه، مترنمة بأول أغنية وقصيدة حب عرفتتها البشرية:

"أيها العريس/ حبيب أنت إلى قلبي/ جميل أنت وحلو كالعسل/ لقد ملكتني، فدعني أقف أمامك واجفة".

"إيه أنخيدوانا! إيه يا روح الهيام والولّه! سأظلّ وحدي مع
العشق دون مثنوى، أبكي بلداً ينبذ من يحبه من العاشقين، بلد
أحبه ولا أحب ما يفعله بي. سأظل أطوف في محطات، تهبط
منها أحلامي وتتساقط مندلقة من جيوبي، تاركة القلب مُطفاً،
يُغفره رماد حنين وذاكرة معتقة. سأظل أخط اسم ذلك المكان
في تجاويف أيامي وعلى جدران قلبي معشوقاً خالداً، أينما
حللت أحمله معي في أحشاء قلبي، حقيقتي، وجداني، تراثي ،
تاريخي".

تنطق نيدابا بأخر كلماتها وتمتطي صهوة جوادي لا تدري
إلى أي مصير.

متنزه

تؤنس مملكتي طبيعة موحدة قادرة على تحويل بصلات قمبيئة إلى زنابق متوهجة وأزهار نرجس صفراء، تضاهي شمساً أفريقية في صفائها. مرج أصفر، أحمر، ليلكي، تطوف فوقه فراشات ملونة طيور آمنة، قوس قزح ألوان لا أجمل منه ولا أروع. تخطر في بالي كلمات يستخدمها البشر مثل، رابية، وردة، فراشة، نحلة، شجرة، زهرة. ثرى ما سرّ مسميات أنثوية لها؟ هل لعلاقتها بالوهب والعطاء والخصوبة؟ كل شيء جازل لدى بني البشر، حتى إنشغالهم عن الطبيعة بأمر تبدو تافهة. أحاول لفت انتباههم إلى معجزتها وخلقها، إلى كل ماهو مصطبغ بلون ودفع، إلى شعور أني بعشق اللحظة، تبجيلها، ارتشاف مباحجها وصوفيتها، براهنية فتنة يعيشونها. أتبدى بكل حسني لكي أجعلهم يستمتعون لأن حياتهم قصيرة. لا تحزن طويلا سيدي، لا تتجهمي سيدتي رغم وجع ما تقرأينه في أوراق الكاتب، ابتسمي.

تحیی السيدة رجل المصطبة من بعيد، "هل يهوى هذا السيد رياضة ركضة البريد الأدبية ويطبقها على كتاباته، مثلما فعل في المحكية الثانية؟ أتيقن من ذلك لما فيها من أصوات غزيرة قد ترهق القارئ، وانتقالات متواشبة متوالية في زمن وموضوع، تصلح لسيناريو مسلسل أو فيلم سينمائي، يعبئها بكم هائل من معطيات وملاح شخصيات

تتضح كرموز، محافظ تقليدي، رومانسي يختم عصر الرومانسية، يساري ينتهي بانتهاء مسيرة سليمة لليسار، انتقال إلى بيت جديد، إلى عهد سياسي واجتماعي وواقع تحولات جديدة، شخصيات ستينية وسبعينية، تجتمع بمختلف مشاربها واتجاهاتها في بوتقة واحدة، قضايا شانكة، سياسة، حب موءود، عقدة غنى وفقر، مدينة وريف، ذكورة وأنوثة، ذبول أحلام. يتساقط كل ذلك مع تقادم الزمن وسطوة المجتمع"

- ماذا كنت تريد أن تصلح أو تغيّر بكتابتك؟

- القراءة "تؤثت عقولنا بمواد من المعرفة فحسب، أما التفكير فهو الذي يجعل ما نقرأ ملكاً لنا"، أو من بشدة بأن مهمة الأدب جمالية إنسانية وغير إصلاحية بحتة، لأننا من المستحيل أن نعرف ما يريده الآخرون، وليس لزاماً على من يكتب أن يقدم تفسيرات لعمله، فالنص بمثابة آلة تخيلية لإثارة عمليات الاستمتاع والتفسير.

"يخيّل لي أنه شخصية مخدّ حلمي أو فرد آخر في المحكيّات، أو ربما شاهد على أحداثها، يتوخى عبر كتاباته إقامة معرض لجروح ذاتية أو عامة".

- هل لسيرتك الشخصية علاقة بما تكتب، وماهي مراجعك الاجتماعية وكيف سخرتها وأعدت صياغتها؟

- ليس بالضرورة أن أكتب عن نفسي أو عن شخصيات حقيقية من واقع معين، ما أكتبه قد يكون من المخيلة أو من تجارب عايشتها مع أناس آخرين، وربما هي شيء من ذلك كله.

تفصح عيناها عن نظرة خائبة، لم يرو جوابه عطش

فضولها.

أين أنا منكما؟ أشجاري، هوائي، إخضراري، زهوري،
بحيراتي، رحابة فضائي؟ أين رونق ذلك البهاء من حياتكما؟
أمر غريب. ظننت أنني أتكلم بلسان الجمال، أخطب الناس
باحساس البهجة. ما بال حواس متعطلة لهم تغفل عني؟

تستلم السيدة من الكاتب أوراق المحكية التالية. تتركه جالساً
في مكانه الأثير. أستمع إليها وهي تقرأ المحكية الثالثة.

المحكية الثالثة

الشمس الباردة



"هكذا أخبرتني المدينة حين غفوت على ركبتيها/ لم
أكن حاضراً / لم أكن غائباً / كنت بين الحضور
والغياب / حجراً..أو سحابة / تشبهين الكأبة / تشبهين
الكأبة".

مرآة

لا أعكس صورتها، بل ذاتها. أرافقها منذ كانت صغيرة، في محاولة لاجتياز طفولة، تلف ثوبها الصغير حول جسم ناعل، تشبكه بدبوس، تحمل بيدها حقيبة نسائية، تلبس حذاء بكعب عال، تمشي بخيلاء وزهو. تتأمل قدرتها على أداء أدوار تمثيلية لفنانات مشهورات وبطلات سينما. أصبحها على نحو متين في مطلع صباها وشبابها حتى لا نكاد نفترق. يحلو لها التمتع في ملامحها من خلالي. أستوعب مرحها وخيالها. لمّا تكبر قليلاً، تهجرني وتروح تطلّ على ذاتها عبر عالم الكتب، تفكر، تناقش، تسكنها روح جدل وشغف لمعرفة. تستنفض قضايا فلسفية عسيرة في محاولة لإدراكها وإشراك آخرين في فهمها.

تغيرت حقاً نيدا. لا تطأطني رأسك، لا تتجاهليني، انظري إليّ جيداً، قدرك أن تري وجهك القلق من خلالي. ستغادرين قريباً. كم مرّ عليك من وقت وأنا أرافقك في هذا المكان؟ كم لبثت هنا معي؟ عاماً، أربعة، ربما أكثر بزمنا. هل أنت مصابة بسكتة زمنية فلا تحسّين بلسعات السنين ولدغاتهن؟ هل ما زلت تفكرين بالوقت كما كنت آنفاً؟ "لماذا يكون هناك وقت؟ منذ متى بدأ الوقت؟ أين يذهب؟ هل هو في الفضاء الخارجي كما هو في الأرض؟ هل الزمن محض إحساس؟ هل صحيح ما

يقال بانه لا يمكن إعادة تدوير الوقت لأنه مثل ندفة ثلج يذوب سريعاً؟ تتدخل أم هشام بحديث يخلو من ترابط: "الوقت عنده جناحات تطير وإذا ما قطعتة يقطعك". يعلّق السيد عبد الهادي من على فراشه قبل أخذ قيلولته المعتادة: "الوقت أيام زمان"، يستذكر بخشوع آية ينسى تتمتها: "ويسألونك عن الساعة، قل...."، تحاججينهم متسائلة: "أليس من الحكمة أن نضيف حياة إلى وقتنا لا أن نضيف وقتاً لحياتنا؟ أن نعرف كيفية التعامل مع الوقت؟". يشكو الجميع من أسئلة ترهقهم، تحول بينهم وبين استرخاء هنيء في ظهيرة شاقة، يلومون أنفسهم على إغفالهم لابنة تقضي زمناً في ركن الكراكيب، أو غار نيدابا. تقرأ كتباً تفسد عليها حياتها. يوجهون أصابع اللوم إلى هشام الذي دلّها على درب مكتبته وسدّ عليها منافذ الراحة. هل لا زلت تعتقدين بأن الإنسان يضع لحياته غاية وهدفاً معتبراً الوقت هو الحياة، لو يضيع، ينتفي الهدف منها؟ قد يصلح الموضوع مادة لدرس التعبير، يحلو لمدرسة اللغة العربية اختياره، تكتبه بعناية على السبورة: "إنما أنت أيام مجموعة، كلما ذهب يوم ذهب بعضك". تخط تحته عنوان اختياري آخر، "ما ندمتُ على شيء ندمي على يوم غربتُ فيه شمسهُ، نقص فيه أجلي ولم يزد فيه عملي". تنافسين طالبات أخريات على مقدرتك في الكتابة. تقفين في الطابور صباح الخميس وتقرئين ما تكتبينه في تحية العلم. يصفق لك كل من في المدرّسة. أين أنت الآن، وفي أي وقت؟. تنسلّ أطياف أناس بلا ملامح من مخازن معتمة في تجاويف ذاكرة نيدابا. يغادرها الجميع وتبقى وحدها، غير أبهة بصورة على سطحي تشي بلا مبالاة. لا يلفت اهتمامها شحوب وجه هزيل، رأس ينوء بأفكار حيرى، خصلات شعر مبعثرة. يعلو على صوت الصمت صوت مطرب حرّاشي: (يالرايح وين مسافر تروح تعيا وتولي). تمدّ

يدها نحو وجهها، تغسله. لا تتمعن فيما تحت عينيها من هالات سوداء منتفخة من قهر سهر ويباس دهر. تصطدم أناملها بشفتين جافتين جاهزة مثل ساتري حرب لصد وتدمير أي مؤشّر للفرح.

لا أحد تحاورينه غيري، أنا صديقتك الوحيدة اليوم، مرآتك المرئية غير المرئية، أنيستك في غربتك، فأنا "فضية وصارمة/ مبرأة من الانحياز والهوى/ أبتلع كل ما أرى دون إبطاء وكما هو، دونما غشاوة من حب أو بغضاء/ أنا لست صديقة وحسب/ كعين إله صغير بأربعة زوايا..... تفرقنا الوجوه والعتمة/ المرة تلو الأخرى".

ما من شيء أسوء من كلالحة الرتابة ومن سكنها الدائم في تفاصيل حياة البشر، من هيمنتها عليهم، قضائها على حيوياتهم، تشكيلها لأيامهم بلون واحد متكرر من اللاجدوى والركود. حياة رتيبة لنيدابا، تجعلها تنتن مثل فضلة بائسة عطنة. عند النوم، تسحب حياتها معها إلى الفراش، لكنها لا تنام (كيفاش يجيك في الليل النوم، والقلب حزين والخاطر مهموم، يا لطيف، كيفاش تبدلت أحوال، تبدل الزمان، ولأت لحياة هبال). تضع سكينه أمسها تحت وسادتها، وإن تنام قليلاً، تستيقظ فزعة من منامات مدمّة داخل غشاء حزن كثيف يزحف لمزاج يوم جديد، يحول دون تسرب صبح وضياء إلى نفسها لكنه يطلق رائحة زنخة منفلّنة من قوارير سأم تنفّثها الغربية، سرعان ما تنساح إلى آنية استرجاعات مُرّة دبقة يغفل عنها عث نسيان، وتنمو في تجاويها حشرات أسى وسوس قلق. لا تبالي بوقت، ماذا يهم من مضى زمن كثرة تالفة وساقطة من شجرة؟ لا تعرف من يوم مضى أم توقّف سوى اللون، أبيض أسود، ليل نهار، تقسيماته الأخرى ليست بذات أهمية. لها زمن خاص متختر

يجعلها لا تكثر بزمان تقليدي متحرك. ترصّ علب أيامها واحدة تلو الأخرى بلا عناية، هذه علبة الأمس، تلك علبة أول أمس. تفتحها بلا مبالاة قاطعة أياماً مكررة من عمرها بشفرة الالهال. يدحرج الزمان حجارته بما تيسر له من عمل ميكانيكي، يسري بعسر في جسد أيامها ويتفنن في تحويلها إلى أشلاء متفسخة تسحبها كل يوم معها إلى الفراش. يمضي وقت، يتوقف وقت، سيّان عندها. مثلما لا يهمّ الوقت أمرها، هي أيضاً لا تهتم بأمره. لا جدوى من حساب زمن يصابها لا يتغير ولا يغير شيئاً، زمن يفشل في أن يكون مقياساً للاختلاف والتحول. الكسل والجهل نعمتان، طالما الراحة تهرب حينما تحضر المعرفة والحركة كما يقول البشر.

على فضتي، تنعس تفصيلات يومية لحياة نيدابا. تملأ حبلاً بقطع غسيل، تخزن الماء في حوض الاستحمام وأواني طبخ، تغسل صحن اليوم، تنقع خضاراً معدّة للطبخ، تمسح أرض الشقة، تعقم قناني الرضاعة، تنظف، تغسل، تكنس، تمسح، تطبخ، تكوي، تحبب..... عبثاً تبحث عن سلام داخلي في صمتها ولامبالاتها. تقاوم عقلانيل كلما يسألها: "منذ زمن، عبر الناس وسبقوك نحو أحلامهم. ألن تنطلقي أنت؟ متى تنطلقين؟ هل ستضيع ملامحك هنا وتنمحي؟ لم تحظي بأحلامك هناك، ولم تأخذي - سيد علي - في الغربية؟ افعلي شيئاً ما، أي شيء". يفتح لها السبل لتنظيف ذاكرتها وإعادتها مجلّة، يخفف قليلاً من وحدتها ووحشتها، لتحويل كل ما هو أسود إلى لون مشرق، غير أن ثلوجاً متكومة في الشرفة، تتطلع نحوها بعيون صقيلة، تنتهز فرصة صقيع سانح في داخلها، تثب إلى روحها، تنهشها (أنا عايش وحداني غريب، عايش وحداني غريب).

تمرّ نيدابا من أمامي، تقفز في الهواء، تدور حول نفسها،

تؤدي حركات راقصة، تزداد حركتها سرعة وقوة، تلف
وتدور، تحاول الغناء، تتلعثم، تجثو على الأرض، تبكي،
ناشجة زمناً عاشته في أرض غريبة ستغادرها، تستحضر أول
دمعة سكبتها في أرض البهجة البيضاء، العاصمة.

* * *

البهجة الباهية

أز هو بطبيعة خلابة في حمى سفح جبل شامخ شاهق،
اُخْتُضِنَ أحياء شعبية تراثية بطراز أندلسي وعربي أصيل،
شهدت انطلاقة حكايات وثورة على مستعمرين أجنب. اليوم
ليس كما الأمس، وين مبارح وين علومو؟..(قولو لي يا
سامعين، ريحة البهجة وين؟ راح ذاك الوقت الزين). تزحف
نحو قصباتي العتيدة أحياء عصرية، بنايات بيضاء ذات تاريخ
حديث، يلاقح معمارها وفسيفسائها حاضري بماضي، تتدرج
بهيبة نحو أفق بحري حيث ثمة سفن راسية تنقل بضائع من
كل أنحاء العالم، تحوم حول موانئها نوارس ناعقة، تبني
أعشاشها على مآذن جوامع مستطيلة فريدة الطراز. تتحوّل
أسماء شهداء وشهيدات قدموا حياتهم أضحيات لاستقلالي إلى
مسميات شوارع عريضة، تنوّر فيها أضواء ساطعة لمحلات
ومطاعم شعبية، وتضجّ مقاه برائحة ساخنة لقهوة إسبريسو
حادة وشاي أخضر بنعناع طازج. تنتشر في شوارعنا أيضاً
يافطات بلغة فرنسية وثيقة وأخرى بعربية مغلوبة؛ "الجزائر
أحذية، جزّار المستقبل، مجزرة الأصدقاء". محلات متناثرة،
أكشاك، عربات لبيع سمك مقلي ملفوف في ورق جاهز مع
بطاطا مسلوقة وزيتون، فنادق راقية لمن يملك مالاً، أخرى
رخيصة متاحة لمعدم حال، حمامات شعبية تتحول ليلاً إلى
ملاذ لمن يقصدني في زيارة قصيرة. يجوب على أرضي رب

عائلة مغتربة، يبحث في يافطات متناثرة عن سكن مناسب في فنادق تكتب عند أبوابها: إشهار للزبناء الكيرام - الفندق محجوز. مكانش شومبرا، مكانش بلاصة. ديزولي كوميلي.

رجال طيبون بملامح خشنة مثل عباءات يرتدونها أو برانص بيضاء موشاة بخطوط سوداء، وجلاليات تقليدية صوفية كامدة منتهية بقلنسوات مدببة تغطي رؤوسهم، يبصقون في زنقاتي خلاصة تنباك أحمر وشمة. يحدقون ملياً بفضول ودهشة إلى غرباء متسكعين في حوماتي وأروقتي، يسألونهم عن أصلهم وسبب وجودهم على أرضي:

- من وين راكم سي محمد؟

- من العراق

- إيران؟

- لا خالي..العراق، العراق

- ها ها.. العيراق، العيراق.. خيار الناس، هذا اللي راهو قريب من مكة؟ على بالي حرب البسوس دايرة تمّه، وقيل الجيهاد مطلوب ياسي محمد، الوطن يبغي شوهادا، راهم بزّاف في جنات النعيم.

- تقصد الحرب العراقية الايرانية؟

- ربي غالب.. وغلّاش خرجتم من دياركم؟

- خالي، ديارنا حارة شوية والحر ما يوالمنا، نازوكيين مو بيدينه.

- شنو هادا؟ هدرتكم صعبية بزّاف، كيفاش انتوما إسلام؟ غير منفهمو منكم والو، ربي يعين.

يصرخ على طفل يتسمر أمام الغرباء:

- هيا أرواح.. ازرِب، ازرِب.

يمضي الرجل منزعاً من لهجة غريبة لأعراب غرباء
ملأوا ساحاتي وحدائقي. حدائق عامة عامرة بأشجار جوز هند
ونخيل، يفترش عشبها رجال ونساء غرباء مع أطفالهم، تترسم
على ملامحهم إمارات قلق وحيرة باحثين عن أمان: اشهدوا يا
عرب على أغراب في بلاد الأعراب، إشهد يا نشيدي الوطني:
(وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر، فاشهدوا فاشهدوا).

خلال فترة سكنتها على أرضي، لا تبصر نيدابا جمالي،
تحاول لَمْلَمَة حنينها لبلدها وقهر مرارتها. تفتح الراديو، تسمع،
(وطني حبيبي الوطن الأكبر، يوم وره يوم...).. تبحث في
الأطلس عن خارطة هذا الوطن العربي. توصل خطأً بالقلم
وبالقلب بين مدينتها وبينني. ينفد حبر قلمها، ترسم خطأً آخر
عائداً، ينشف قلبها. تحيا في انتظار قدوم طائر يأتي على جراد
أيامها. تحول بينها وبين العودة أميال من غياب، من مسافات،
دمع وجغرافيا، وجع ومساحات فقدان. تبتلي أرضها بحرب
وخراب وتبتلي هي بقلق ينخر رأسها، بسبييريا مقفرة تتمدد في
مشاعرها، بتجعد آمالها وبمحل تطلعاته متييسة مثل نبات حلفاء
جاف، طائر في براري خاوية.

"لا تيأسي"! يحثّها عقلانيل: "لا تستسلمي. لا تؤجلي أوان
فعل. لا تنكسري أمام المؤقتة؟ لا تؤجلي دق مسمار في
الجدار بحجة آتٍ قريب يكون لك فيه جدار أصلي. تذكرني أنه
لا يوجد كمال في الحياة، ما عليك سوى بذل جهد وان تتعلمي
استخدام حياتك دون حساب لزمان أو لعمر. لا تشيحي بوجهك
عني. لا تطلبي مني توفير كلامي "المنمّق". إن كنت تخزنين
في ذاكرتك مسحوق طراوة، رشّيه على نفسك ربما يرطب

جفافك. لا تغلقي بابك عن زهور أزمان كانت يانعة. هيّا إروي أرضك بماء فرح. إطللي جدران غرفة أحزانك بألوان بهجة. دعي صوف الحكايات والذكريات يدفنك، ليكن مخلد هو الماء والدفء".

تتأمل مكاناً آخر وزمناً آخر، تحاول أن تبتسم.

"ذات صباح، آتي إلى الجامعة مكتئبة، تبحث عيناى عنه. أجده في النادي منكباً على كتاب شعر وفي يده سيجارته. أسحب بفوضوية كرسياً. أجلس أمامه دون سلام. أتحاشى نظراً مباشراً في عينيه. أرقبه بطرف عيني. يغلق كتابه بهدوء، يضع سيجارة أخرى وراء أذنه، يتكلم بصوت مستعار:

- نفقة لو نشوز لو على بيت الطاعة؟

أتهكم من دعابته:

- هاهاها. كاتب عرايض فاشل.

يطلق نفساً حارقاً من أعماقه، يحرق به جزءاً من قلبي. أندم على مضايقته بمزاج سيء. أحاول التراجع..." مغل....
برقة نصل عشب طري ساعة هبوب نسيم ربيعي عليه، يهمس مقاطعاً:

- نيداها.. "لا تتحدثي، فاللغة مقبرة المشاعر". لكن تذكرى يوم طردوني من الجامعة شلون كان حالي.

تجيب روي بصمت: "أذكر كيف كان حالي أنا".

- تعرفين شنو ساعدني على تحمل محنتي؟

"آه لو تقول أحبك أنت".

- كلمات ومواقف الأصدقاء

"ما ذا عن كلمات قلبي؟"

- قصيدتك مثلاً: خذ من النحل عيونه وامض..

"خذ عيون قلبي، فأنا يعمّني الشعر عندما أحبك".

- المتاعب والفقدانات يانيدابا موجودة بحياتنا رضينا أم زعلنا، المهم نعرف شلون نتعامل وياها، ونطلع بأقل وأخف خسارات ممكنة.

يؤشر لي بيديه لألحقه، أتبعه حتى نهاية الشارع، يفتح لي باب سيارته ونركبها. يظل صامتاً حتى نصل إلى حدائق مدينة الألعاب. يوشوش ببعض الكلمات في أذن عامل التلفريك ثم يعطيه نقوداً. أطلع معه في مركبة صدئة تحلق بنا فوق حديقة، تحتها ماء واخضرار. أجفل حينما يتعطل التلفريك، يشع مبسمه بابتسامة هادئة، يضحك شعراً:

- أمنية بحجم العالم/ أن أكون معك/ وتحتنا العالم/ دون متاعب ولاخسارات

- منو أنت؟

- "أنا كل ما ومن تردينني أن أكون"

يصمت وتحكي عيناه قبل شفثيه:

- گولي شي تردين تسمعيه مني.

- ألم تري يا نيدابا كيف فعل حبك بي؟

يضحك حلو المبسم ويصمت.

- وأنت، گول شي تريد تسمعه مني.

- أنت شگد ممل يا مخلّد، أكرهك، اتركني وروح، دروبنا ما تتلاگه.

يرفرف قلبي في فضاء العشق وريحانتي أمامي، ألمحه
مبتسماً من ثغر وعينين وروح، في أحلى ربع ساعة صمت
في حياتي.

متاعبي وخساراتي يا مخلّد حلمي تتعلّق اليوم، ينمو
حجمها مثل كائن خرافي في فيلم خيال علمي، يتكاثر بسرعة،
يبتلع كل أمل أمامه. أنا في جوف حيوان وجع وخسارات،
تبتلّغني خسارة تلو أخرى، كقصة خسارتك وخسارة أحلامي،
وخسارتي لبلد أحلم بعودة مأمولة إليه".

تمضي في حلقة وحشتها لوحدها، تعيش مع رجل تقرض
أغلب أوقاته طقوس حزبية.

* * *

الحزب

يخلقتي بنو بشر من أفكار تهدف إلى تحقيق عدالة اجتماعية وقيم إنسانية.

يحثونني بمصطلحات يقدّسونها مثل كادحين، بروليتاريا، ديمقراطية، سلام، نضال، وما يتبعها من عدالة ومساواة وتحرر ومستقبل سعيد. عدد لا بأس به من مختلف طبقات المجتمع وشرائحه ينتمي إليّ، وعلى رأسهم مثقفون يدركون ضرورة التغيير عبر مبادئ ونهجي. تنجلي خلال مسيرتي منعطفات متفاوتة، يفتديني ناس شتى، يضحّون من أجل إسمي العظيم وأفكاري. يقودني قادة يتبعهم يريدون يطلقون عليهم اسم رفاق الهيئات الدنيا، لها ولقاداتي تفاصيل أحفظها في سجلاتي وذاكرتي، غير أن من يكتب تاريخي لا ينصفني موضوعياً، فأما يكون معي بالكامل أو ضدي، يظهر ان التاريخ المدوّن بواسطة البشر مطبوع على الانحياز.

في بلدان يسودها ظلم وقمع أغدو؛ خطوات حذرة مرصودة، بيوتاً سرية، عيوناً متوجسة، مشروع اعتقال، سجوناً، تغيباً واستشهاداً. رائحتي دم، عتمة، حبر، منشورات ممنوعة، تشرد وغربة. يمشي في دربي المعروف كثيرون لا يرون غيري ويشوفون بالتالي مع أبي علي (لو موت، لو.....موت)..
فينتهون أما في غياهب سجون أو في حالة صمت أخرس أو

في مجاهل منافي. رغم ذلك يؤمن بي ويكرس حياتهم لي، أوفياء مهذبون مثقفون كادحون، لا يرومون إلى مكاسب أو مصالح ذاتية من ورائي. أصبح لديهم عادة يُجبلون عليها ولا يمكنهم التخلي عنها، كما الحال مع الرفيق مطيع.

لا يجد الرفيق نفسه في البلد الغريب ولا يأتي إليه إلا لتنفيذاً لتوصيات منظمتي الحزبية في إيجاد عمل. مضت أحلى أوقات حياته في وطنه. يستلقي على سريره في غرفته، يقرأ كتاباً، يرقد بأمان، يستيقظ باكراً، يتناول فطوره قبل الذهاب إلى مكان عمله، ويمضي من هناك إلى اجتماع يخصني في أحد البيوت أو إلى أي نشاط آخر له صلة بي. هكذا كان يومه، وهكذا هو باختصار، قانعاً راضياً بتفاصيل حياة لا تعجب أمه، تشعر بأنه كَبُرَ وتخطى ثلاثة عقود دون تكوين أسرة.

منذ عمر صغير، يلتزم بالهدوء والطاعة، يعاهد نفسه أن يظل نظيفاً نزيهاً أميناً مكرساً لخدمة الآخرين، لا يتمرد ولا يكون مصدر قلق لأحد في البيت أو لمن يقودوني. يؤمن برقيّ نظريتي، يعتقد بانصافها للإنسان، بتحقيقها عدالة اجتماعية، بخلقها مجتمعاً يخلو من استغلال، بعدم غمطها لحقوق طبقات مسحوقة انطلاقاً من مقولة مؤسسي الكبير، "تاريخ كل مجتمع موجود حتى الآن هو تاريخ صراع الطبقات". لا تؤثر على مسيرته آراء تتهمة بجمود عقائدي وانقياد لتوجيهات من يقودني. لا تهزمه تحليلات بأنني شوّهت عواطفه ولا يعير اهتماماً لمن يحكي عن ذوبان شخصيته في فكري، بل يفخر على الدوام بروح الجماعة في أفعاله وأقواله، مفضلاً قول، "نروح ورحنا"، بدلاً من، "أروح ورحت"، فلم يفقد الأمل بعد في مستقبل سعيد للبشرية، في عالم سعيد يخلو من الاستغلال والظلم. لا توجد في دنياه منعطفات متميزة، لا تعقيدات، لا

تجارب عاطفية ولا مغامرات مع امرأة لأنه يعتبر كل النساء رفيقاته وزميلاته في الجامعة، لا يستحقّ غير الاحترام والتقدير. يوم عرّمت على اعتقاله أجهزة سلطة تستفرد بالحكم في بلده، هرب بصورة غير شرعية، خارج حدود مكان أحبّه وناضل من أجل ناسه.

يوافق أخيراً على فكرة الارتباط بإمرأة اسمها نيدابا، لا يوفرّ لها أحلاماً وتوقعات في عيش تبغاه، لسبب بسيط هو أنه لا يعرف ماذا تريد ويكاد يشك بأنها ليست على دراية سليمة بدرب نضال ساره ويسيره قبل الارتباط بها. يحاول جهده إرضاءها حسبما يتوقع، فإن يعرف أنها تحب حلوى معينة، يهدي لها نفس الحلوى في كل مناسبة وفي كل عام، رغم أن رغبات تلك المرأة تتغير بين فترة وأخرى. أتّى له أن يعلم بذلك؟ ما أدراه بشخصية إمرأة تسعى إلى اقتناص الدهشة الدائمة في حياتها؟ ولماذا يتوجب على الرجل أن يغيّر عاداته واسلوب حياته وطريقة تفكيره لأجل أن يرضي إمرأة؟ يتيقن، بأن الإنسان حينما يصل إلى عمر ما، ليس من السهل عليه أن يغيّر نفسه كما تأمل نيدابا، "كي تعيش، يجب أن تظلّ في حالة اضطراب وخفقان، فالاستقرار والركون إلى الأمان يقتلان أشياء جمّة فينا". كيف يغدو موجاً أو بركاناً وهو إنسان عادي هادئ؟ كيف يتعين عليه جعلها تقبله بصفاته وكما هو عليه؟ لا يدري. تريده أن يبدّل أولوياته، يجعل أسرته في المرتبة الأولى في حياته، يفضلها على وطن وعلى شعب وعلى، بحجة أن نواة كل تلك الأمور هي العائلة. ترى أنه لا يكفي أن تكون رفيقاً جيداً أو إنساناً طيباً لكي تسعد امرأة.

رفيقي العزيز، لا ألومك لعدم انسجامك معها ومع عائلتها. ما حياتك مع أم ميكافيلية، لا تكفّ عن القول بأن قاعدتي

ستبقى "مكفخة" راضخة لقيادتها، وأن كياني الضعيف لا ينفع في حكم أو قيادة بلد بسبب أن طبيعة شعب نناضل من أجله، يتبع نموذج القوي لا لمن يتلقى الصفعات. تسمي نزوعي ونزوعك للسلام نزعات استسلامية. تلومك وتلوم قياداتي على عدم لجؤنا إلى قوة وثورة، إلى استلام السلطة، إلى وقوف ملموس بوجه ظلم. تنصحنا إلى سلوك درب آخر غير طريق البيانات والاجتماعات السرية خلف أبواب مغلقة. لا يحسن الرفيق مطيع أيضاً برابط مشترك بينه وبين أخ مثقف غير فعال، فاقد للأمل بخلاص البشرية على يديّ، يوم تنفض عنها آلامها وتسد بمستقبل مشرق. أما الآخر الصغير، فهو هامشي أخرق، لا ينهي قراءة كتاب واحد في السنة، يحسب نفسه شاعراً وهو يكتب كلاماً مسجوعاً سخيلاً. لكن أكثر ما يخشاه الرفيق هو أخ زوجته الثالث الذي ينتمي لحزب السلطة منتفعاً، بعدما انتمى لي في الستينات لا لسبب سوى لتشابه شكل بينه وبين الثائر جيفارا، لينسحب بالتالي مني ويتركني عقب أول صفة من رجال الأمن.

تجمع الرفيق مطيع مع نيدابا، محطة غريبة في انتظار تغيير متوقع لنظام آيل للسقوط في بلده. لهذا السبب، أجده لا يسعى جاداً إلى الحصول على عمل ثابت وإلى استقرار في سكن، إيماناً منه بالرجوع إلى الوطن خلال وقت قريب. ليس كما نيدابا التي تحاول ساعية للظفر بعمل.

* * *

عمل

ما جدوى حياتكم وما قيمتها دون نشاط جسدي أو فكري،
من أجل انتاج شيء مثمر، لاكتشاف الذات واحترامها،
لتوظيف طاقات وتنمية قدرات، لخلق مصدر رزق؟ مشهود لي
بجدارة، بأني أغير حياة المرء كما تغيرت حياة السيدة نيدابا
بعد حصولها عليّ.

تحكم بيدها على أمر توظيفها كما يمسك عاشق قلبه لدى
رؤية حبيبته وكما يضع يده بيدها بعد فراق وجفاء. تجدني في
مدينة بعيدة عالية، مدينة تبدو لغير شخص منفي، هادئة رائعة
باخضرارها وأشجارها الباسقة، وبجبال تحوّط هضبتها
وتضفي عليها جمالاً وعلى هوائها نقاءً فريداً. تتوسطها عين
ماء طبيعية فوّارة وتمثال فتاة من عصر الرومان، وتحشد
على جانبيّ الشارع مخابز لبيع خبز وحلويات، ومقاه تملؤها
رائحة قهوة وأنغام عربية وشاويّة أمازيغية، (يا صالح يا
صالح، يا قمح البريوني، وعيون على صالح، يالأميمة، كُحال
وعاجبوني يا، يا صالح يا زين يا صالحا).

أمر شائك وعصيب أن تتأقلم في بلاد غريبة، في مدرسة
جديدة مع ناس مختلفين يتفوهون بلهجة لا تفهمها، يمجدون
تاريخاً حديثاً لا تعرف عنه سوى ما سمعته من حكايات أخيها.
تسأله عن سر ندبة كبيرة في كتفه، يروي لها عن أصابته في
تظاهرة كبيرة يتصدرها هاتفاً، "يا ديغول برّه برّه، الجزائر

تبقى حرة"، يوم يطلع إلى الشارع، نصرة لمناضلات جميلات، جميلة بو حيرد، بو باشا، بوعزة، ولثوار هبوا من أجل تحرير بلدهم، في وقت يسود فيه مدّ شعور قومي وروح ثورية، ويتبارى شعراء كبار يمجدون ما يجري بقصائد خالدة: "ردي علقم الموت لا تجزعي، ولا ترهبي جمره المتصرّع".

تتجمد قسوة ملامح أول يوم في بالها، كما يتجمد جسمها من برد لا تجدي في قهره ملابس صيفية لا تمتلك غيرها. تنزل من الفندق إلى مقهى تحته في طلب شراب ساخن. تشرب قهوتها على مهل، تمشي في طريقها إلى مكان عملها، اللبسيه أو المدرسة الثانوية. ترى بناية واسعة بدرجات عديدة، تطلعها متوجسة، تسير في المدخل متلفتة متمهلة باحثة عن غرفة المدير. تصادفها مدرسة ترتدي زي المدرسين الرسمي:

- وين المدير رجاء؟

- سقسي عليه تمّه

- عفواً؟

- سقسي عليه.... جس ويداكو..... سيلفو
بليه... فوالا...اكسكيوزي موا... سافا؟

تدلف الزميلة غرفة جانبية في نهاية الممر بعد أن تؤشر بيدها متحدثّة بفرنسية متقنة.

تبحث عن يفهمها متلفتة، "بالراحة يا عبد العليم، بالراحة يملّواني... شويه شويه علمدام"، تسمعه يقول. تحييّ محدّثها وتعرّفه بنفسها. تبتسم لقوله بأنه يحب "العرائين" مفسّرة لفظه بأن هؤلاء فعلاً أصبحوا في العراء. ينادي الاستاذ عبد المعطي فرغلي على آذن المدرسة، فيصحبها العساس إلى غرفة المدير، ومن يومها يصبح زميلاً وصديقاً عطوفاً، يحمل لها

بريدها الشهري من البريد أو البوسطة.

* * *

البريد

يخترعونني كوسيلة اتصال وتواصل في ألواح ورُقْم طينية منذ عهد سومر وبابل، يستخدمون الحيوانات في نقل أنفأ ووسائل نقل حديثة حالياً كالطائرات أو الألكترون حالياً. تخصص لي خدمات مكاتب ورسوم مقابل أسعار تزيد أو تنقص حسب مسافات وأحجام. يستعين بي بعيدون في الاطمئنان على أحبائهم كأمم بديهي وحق طبيعى إنساني، إلا في حالات نادرة كما هو الأمر مع السيدة نيدابا التي تنقل أخبارها إلى أهلها في بلدها عبر الاستاذ فرغلي.

يراها في أول يوم عمل حائرة تائهة في مدرسة وبيئة جديدة عليها، توشك بذرة دمعة أن تنبت وتطلع من عيناها. يمزح معها شارحاً ما تعنيه المدرسة هو "استقصي عليه هناك"، مضيفاً، "الكلام الفرنسي اللي قالته بعديها، مفهمتش منه ولا حاجة". يرحب بها، يستلطفها، تصبح من أصدقائه القليلين.

لا أحد يعرف ظروف من يتغرب مثله من موفدين، سعيهم الأول جمع مال لتحسين حالة اقتصادية، لشراء شقة، دفع مهر لأخت أو بنت، تسديد نفقات دراسة أولاد ولغير ذلك من المشاريع. لا تصدق نيدابا ما يشاع عن الاستاذ فرغلي من صفات بخل وتقتير تجعل دائرة أصدقائه ضيقة. تعلم عن تحمله

لمشاكسات طلاب وطالبات، عن رميهم الطباشير على ظهره عندما يلتفت نحو السبورة، ومناداتهم له بكلمات مهينة مثل "فول، فول". تسمع شائعات بأنه يأكل وجبة واحدة في اليوم ولا يتحرك طوال يومه كي لا يجوع، ويطلب ماء غسيل الجيران ليغسل به ثيابه. لماذا تراه يفعل ذلك إن كان ما يذاع عنه صحيحاً؟ هل من أجل تحقيق أحلام بعيش محترم في بلده؟ يصارحها القول: "يا ستي ده أنا ورايا أفواه وأرانب. بالعقل كده، طب أعمل إيه؟ ده إفترا بقى، مالها الناس ومالي؟ دنا أحسب حساب كل قرش أصرفه. أحول بلاوي خضرة، ولادي ومراتي صارو يطفحو دولارات".

تضيع وتضيع حياتك وأحلامك في الغربية يا فرغلي يا ابن نبوية، سنة إثر سنة ولأكثر من عشرين عام، وكلما تقرر العودة لبلدك وتحسبها بروية، تجد أن عليك البقاء أكثر. ماذا لو تحفظ كل دولة كرامة مواطنيها بدل الشحطة والذل في كل البلدان. "ده أبو الهول مش قاعد كده بمزاجه، ده مشلول من اللي شافه من الحكومات، ولسة ياما هنشوف". يحكي لها عن أحوال ناسه وكيف أن في بلده، "ناس عايشة كويس، وناس كويس أنها عايشة". بالمقابل، تحكي له عن بلدها وما يجري فيه من قهر وحرب. تتوثق علاقته بها كإبنة بعمر واحدة تركها، تكبر ولا تسأل عنه. تفتح نيداها قلبها له، تحدثه عن حالها، عن محطة غربة وقف قطارها فيها، عن ضيق حالها في هذا البلد. يجلبني في رسالة من أختها، يفرح حينما يرى ابتسامتها: "فرغلي ياعم وانبسطي، حدّ واخذ منها حاجة، بكرا كلنا يصير اسمنا المرحومين". يتأثر حينما تقرأ ما هو مكتوب في:

أختي القريبة إلى قلبي ونفسي

أننا جميعاً بخير، وحربنا مع الفرس المجوس لا تؤثر علينا
واننا لمنتصرون بإذن الله وإرادة قائدنا حفظه الله. المعلمات
معي في المدرسة يبكين لما أقرأ رسائلك لهنّ. نذكرك كلما
سمعنا أغنية (يا مسية العافية عليكم يهانه، شما يجي منكم خبر
تزيد المحنة). أُمي تتمنى رؤيتك والسفر إليك، منها زيارة
ومنها تسيارة. عمك مجيد وأخوتك هشام وحسان وفارس
وعوائلهم كلهم بخير. اهتمي بنفسك وبصحتك جيداً ولا تقلقي
علينا.

أخذك المحبة فردوس

يستمتع الاستاذ فرغلي إلى الكثير عمّا تحكيه نيدا با من أمور
عجيبة في بلدها، أغربها وجوب مروري، كرسالة من خارج
الحدود، على رجال في دائرة أمن يقرؤونها بتفصيل، يعاقبون
من لا يخبرهم عن قريب هناك أو عمن يتصل معه. تخشى
الكتابة إلى أختها بشكل صريح؛ تكتب، تمزّق، تطلب من
الاستاذ فرغلي إرساله إلى صديق له يشتغل في بلدها، يسلمها
بدوره إلى أهلها في أرض الجحيم. تقرأني لزميلها على مراحل
قبل الإرسال:

أختي الحبيبة فردوس

تحية طيبة وحنين متعاضم..

أسكن في فندق بارد حقير، يؤجر صاحبه الحمام لنزيل ينام
في حوض استحمام يُخلّيه لي كي أستحم. أذهب إلى المدرسة
بلا فطور في أغلب الأوقات. أشعر بالجوع، الشتاء يوجعني
أكثر، يزيدي لسع برده ألماً جراًء ملابس صيفية أرتديها في
شهر تشرين، فكما تعرفين، خرجت بدون ملابس شتوية. أحسّ

بارتجاف أضلعي من برد قارص آتٍ من جبال قاسية ومن رياح ثلجية عاتية. يرتعش الطباشير في يدي حين أكتب على السبورة. تغمرني مشاعر ضعف وأنا ألمح نظرات دونية من طالبات منعمات دافئات يسخرن من مظهري المتواضع..... نجوت من مسالخ الوطن ووقعت في مسالخ الغربية والحرمان. لم أستلم مرتباً لحد الآن..... يشيح مدرسون حكوميون من أبناء بلدي بوجوههم عتاً خوفاً منا كمعارضين للسلطة..... نسكن مع مدرس عربي طيب، في غرفة واحدة مع عائلته..... أنقل إلى المستشفى إثر تردي صحتي، أستلم في سيارة الاسعاف مفاتيح شقة بدون تدفئة ولا كهرباء ولا ماء. ننام ليلينا الاولى بكل ما لدينا من ملابس..... نصنع أثاثاً من صناديق أثاث متروكة في العراء، أغلفها بكارتون فيه ببيض خفافس سرعان ما تتكاثر وتنتشر في الشقة..... أطلع بجرادل الماء إلى الطابق الثالث لعدم توفر أنابيب المياه في الشقة وكذلك الكهرباء..... يخذلني مطيع في أمور كثيرة ويتفاقم عدم تفاهم بيننا فتزداد مشاكلنا..... أشعر بعزلة ووحدة وشوق عارم إلى بلدي وبحاجة إلى فعل شيء يجعلني أتمسك بالحياة وأجد لها معنى وحلاً..... أقرر أن أكون أمّاً كيلا أفقد أعصابي..... أستقيل من وظيفتي وأتفرغ لتربية طفلي..... أعيش في عزلة اجتماعية وعلاقات جافة مع ناس من حولي يعتبروني "العراقية الغربية"، وكأنني من كائنات الفضاء الخارجي..... أعيش وحدي بعد أن يغادر مطيع إلى بلد آخر يكون التنظيم الحزبي فيه أكثر نشاطاً..... أقتات على ما تبقى لي من جذاذ روحي وعزة نفسي، ومن نقود قليلة بعد بيع كل ما في البيت... أتقاضى ثمناً عن قص شعر جاراتي في انتظار تعييني في ولاية أخرى، أو السفر إلى بلد ذهب إليه مطيع..... أنا متعبة يا أختي، متعبة جداً، متعبة

وخائفة....."

يصغي فرغلي إليها متألماً.. تحكي له أيضاً عن عقلائيل وما ينصحها به، "لا تثقلي على أختك بالهموم، فضضي بهومك للاستاذ فرغلي أو لجارتك صليحة".

يؤيدها الاستاذ: "دي حالنا ودي قسمتنا، إحنا المغضوب عليهم". ينصحها بالركون إلى صوت العقل، بتحمل ما يجري لها والنظر إلى الأمام، "سيبك يا بنتي من اللي حصل، خلينا باللي لازم يحصل"، فما جدوى البوح لأخت بعيدة ومهمومة لا حول لها ولا قوة، أمر يجعلها تتألم مرتين، لحالها ولحال أختها.

تقتنع بكلامه، تخط كلمات مبتسرة:

"أشفاق اليكم جميعاً، انني بخير، أستمتع بحياة طيبة وصحة جيدة، وعندي أب أحبه وجارة حلوة أسمها صليحة....."

تعبّر عن سخطها من وضع تعيشه للاستاذ فرغلي كأبٍ تفتقده، يربّت على كتفها ويطمئنّها، تنزل من عينيه دمعة ومن فمه حسرة وأغنية (ليه يا زمان ما سبتناش أبرياء، وواخدنا ليه في طريق ما منوش رجوع، ما تسر سبيش يا سنيننا من بين ايدينا، وبكره نفرج مهما ضاقت علينا). يجد وقتاً كافياً للتحدث معها باعتباره جارها. يزورها، لا يستمتع بوقت يقضيه مع زوجها، يصفه بإنسان صامت منغلق ويتفهم ما تعانيه.

تشارك الاستاذ، صليحة، جارة أخرى من سكان البلد، في الاستماع إلى تفاصيل حياتها. تحكي لها نيدابا عن بيتها البعيد وعن ذكرياتها. تحدثها الجارة عن نفسها، عن انبهار مجنون بثقافة غرب، عن هاجس هجرة يطغي على تفكيرها ويستوطنها في لحظة ومنام. تتأرجح صليحة بين آمال وأحلام

وغدٍ أرحب سعة وأكثر فتنة، وبين خضوع لقسوة أهل وحظّ
شحيح.

* * *

حظّ

وُجد في لوح قديم: "في البدء الذي ورّعت فيه الأنصبة، كانت الحصة المخصصة لي العذاب والألم". يؤمن بي بعض الناس، يلقون اللوم عليّ إن يُفجّعوا بآمالهم، (اللي ما جابت يده يقول السعد خان بيّ، واللي ما طال سعه يقول تشاورو عليّ). يشبهونني بامرأة جميلة تمشي على وجه الأرض، تقبّل عشوائياً بعض الناس دون غيرهم، ورغم اني كيان هلامي وغير منطقي، يصدف أن تجدني أمامك، أمرّ بك، وقد لا تعيرني اهتماماً. يقولون اني أُحوّم فوق رؤوسهم وأختار أحدهم فأحط عليه، أطلع من لا مكان، من عدم، أولد من فرصة عندما يتوازي خط رغبات مع خط توجه في حياة ما. يرون وجهي الحسن في توفيق ورفاه حين تتوفر صدفة ذات معنى لمن لديهم جد، إرادة، مثابرة. ويتجلى وجهي الآخر في النحس، لمن يتعكز على كسل وعجز. أجمل ما فيّ غموضي، فلا أعرف هل أصنع الناس أم يصنعونني؟ من هم المحظوظون وغير المحظوظين؟ ليس لدي علم. شكسير مثلاً، يغدو مشهوراً دوناً عن غيره من معاصريه، لماذا؟ أسمعه يقول: "العيب ليس في طالعنا، بل العيب في أنفسنا". ماذا تقول يا أديب عن الذي يربح جوائز اليانصيب؟ عمن يولد في أسرة غنية أو سعيدة ومتفهمة؟ ما شأن أنفسهم بذلك؟ يذكر كتاب مقدس لدى لبشر بأنه لا ينال مكاناً مرفهاً ومباهجاً "الا ذو حظ عظيم". حين لا

يطالني من لا أكون عظيماً عنده، يندبني في شعر: "ان حظي كدقيق بين شوك نثروه، ثم قالوا لحفاة يوم ريح إجمعوه"، أو "أنا العاشق السيء الحظ، لا أستطيع الذهاب إليك ولا أستطيع الرجوع إلي"، "سعد الزينة في الحما وسعد الشينة في السما"، وكثيراً ما أجدني في أغانيهم.

يشح منسوبي في حياة نيدابا، كما في حياة أمها وجدتها. لا يشفع جمال ولا كمال ليسعدن ويرتحن. يكتفين بأمثال وحسرات: "حظ الملايح طايح، وحظ القبايح بالسما لايح"، "الدنيا حظوظ". تعزز هذه الشكوى أم هشام: "شفت السعيدة ولحكتها، عبالى تشاركنى ابختها، ثاري البخت الها ولختها". تؤكد بأنى أنتقل بالجينات وان الناس يتوارثون خبياتهم أو فلاحهم عن أسلافهم، وبأنها لا تمتلك أكثر من سوئي.

ثمة شخص آخر يشكو مني:

- ملقاش البخت، سعدي خان بيّا، ما يُحسّ بالجمرة غير اللي يعفس غلاها، لو تعرفي وش اللي فيّا، غير وربّي تبكي عليّا.

تكشف صليحة لنيدابا كدمات آثار عنف ذكورية على جسدها يخلفها أخوها، سي بو علام. تصبّرها، تتحدث إلى جارتها بلهجتها مازحة، تشاركها همومها. تكتب عنها فردوس في رسالة إلى أختها البعيدة:

أختي..... تعيش جارتى صليحة طفولتها على قليل من الطعام أو على كسرة خبز مدهونة بقليل من الزبدة مع حبّات تمر. تنتظر كل عام خروف العيد بلهفة لتتذوق اللحم، تعمل أمها من عظم الخروف مرقّة مترفة، تملّح وتجفف ما يتبقى من لحم على حبال الغسيل. تظل عائلتها تحلم بعيد آخر. تمتلك صليحة أحلاماً مهيضة كالهجرة والسفر إلى بلاد الغرب مثل

الكثيرين غيرها. مفارقة مؤلمة أن يخرج الاستعمار ويتحرر البلد منذ زمن لكنه يظل قابلاً في نفوس وأحلام أغلب الناس. لصليحة أحلام كبيرة وخيبات أمل غير قادرة على انتصار، تماثل حكاياتها، حكايات أخريات وآخرين بعمرها. تخصني بالبوح عن عشقها لشباب اسمه الساسي تتطلع إلى اللحاق به بعد هجرته للعمل في خارج البلد، تقول أنه حظها وبختها، والذي سيحقق أحلامها في عيش رغيد.

تحكي لصليحة عن حياة عاشتها، عما تتوصل إليه من خلال تجربتها، عن طريقين للحياة لا غير، المواجهة أو الخنوع، عن وعورة درب سلكته طويلاً في الهروب من المواجهة، عن الإنسان ينعم بقوة فريدة تطلع وقت أزمته، تتيح له سيراً في نهج قد يغير بؤس حياته باختيار وقرار دون عجز وفرار، فيجد فيه بدائل ومنافذ لطاقة خفية تخلق له وشائج متينة بالحياة، مثل مسرات صغيرة، أو أهداف متواضعة، أو رسالة ذات قيمة يؤديها بحب واثقان. تدرك ذلك، يوم تفرغ شحنات حب محجور في خلاياها إلى ما هو ناتج عن تلك الخلايا، عندما تصبح الأمومة اختيارها وتجنب طفلاً في ظروف نفسية واقتصادية متعبة، علّه يجمل حياة يكسوها قبح وخواء.

تطلب من صليحة أن تنظر إلى جمالها في المرأة بعد أن تجمل لها شعرها، أن تفرح بشبابها وتكون زهرة في شجرة الكرز أو "حب الملوك":

- أش جاب الشوك على حب الملوك، إذا عاد القلب مهموم، اسأل الوجه باش يعطيك أخباره.

تمزح معها للتخفيف من همها، علّ عدوى المرح تنتقل إليها:

- الباهي باهي لو كان ينهوض من النوم، والباشع باشع لو كان كل يوم يعوم.

تنشبث صليحة بيدها، تطلب منها وتترجاها ان تعدل عن قرار الرحيل واللاحاق بمطيع، تحكي لها عن حاجتها إلى وجودها في حياتها كصديقة وأخت. تلمح إلى تفكيرها بالشروع بعمل أحق، باختيار درب الهروب نحو الفناء:

- فراقك موش ساهل، لشكون أشكي وأبكي غدوا؟ لو سافرتي وربّي غير نهربو لو ننتحرو، دبّرّي راسك.

تسقط ضحكة باهتة من فم نيدابا، تجيبها بمزاح مرّ وبمزاج غير متأهب لاحتواء متاعب أكبر:

- انتحري، حتى يصير اسم بلدكم بلد المليون شهيد وشهيدة واحدة، اسمها صليحة. صيري قوية، لا حال يدوم، كيما مُشات الضحكة تمشي الهموم.

تكتم ألماً ظاهراً في محاولة لإضفاء أجواء أمل في آخر حديث يدور بينهما قبل أن يحدث ما جرى لها:

- الحياة صعبة بزّاف.. ماذا بنا نعيشو شوية ونفرح.

تنشغل نيدابا بعد ذلك عن صليحة بتحضيراتها للسفر.

في صباح يوم خريفي عاصف تصحو على أصوات لغط آتية من شقة أمام شقتها، تطلع لاستقصاء الخبر، تعلمها جارة كبيرة في السن واقفة عند باب بيتها، أن أهل صليحة يبحثون عنها، "هزبت الطفلة.. باباها بو عيّاش وخوها سي بوعلام راهم يحوسو عليها، وربّي غير يذبوها لو يلقوها".

لم تسمع نيدابا منذ ذلك اليوم خبراً عن صليحة ولا تعلم شيئاً عن مكانها أو حالها. ها هو حلم آخر يتهاوى. ثمة من يقول

أنها انتحرت وأنهم وجدوا جثتها قرب مكان جبلي خارج المدينة. يتهم البعض بأن والدها وأخاها قاما بقتلها ورمي جثتها في الوادي. يزعم آخرون بأنهم شاهدوها في أحد شوارع باريس مع الساسي عشيقها، بينما يقسم عدد قليل بأنه شاهد الفتاة في حلقة دراسية داخل أحد المساجد، تتلفع بحجاب مبالغ فيه وتحرص على العبادة منشغلة عن كل ما حولها.

خبر آخر يصعقها وحلم آخر يموت، فبعد اختفائه لعدة أيام، يكتشف حارس العمارة الأستاذ فرغلي ميتاً في شقته، يكشف التقرير الطبي أن وفاته ناجمة عن تسمم من طعام فاسد. في آخر مرة تحدثت معه نيدابا، أخبرها عن نيّته العودة إلى بلاده كلياً عند نهاية العام الدراسي. يرحل قابراً معه أحلامه بعد ترقب وانتظار طويلين.

قبل أن تغلق باب شقة سكنتها لسنين، تتلفت في أرجائها متأملة صور حياة كانت مكتظة في كل زاوية من زواياها.

"هنا حلمت وانتظرت. هنا انزويت باكية. هنا امتصتني دماسة ليل وأنا أحاول عبثاً الفكاك من ظلام ومن كمد. هنا تَسَلَّقْتِي قلق فتاك وربض عليّ غول حرمان وقسوة. في هذه الزاوية خصصت ركناً لمكتبة صغيرة. في هذه البقعة شهدت فرحة شراء أول صحن وأول ملعقة. هنا حبا طفلي، هنا خطأ خطوته الأولى، هنا حكيت له أول حكاية. هنا ضاعت سنين من شباب لن يعود. سأخرج من هنا كما جئت من هناك، بحقيبة سفر ومجهولية غد وحياة لن تشهد استقراراً، يا ليتني أكون بلا ذاكرة كالمحيط".

تنزل بتثاقل من على السلالم، تجاهد في سحب حقيبتها وإرادتها. تسمع صوت مطرب من راديو بيت الجيران وكأنه يخصصها بأغنيته: (اللي اشتكى من لُضْرار، قلّو يكون صُبّار،

راهي الزمان غدار، ومحايلو قُوَّية، يرويك كاس المُرار،
ويسقيك بلمزِيَّة).

الى أين يا نيدابا؟ أعتذر لك قلّتي في حياتك. لكن أين
ستذهبين ثانية؟ هل ما تزالين على قيد السفر والأمل؟ هل
ستجدينني في مكان آخر تصنعين جنينه وجديده؟ هل سيكون
آخر الأماكن وآخر الأحزان؟ أسمعك تقولين كما يقول
متعوسون في هذا البلد: "قليل البخت يلقي العظم في الكرشة".
كل ما أتمناه هو أن أرافقك في محطتك القادمة.

متنزه

على البحيرة الشمالية، تطلّ رابية زهر متوردة، على
سطحها يعوم كبار بط ويلحقه بانتظام جيل جديد من سلالته.
أنحني للطبيعة لمنحي نعمة الجمال وبهجة السخاء. لا أبتئس
من غلظة شتاء أو غري خريف أو حر صيف، ولا يغمني
ذبول زهرة لأنني على علم بأنها ستنفج في موسم آخر. غير
أن البشر يتألمون بصورة غير سوية، "يا زهور نرجس بهيّة /
نذرف دموعنا حينما نلمحك تتلاشين بعجالة، مثل شمس مبكرة
لم تدرك ظهيرتها / تريثي، تريثي حتى مضى النهار العجول
نحو ترنيمة المساء / كيما نتضرع معاً، ونمضي بعد ذلك معاً /
فكما لديك ربيعاً قصيراً، لدينا أياماً قصيرة / ومثل نمو حثيث
لنا، ومثل وجود ذاوٍ لك، نتلاشى كلانا بالتالي / كمطر صيف /
كلأى ندى صباحية / تتوارى ثم تنمحي إلى الأبد".

ألمح حزناً بائناً على وجه السيدة، تجلس بمحاذاة السيد
الكاتب، تسترجع ملاحظاتها عن شخوص حكاياته وانتظارهم
لما يلّم هشيم أحلام متطايرة لهم، "ليس من الضروري أن
يكون المرء من بلد معين لتخيب آماله، الجميع موشومون
بخيبتهم مع اختلافها. لكن، أما من سبيل لترميم ذواتهم
ومعالجة رؤاهم الخاصة أدبياً؟ هل سيتترك الكاتب شخصياته
تقع في زوايا واقع مرير دون معالجة بتلاويح أمل؟"

يتبادل الكاتب مع السيدة الحديث عن العلاقة التفاعلية ما بين أحداث مملة ثقيلة وإيقاع غير حثيث للحكي، عن محلية النص وشيوع استخدام اللهجات واللغة المحكية في الحياة الأدبية، عن إلزام الصنعة الكتابية بالتماهي مع الواقع أو بنقل صورة أمينة عنه بمساحة خيال مُضاف.

يمشيان ويتواصلان بالحديث. تصغي السيدة إلى محدثها باهتمام وهو يحاول تبيان وجهات نظره. يتوقفان عند الرابية. تجهد طبيعة خلابة في استعراض مفاتها لهما في إضرار عشب وتلون زهر، غير أنهما لا يعيرانها أدنى اهتمام.

يستدرك الكاتب الوقت، يعتذر من السيدة لانشغاله، يسلمها أوراقاً جديدة بعد أن يودعها على أمل لقاء قريب، يسعى مسرعاً نحو البوابة. تجلس على مصطبة تحت شجرة صفاف وتقرأ المحكية الرابعة.

المحكية الرابعة

تتهدات الياسمين



"وأناجي ذاكرة الحزن المكسور/ وسفر المرافىء،
وطقوس الهجرات / أيها الممهور بوشم التعب،
والتجوال/ سلاماً بحجم الصمت، والسكون، والذكريات"

حارة

لا ألومها أبداً. لا أظن حالي يعجبها. امرأة غريبة، تغطس
قدماها في حفر دروبي، لا ترى أي جمال في مناظر تغمّ النفس
وتخنق الأنفاس. ما يشفع لي، عراقة أرضي وخلودها في
قصائد شعراء خطّوا أرقّ الأشعار في نعومتها ونعيمها، (قرأت
مجدك في قلبي وفي الكتب، شام ما المجد أنت المجد لم يغب).
لا تصدّق الغريبة ما يقال بحق بهاء مدينتي عندما تبصرني
مكتظة بناس محشورين في أحشاء بيوت عشوائية تطلّ على
أجساد شوارع عارية كُشط عنها الاسفلات، يقطن فقراء
ومشرّدون دوراً طارئة بلا تنسيق ولا اكتمال بناء "على
العظم"، تخلو من ذوق، يبينها بعجالة من يملك مالا كثيراً
ويؤجرها لمن لا يملك إلا القليل منه. تزدحم على سطوحها
هوائيات تلفزيونات يستوطنها حمام بيتي تاركاً سلّحه عليها،
مساكن تجهل ترافة عيش ونقاء هواء وتضوّع ياسمين، يطلع
منها شباب بوجوه شاحبة صلدة وبملابس رثة مزيّنة، يدخنون
سجائر محلية، يرمون أعقابها أرضاً، يذهب نحوها كهول
متباطئون، يسحبون أقدامهم بتعب وتثاقل، يرفعون أيديهم بسلام
واهن دون تكليف شفاههم عناء ابتسامة، يسعلون ويبصقون من
رئات منهكة، لا يحددون ببصرهم عن أرض الزقاق، مخافة
الانزلاق أرضاً بقشر بطيخ أو بمخلفات قمامة متناثرة، تتجمع

حولها قطط بأضلاع بارزة ويدور فوقها ذباب عنيد. الى تلك البيوت، يسرع أطفال وأحداث حاملين أطباق حمص وأكياس فلافل، يمشي صبيان آخرون نحو مدارسهم بملابس طلائع خاكية وبوجوه متعكرة، تسحب نساء خطى ثقيلة سائرات بحركة رتيبة كالبن دول، تارة نحو اليمين وتارة نحو اليسار، يغطين رؤوسهن بمناديل تخفي شيباً وزمناً عسيراً، يحملن ربطات خبز وأكياساً سوداء تعلوها ربطات بقدونس وملوخية، يفكرن بيوم جديد ثقيل، بطبخة أخرى محيرة، بأولاد ومسؤوليات.

أمتد في أبواب وشبابيك مفتوحة، تنطلق عبرها أصوات متشابكة لرجال متسلطين، لنساء متشكيات، لأطفال رضع باكين، لصوت قائد يخطب من مذيع، لموسيقى وأغان من أجهزة تسجيل، يمتزج كل ذلك الصخب بتعليقات، تتحول إلى سباب أو صراخ:

- على راسي ملك الطرب والروءاان.... لك سدي هلبوز يا مرة، لا تطيري السكره من راسنا.. ربة الوجه العبوسي.. أوووف، نزعت الجذبة مراني.. (يا مال الشام يله يا مالي..... آه..... ربة الوجه الصبح، أنت عنوان الأمل)

- "لك حاج تحوص يا صوص، صرعتنا.. حاج نطوزة.. حلّ عني ولاه! لعمى بئلك.. بيعتلك حمى.." (صيدلي يا صيدلي يا صيدلي، بدّي دوا إلها وبدّي دوا إلي)

- "لو تطلع نخلة براسك.. ما عندي، منين أجيب؟ متعجبك الفلافل؟ لا تاكل، يطبك مرض، زقنبوت وقولنج". (فوگ النخل فوق، يابه فوگ النخل فوگ)

- اننا نناضل من أجل حياة كريمة لشعبنا ولأمتنا..... وفي

كل أرجاء وطننا العرب، من شماله إلى جنوب ، ومن شرقه إلى غرب..... مؤامرات العدو..... لن نستكين حتى تتحرر كافة أراضينا السليبية..... وتوفير العيش الرغيب..... "لَكْ اطفيلي ضُرَّاب السخن هاد... إختا وطن عربي".

(بكتب اسمك يبلادي، علشمس الما بتغيب).. أين مكتوب إسم هذه البلاد يا تُرى؟ عن أي شمس وعن أي شروق يغنون؟. حال مزرٍ لي لا يسمح لسنّا مضيء أن يخترقني. تغيب عني شمس في أيام صيف فأبدو معتمة، ويغمرنني في الشتاء وحل دبق ومياه أسنة يحوم عليها بعوض وبرغش، ومع رياح الخريف، تتطاير على أرضي قشور حب زهرة عبّاد الشمس، أكياس نايلون سوداء فارغة مع غبار أهوج، وتتطاير معها أمان وأحلام بتحسن وضع وتغيير حال.

أتمدد في تجاوفي. أرى كيف يتعلّب فيها ناس ضائعون في زمن ضاع في الزمن، بشر حديدون صابرون بمواجع حديدية قاصمة. أهل بلد معدمو حال، لاجئون عرب، جيران منفيون، غجر تقليديون وعصريون، متشردون محرومون، عاجزون قانطون، حالمون منتظرون، علّ كوة في السماء تمطر يوماً رحمة لهم، تعوّض ألامهم سعادة وجدبهم إضراراً دون أضرار. على أرضي، كل شيء باهض وللمصري والليرة، طنة وشنة، يشتغل الجميع أي شي وكل شيء، و"يللي ماعندو مصري، خليه لا يبقى بداري".

حالي لا يعجب حمار محمّل بأوان معدنية، ينهق متضايقاً من عفونة وضيق درب، يزجره بائع الحليب زاعقاً ضارباً، "لَكْ لإيمتي تظل حرنان ياحمار؟ العمى على هلشغله.. راح طعميك قتلة محرزة". ينصاع الحمار وراء نداء يومي لصاحبه: "حليب، مقشّات بيتيات". يذعن كما يذعن ويعتاد

سكاني على أوضاعهم.

تزدحم شوارع المدينة حولي بسيارات تطلق أبواقاً لسبب أو بدونه، بناس راجلين متبضعين، بباعة متجولين في أسواق مزدانة ببضاعة من كل شكل ولون. يطارد رجال شرطة فتیاناً لحوحين، أطفالاً متسولين، بائعین غیر مرخصین، يدوسون بأحذيتهم على بضائعهم، يقبضون عليهم. يدس بعض منهم بعض المال في جيوب رجال الأمن، يتركونهم ويمضون. صخب، ضجيج- عجة - في كل مكان. محلات تُغري أصحابها زبائن مارّين بعروض خاصة ميسرة، ببضائع متنوعة، بكل ما يلدّ ويحلو، "تفضلي آنسة.. أحلى الموديلات، فيه تشكيلات أحلى جوّه.. تفضلي، تفضلي". (يا إم الفستان الزهر، مخبيكي بعيوني).

ملابس زاهية في واجهات محلات، معروضات جذابة بأشكال مغرية، مانيكانات رشيقات تُغري متطلعات إلى جمال وأناقة. "هيا اشترى ما يحلو لك يا ست البنات، ما زلت في عز الشباب، كم مرة تعيشين؟ أبوه، مرة واحدة وعمرأ واحداً. هيا، البسي، تمتعي، هذا الفستان يلبق لك، لونه الزهري سيغير حياتك، يبرز مفاتن جسدك، أنه مصنوع خصيصاً لك، هيا، قيسيه، لن تخسري شيئاً. انظري في المرأة، ما أجمله! يا لطيف! قدّيش حلو عليك، يخزي العين، راح ياكل منك شقه".

ينتهر صاحب محل فرصة توقف امرأة غريبة أمام واجهة دكانه، يدعوها بلباقة تاجر: "شرّفي مدام. كل شي موجود؛ شرّاشف قطن، مفارش، حرامات، بشاكير، كنزات صوف، كلاسين. شرّفي، شرّفي جوّه، كل شي رخيص".

لا تكذب يا رجل، فما من شيء رخيص عندكم سوى بني البشر، ماعدا ذلك، كل شيء باهض الكلفة وغالي الثمن.

يستغل بائع حلويات دخول الغريبة لمحله بنية التفرج،
يغريها بالشراء ماداً يده نحوها بقطعة حلوى، "ذوئي مدام. عَنَّا
حلويات من كل الأشكال والأصناف؛ عربي، افرنجي، كنافة
ناعمة، خشنة، بالزيت، بالسمنة البلدي، حلاوة جبنة، معمول
بالجوز، بالعجوة، برازق، عش العصفور، بثلاوة حلوة مثل
هلعيون. تفضلي، تفضلي. حلّي أيامك، وخللي ببالك، بضاعتنا
أصلية مرتبة. لكان.. مو كل من صف الصواني صار حلواني.
لا يسع الغرباء على أرضي إلا أن يتذوقوا مرارة أيام
حرمان وملوحة غربة.

* * *

غربة

ما من أحد يحبني. أكسي المغتربين بزمان كالح مسنّج يخلو من قيم راقية. عتبي على زمان يخرج لسانه هازئاً، يعرض في سوق نخاسته ونجاسته منفيين، مشردين، معوزين، يبصقون عليه وعليّ، أبصق معهم، تفوو عليك يا زمان إذا تحرم طفلاً من لعبة أو قطعة حلوى، إذا تسرق ابتسامة من شفتين أو تبخل بمسرة وطمأنينة.

لن أوقّر ملاذاً ولا سكينة عندما أكون مفروضة قسراً على الناس، ولا أروق لنيدابا التي تمضي في أنسجتي وزمني وأمضي في انسجتها وزمنها، فلا أهضمها ولا تهضمني. تحملني وتحمل كيس ملابس مستعملة اشتريته من سوق البالة تواء. تقف أمام بيت للإيجار، في مدخله باب حديدي واطئ يلتهمه صداً قديم، يفتحه سمسار الحارة، فيندّ عنه صرير مرعب. تنزل درجات صخرية ثلاثاً توصل إلى مدخل مظلم. تذهب بخيالها إلى بيت آخر بعيد عني وعن خشونة معناني وحقيقتي. نفيق من تخيلاتنا على صوت معترضاً: "شو غالي ماغالي؟ هاد مو حكي، أنا عم بعطيكم بيت مكمل مأسس مو فاضي. شيه! مو معنول، يلعن أبو المصاري، مين مات وأخذ معه ليره؟ هاتو، هاتو المصاري، خلونا نخلص من هلقصه منشان معزة الأخوة العراقيين".

"عرائين" كمان؟

أريكة حديدية صدئة مركونة في غرفة وحيدة للدار، قبالتها طاولة متآكلة الأطراف. جُحر فأر مظلم يجعلونه مطبخاً، طباخ غازي صغير يعلو طاولة خشبية، صحنان معدنيان، ملعقتان معدنيتان، كأسان صغيران، صينية ألومنيوم وابريق شاي مجعلك. "مِة ما في بالحارة، للغسيل تملّون الخزان من تبع أبو الطنبر، وللشرب، تشترون مِة الفيجا".

تعيد القصة نفسها بطابع كوميدي أسود. ترجعين من جديد إلى نقطة البداية، تؤسسين حياة جديدة، بيتاً آخر، هماً آخر. قسمة ومقسومة يا نيدابا.

"يحرك والدي عبد الهادي رأسه بتقوى وتيقن دلالة على إيمان بالقضاء والقدر مفروغ منه، يتفوه بجمل جاهزة وأمثال مخدرة يحسبها مقدسة، يحقن ناس كثيرون بها عقولهم، ينمو سائل ايمانهم بأهميتها، يتصلب بقوام كثيف، ليكون في دواخلكم بالتالي قرميداً من قناعات وغيبيات خاوية خائبة، ينفع استمرارها وإستمرارها إثراء واقع أجوف؛ "لا تفكر لها مديّر، القناعة كنز لا يفنى، قسمة ونصيب، الله كريم، إذا حلّ القدر عمي البصر، قل ما يصيبنا إلّا ما كُتب لنا، المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين، إحشيتها خروء تروء". ليتني أستطيع القيام بعملية تبديل الجبين، أو أدعه بمسحوق غسيل جبار قادر على محو ما كُتب عليه".

يعينها عقلانيل على تحمل متاعبي: "لا بأس عليك نيدابا. تلك مدينة قريبة لبلدك بجغرافيتها وحضارتها، تعرفين بعض ضواحيها ومعالمها، تنتسمين من خلال هوائها رائحة بلد قريب إلى قلبك، تسمعين أخباره من قادمين إليها منه. يكفي، على نحو ما، النظر إلى أسواقها، التجول في شوارعها، الاستمتاع

بحدائقها والاستئناس بطيبة أهلها. ثمة غد قادم في الأفق لا محالة، بكرًا بيخلص هالكابوس وبدل الشمس بتضوي شمس. اصبري ريثما تتحسن الأحوال".

كم من الخطوات عليها أن تسلك في دروبي، كم من الصبر تحتاج لتتقضي حالة - نحن هنا اليوم وباچر مندري وين. هل من سبيل إلى نزع وشم قلق يطبعه الزمن على روحها وملامحها؟ من بإمكانه اصطياد جرذان وجع ما تفتأ تقرض أيامها؟ ماذا أريد منها بالتحديد؟ كيف يتسنى لمخلوقات طارئة أن تقعى هنا دون إقامة وعمل ولا اعتراف بحقوق ولا سكن يؤويهم ولا مال؟ كيف سيُربون أطفالاً في واقع جيلاتيني هلامي فاقد لثبات، لا قدرة لهم فيه على استجلاء ما بعد ضبابيته؟

يحضر عقلائيل مقاوماً حالة وهن: "قومي بسكب روحك بمنخل كبير حتى ينزلق من ثقبه ناعم حياتك فاخزنيه، وما يركد من خشنها، أرميه في البحر، كلا، لا تذريره ولا تدفنيه، أحرقه حرقاً كيلا يخلّف أثراً. لا تاكلي هم، سينفثع الضباب يوماً ما. تربيته، ما من حال إلّا ويتغير إلى آخر. بحثي عن غرباء مثلك، عن أصدقاء قد تعرفيهم، تقاسمي معهم همومك، الناس لبعضها، وتقاسم الهم يجلي بعضه".

أجمعهما على أرضي مع شخص تعرفه جيداً. تلمحه عن بعد واقفاً على عتبة محل صائغ. فلاح عناد، أخو الشهيد صلاح الدين، صديق أخيها هشام، تعرفه من ملامحه وصوته رغم تغير شكله، تتذكره:

"في طريقي إلى المدرسة، كان يناولني منشورات طلابية وحزبية، بين طياتها يخفي رسائل منقولة من كراس بعنوان - كيف تكتب الرسائل الغرامية. لا يلقي مني تجاوباً يرضيه،

ومع ذلك يكرر محاولاته. يزورني في الجامعة، يراني مع مخلد حلمي، لا يخفي ضيقه. يتبارى معه في سجال حول جدوى التحالف مع الحزب الحاكم، مع حزب فاشي قومي شوفيني معروف بتاريخه الدموي، لا يفيد بشيء تقديم تنازلات له أضحية لمبدأ التحالف. ينصحه مخلد حلمي بضرورة محافظة حزبه على استقلال سياسي وفكري خاصين، يأتي على ذكر اعتقالات، اختطافات، محاصرة لرفاق أثناء فترة التحالف الجبهوي وغيرها من الخروقات. يخالف فلاح عناد آرائه وينتهي به الأمر إلى الزعل دون وداعي. يغيب لفترة طويلة وتنقطع أخباره غير سماعي عن حصوله على بعثة دراسية في بلد اشتراكي".

- معقوله؟ صدفه عجيبة. فلاح عناد بلحمه وعظمه؟

"لولا الحياء لقلت بلحمه وشحمه"

- نيدايا عبد الهادي؟

يتلفت مُخرجاً. يتردد في رد التحية. يتقدم صوبها يسبقه كرشه. يحييها ببرود وبلهجة متكبرة تضيف عليه عجرفة مفتعلة. تصافحه نيدايا فرحة رغم ما على صدرها من هم ثقيل.

* * *

هم

لا مفر مني، أستولي على تفكير الإنسان، أكدر نفسه، يضيق صدره بما أحدثه من كمد وحزن طول حياته. أجد نفسي تحت جلد فلاح عناد، حينما يرى عشقه القديم أمام ناظريه.

يتذكرها جيداً، تعود إلى باله أيام عاشها في لا يودّ استرجاعها، أنط من رأسه، أطفح من بين طيّات فاقة، عوز، أب مشلول عاجز، أم حفاقة تقضي عمرها أما منحنية الهامة على وجوه زبونات أو باحثة عن ابنها الكبير في المعتقلات، كومة من أخوة واخوات، حرمان. ويطلّ وجه نيدابا فيمحي ظلمة متاعبه. كيف ينساها في؟ كيف ينساني فيها؟

"أي قدر وضعها في طريقي اليوم بعد هذا الزمن؟ كانت هذه الفتاة حلمي. أفعل كل ما في وسعي علّها تتجاوب معي. أسعى بجهد لاستلاف دراجة أطوف بها في أزقة قريبة من بيتها ومدرستها منتظراً قدومها. أعجب لأنها لا ترى قلبي أمامي، طائراً في فضائها قبلي. تتلفت فزعة، ما الذّ فزعها، حينما أسلمها أوراقاً ممنوعة، منشورات داعية لمساواة وعدالة اجتماعية أخفيها تحت قميصي! تأخذها مني بحذر وتمضي بروحي. أسهر ليالي طويلة خاطاً لها رسائل غرامية، أبوح فيها بهيامي نثراً وشعراً، أجزؤ يوماً وأدسّها بين تلك المنوعات السياسية. تصدمني، تصدني، تعرض عني وعن حبي، تتركني أعاني خيبتني وانهيار أمني. تهوى فتى غيري

وأغوص أنا في غائط أحلامي وخيباتي. في فترة غربتي، أحلم بها أحلاماً مهشّمة تساهم في تعطيب قدراتي وشخصيتي، تظلّ ملهمتي الوحيدة في قصائدي. أكتب لها: إلى الجرح الذي يعذبني وأحبه/ كانت روزا لوكسمبورغ قوية مثلك/ ولحد ما، فقدت الصلة ما بين الممكن والواقع/ لكنما الذي حدث بعد حين/ أنها ظلّت صامتة/ حتى ماتت مثل بوذي أحرق.

لوهلة من الزمن، لا يحيد بعينيّه عن عينيها الخضراوين. تمرّ في داخله عصارة ما مضى من وجد، من مشاعر نارية تكاد تندلع من فرن قلبه. يشتهي أخذها بين يديه، تطويقها، الطواف معها في عوالم تلغيني وتلغي العالم بأسره. يبتغي القول لها، "مشتاق لك منذ قرون، كم أتعبّيتني؟ كم تمنيت واصلك؟"

تعاتبها عيونه دون كلام، تحتويها، يسمّر نظراته في عينيها، يعهد لها أليفة حادة: "نيدابا عبد الهادي؟ أهلاً أهلاً، هاي شلون عرفتيني؟"

يشعر أنها تنظر إلى قيافته باستغراب. تتأمل بدلة أنيقة يناسق معها ربطة عنق حريرية. تغمرها رائحة عطر ثمين تهبّ صوبها كلما يقترب منها. تتعجب في سرها، "كم تغيّر ذلك الفتى النحيل الأسمر!"

"ربما تتساءل كيف تغيّرت على هذا النحو؟ لم لا أغيّر؟ هل يبقى حالي على ما هو عليه دوناً عن البشر؟.. (للزمن ديماً حالات، يا ما بيغيّر حاجات). زمن مرّ وغير وطور؛ أحصل فيه على شهادة الدكتوراه من الاتحاد السوفيتي، أقترن بأمرأة من ذلك البلد، يصبح عندي طفلان، أتفرغ للعمل الحزبي، تنقطع أخبار أمي وإخوتي عني، أقضي عطلتي

متنقلا بين موسكو ودمشق، تصبح لي حياة مستقرة ومعارف
ذوو سطوة ومركز، هذا كل ما في القصة".

يقفان قبالة بعضيهما دونما كلام. يرى وجهاً كأنه طالع للتو
من مرثية، لا بل من تقاسيم مقام صبا يعزف من ناي مشروخ.
يكسر الصمت ويسألها عن حالها.

- آني زينة، أنت شلونك؟ "موجودة وموجوعة، وفي حالة
تقدم ملحوظ في الضنك والغم يا صديقي".

يرجع إلى أنه الحالية، يبدي استعداداه لتقديم يد العون لها لو
تكون بحاجة إلى واسطة أو وظيفة. تجيبه بأنفة كعادتها:

- شكراً إلك، عيشة، ماكو شي ينقصني.

"متعجرفة هذه المرأة على الدوام، تتقص دائماً دور
قديسة وضحية، عليها اليوم التخلي عن الصورة الملائكية
التي ترسمها لنفسها. لا أدرك أساساً واضحاً تستند عليه
صلابة روحية لها، تنشد الكمال وهي لا تعرف ما تريد
بالضبط. كم كنت أحبها! لم يتنام سيل كراهيتي لها إلا حين
رفضت حبي، ما من ريب لسبب طبقي، لم تبادل حب ابن
الحفافة الفقيرة بحب، لم تحب فقيراً حافياً لا يملك ثمن هدية
بسيطة تفرحها. أستعذب رؤيتها وهي بحاجة لمساعدتي،
أتمنى أن أساعدها اليوم لأثبت مقدرتي وسطوتي عليها. أو
ربما لسبب آخر. هل ما زلتُ أحبها وأشتهيها؟ كلا. فات زمن
عشق المراهقين، ولّى عهد الحب الجارف. أريدها أن تدرك
ما وصلت إليه، ها أنذا الآن أفضل حالاً منها كما أظن، أودّ
رؤيتها نادمة على صدها لي بعدما حملتُ لها حباً عارماً شابه
عذاب ومرار. ما سر هذه الرغبة في الانتقال لماضٍ راح
وولّى؟ أمر النفس البشرية محير".

يتطرقان إلى مواضيع عامة في حديثهما، إلى أمور السياسة والبلد بعيدة كل البعد عما يفكران به. يخبرها معتذراً، لإثبات أهميته، عن ارتباطه بموعد هام مع أحد المسؤولين وأن عليه مغادرتها. تهزّ رأسها دلالة تفهم. تصافحه راغبة بالمغادرة أيضاً.

قبل أن يودعها، يهمس بأذنها: "نيدابا، إسمي الدكتور غانم مرهون، إنسي فلاح عناد رجاءً. وإذا احتجت لشيء..."، يضع سبابته على عينه، في إشارة إلى استعداده لتقديم المساعدة.

ما زالت كما عرفها، تغادره باعتداد غير مهتمة بأمره، من الواضح أنها لا يمكن أن تحبه، فقيراً كان أم غنياً.

"لا أدري كيف أصل إليك يا فلاح عناد، أو يا غانم يا مرهون. لا أعلم في أي حي راق تسكن، كما لا تعلم أنت يقيناً عن سكني في أفقر الأحياء الشعبية، في بيت شرقي رطب، يعجّ برائحة مخلفات غاز مدفأة مازوت عتيقة، ويعفن ورطوبة".

يخفف وطأتي ما تستمع إليه من حكايات حارقة لناس من بلادها، ومن بائعة الباقلاء، جارتها.

تناولها أم حيدر صحن باقلاء ساخن، تسقط دمعة من عينها على ماء القدر سهواً عندما تتذكر قصراً منيفاً كانت تسكنه، تصف لنيدابا ما يحتويه من أعمدة مرمر وأثاث فاخر، يسلبه رجال الأمن منها، يرمونها بملابس نومها على حدود البلد، يطلقون رصاصات تحذيرية، صيحات، أوامر بالركض إلى الجانب الآخر وعدم الالتفات إلى الوراء. لا يؤلمها حالها بقدر ما يقلقها أمر أولاد أربعة تتركهم في بلدها، تعلم أنهم محتجزون في سجن صحراوي منعزل، لا يكون بيدها حيلة

سوى أن تجيء إلى هذا البلد العاجّ بناس من بلدها علّها تجد سبيلاً للإطمئنان عليهم. لا تكفّ عن النواح، كلما ترى نيدابا:

- بنتي، ما سمعتي شي عن المعتقلين التبعية؟ أريد شوفة ولدي قبل ما أمو...

كمّ مندفع من غزير عاطفة ونشيج روح، يحولان بينها وبين إكمال جملتها، تمسح بفوطتها دمعتين تسيلان من بئري حزنها، يفيضان بنظرات مترجية سائلة شخصاً قادماً عن أولادها المحتجزين:

- يمّه أسماؤهم، حيدر وجعفر ورسول ومرتضى، أخذوهم لسجن نغرة السلّمان، وأبوهم اسمه علي، چان تاجر بسوگ الشورجة، رحم الله والديه كل من سمع عنهم أو شافهم.

يتجاهل البعض نداءها، مارقاً بسرعة من أمامها خوفاً من عيون وآذان رجال مخابرات يجوبون المنطقة، يتعاطف البعض الآخر معها، يصبرونها عارضين عليها مساعدات ترفضها.

تجلس نيدابا قرب أم حيدر، تمد يديها نحو جمر حطب تحت قدر الباقلاء، تسمعها أغنية كرد فعل غير مألوف على حال شرس وكنوع غريب من المقاومة أو المشاركة: (ما يكفي دمع العين يابويه، نار بدليلي نار يابويه، مغرم وأدور وين يابويه، وأنّي غريب الدار يابويه). تنحبان سووية بدموع لا يلمّها جلد ولا صبر.

* * *

صبر

ماهر في التغلغل إلى النفس البشرية، قادر على اكتساب خشونة وغلاظة. يبتكر البشر لي مفردات وتفسيرات شتى؛ صلابة، أناة، تجلُّد، حبس نفس عن جزع وإجبارها على ضبط انفعال، على كتم قهر لحين حصول مراد وهدف. يعتبرونني مفتاح الفرج ووسيلة للوصول إليه وليس غاية بحد ذاتها. لكن ثمة أسئلة تؤرقني وتنزع عني معنای؛ هل أنا فعلُ شخص عاجز خانع أم حكيم رزين؟ هل أنا سلبي أم إيجابي؟ كيف تعلمتني كائنات بشرية وغير بشرية كحشرات ونباتات؟ لماذا يوصي بي متنفذون وأسياد، هل تفادياً لتغيير واستسلاماً لمصيبة وإيماناً بموهبتي؟ أم خضوعاً لقوي متجبر؟ أسمع اسمي مقروناً بشخص من بطون التاريخ، لكنني أعرف نفسي في تفاصيل حياة امرأة اسمها نيدا با أو أيوبتي.

أماً جعبة حياتها، أتمها في أوقات تعاني فيها من مصاعب عمل في مسائي يتيح لها مرتباً ضئيلاً تسديد إيجار البيت لا غير. تكتظ المدرسة الخاصة بشبان مراقبين لا يكثرثون بعلمٍ يطور، ولا ببلد ينهض، ولا حتى بمعرفة ترتقي بإنسان. يصفهم ناس المحلة بزعران فاشلين ومثيري مشاكل. لا يقدر على ضبطهم مدير شغله الشاغل استلام الاقساط من ذوي الطلبة شهرياً، ولا يكثرث بهم أهاليهم طالما أنهم أدوا واجبهم ودفعوا مصاريف تعليمهم.

تقتدي نيدا با بخبرتها وبممثل أجنبي، يعاني في أحد أفلامه من تدريس طلاب مشاكسين وصعبي مراس، لكنه بالتالي ينجح في تدجينهم وكسب مودتهم وحبهم للدروس. كم هي حمقاء؟ لا تدرك بأن الواقع ليس كما في أفلام ومشينة مؤلف أو مخرج. يظهر الطلبة مشاعر مقبلة لمادة تدرسها. يتفخرون بهزيمة ألقوها بمدرسين ومدرسات سابقين. تحاول التغافل عن تصرفات غير لائقة لهم حتى يحدث ما يجعلها تتخذ قراراً قطعياً بترك المدرسة. ذات مساء، يسحب أحد الطلاب سكينه على آخر أثناء الدرس بسبب خلاف حول انتمائهما إلى فصيلين ثوريين مختلفين، بينما يستغل آخرون الوضع فيضعوا أوراق الامتحان على مدفأة في الصف، يتركونها تحترق حتى تضطرم النار في الصف والبنابة كلها. تهرب من المدرسة. تجري نحو البيت. تجلس على أرضية المطبخ. تبكي في الظلمة بصمت لئلا يسمعها أحد سواي.

أستعين بعقلائل لتهديتها وللتخفيف من روعها. يسعى إلى استحضار ما يسعدها، فيأتي إليها به. يتناهى إلى سمعها صوت ساحر لا يحد مدها، يخاطبها بلسان شهد وإقحوان؛ ترى وتسمع مخلد يحتها على الصعود إلى مأذنة الملوية أثناء رحلة جامعية للقسم، يقف أمامها حلو الطول بابتسامة عسلىة واثقة ماداً لها يده، تحاول إغماض عينيها ولمسها، يعترىها رهاب من ارتقاء مبنى عال، تتشبث بيده، وبهدوء جميل مماثل لطبعه، يشير إليها ألا تخاف وأن تفتح عينيها وترفع رأسها، وحينما تفعل ذلك، تجد ان بإمكانها الاستغناء عن يده فترتقي درجات المنارة لوحدها بثقة وابتهاج. ينتهز عقلائل فرصة ارتخائها في خيالها المقاوم، وينجح جهدانا، عقلائل وصبرائيل، في جعلها تنهض وتقرر البحث عن عمل آخر.

في مدرسة بعيدة للبنات، تجد عملاً كمدرسة لسد شاغر وظيفي. تفيق مبكرة في أول ساعات الصباح، تحضر فطور طفلها، تدثره بملابس سميكة، تسرع به نحو الشارع، تقف عند موقف سيارات أجرة في انتظار سيرفيس يوصلهما إلى دار الحضانة، تمرّ عجالات مسرعة على حفرة قريبة مليئة بماء المطر، ترشقهما بوحل ومياه أمطار متراكمة. تضغط على رأسها منبهات سيارات وأصوات عالية حولها: "عا السّت، عست، برامكة برامكة، باب توما". تتدافع مع ركاب متعجلين وتصعد مع طفلها. راكب ثقيل يجلس بجانبها، يميل جسده عليها عامداً في كل منعطف. تصيح على السائق، "عندك نازل". تنزل عند حضانة الطفل السعيد. تسرع لتسلم طفلها إلى الأنسة. يتعلق الصغير بها باكياً. تمسكه مربيته وتجرّه عنها بقسوة متوعدة ناهرة: "ولك بيكفي خلص". يهرب الطفل منها. يتعلق برجلي أمه. تدير وجهها عنه، تمضي لتلحق بعملها. يلحقها، يتمسك أكثر برجلها باكياً، تسحبه أرضاً معها، تجرّه الأنسة بعيداً عنها. تهرع نحو الشارع، تسمع بكاءه وصراخه. تبكي. تجري مسرعة إلى عملها. يهطل مطر كثيف يغمرها حتى البلل. تمتعض. تغفل عن حفرة أمامها. تغطس قدمها في وحلها. وحل في كل مكان، وحل في الشارع، وحل في نفسها، وحل في زمنها، وحل في أخبار قادمة من وراء الحدود، في ناس كثيرين مسرعين أمامها وحولها تصطدم بهم غير مكرثة، يبدون لها مثل أشباح من عالم سفلي سحيق، مثل دمي متحركة وقرقوزات متحدثين بكلمات ممطوطة لا تسمع سوى صداها: "خمس ورقات، مصريات، مصريات". طريق مزدحم. لا تنتبه إلى منبهات سيارات وما يتبعها من سباب ولعنات. تعبر الشارع غير واعية. لا تتلفت. لا تتوقف. يتوقف في رأسها عقل تعشوشب فيه أشنات وطحالب من مستنقعات

يأس أسنة. تطلع منها شاهدة قبر مخطوط عليها اسمها؛ نيدابا عبد الهادي، من مواليد المواجه المستديمة وتكوينات القلق، ماتت غريبة دار وجار، اقرؤوا الخاتمة على روحها.

"تنضربي على أمتك شو مجدوبة. فايطة بالحيط؟.. مْغوطنة؟". ترجع بخطواتها إلى الورااء تلافياً لسيارة كانت على وشك دھسها، تتلففها فجأة ذراعاان قويتان، تسحبانها نحو الرصيف، فلاح عناد مرة أخرى، يا لهذه الصدف النادرة!

في مقهى قريب، يسحب لها كرسيّاً تجلس عليه. يطلب لها شاي زهورات ولنفسه كأس مّتّة، يشرب منه بأناة ويتأملها. يعاتبها بخفيض صوت: "أنت مجنونة نيدابا؟ هذا انتحار رسمي، أنت دائماً بنظري مثال للقوّة الرقيقة، وللرقة القوية. أي سبب وتبرير لليأس مرفوض بأمرى مو بقرار حزبي".

يحميها من تصرف طائش كادت تقوم به، ليس إكراماً لصداقة ومعرفة قديمة، بل لغرض وضع في نفسه.

* * *

وضاعة

أنصهر مع طمع، لؤم، خسة، دناءة، انحطاط، لأكُون وجهاً
قميئاً بعينيين شنيعتين تنفذان إلى مصالح ضيقة ندلة. أربض
في نفوس ضعيفة مفرطة الانانية، ينحصر همّها في فائدة
شخصية دون مراعاة لآخرين دونها. أهيمن على نفس فلاح
عناد يوم يقابل نيدابا.

تدير رأسها عنه تفادياً لمنظر ملامح وجه يعبر عمّا تكابده
من ضيق وقلة تحمّل وحيلة، هروباً من رد مذعن وإفصاح
هيباب، لا يقوى على البوح لشخص عرفها بوضع مختلف.
تقمع دموعاً متألّئة جاهزة للانسكاب من عينيها في أي لحظة.
تتماسك قليلاً، تأخذ رشفة من كأس الزهورات. تنظر إلى فلاح
عناد نظرة ذات مغزى: "كلنا تغيّرنا ونتغير بدون استثناء. آني
وأنت يا فلاح، أقصد يا غانم مرهون، بس كل واحد يتغير
بطريقة تختلف عن الآخر، حسب الظروف".

"كم أتمنى قول ما أشاء! أن أسمعك ما قاله أحدهم: لا
تصدقوا ثائراً يرتدي ربطة عنق، إذ كلما زادت أناقته، كلما
قلت مصداقيته".

يعدّل فلاح ربطة عنق حمراء حريرية غالية كأنه فهم ما
تعنيه نظراتها. يتتنحج، يلحق لعبابه، يرجع بظهره إلى الورا
متكئاً على ظهر الكرسي، يسحب نفساً من غليون فاخر،

يصمت برهة. يفكر بروية عما تقصده من وراء كلامها.

تقمع نيدابا شهية الكلام تلافياً لنقاش غير متكافئ لا يفضي إلى توافق آراء. تخبره باختصار عن مصاعب العيش في تلك البلاد، عن محاضرات بأجر بخس، عن أجر ضئيل يحصل عليه زوجها من جني محصول برتقال وزيتون، عن حياة تشبه غولاً بشعاً، تذيبها عوزاً وقلقاً.

يأسف فلاح لحالها ولحال زوجها. يلومها على قولها: "لا، رفيق جيد ومخلص، بل من أفضل الحزبيين الأصليين في المنظمة، ومع ذلك لا أوافق على تقصيره بكسب الرزق وإهماله لبيته ولمرته، أنت الوردية". يؤكد لها بأن للزوجة حقوقاً وكذلك البيت والأطفال مثلهم مثل الحزب والاجتماعات. يتلمس شواربه بإبهامه وسبابته، يتأملها وكأنه يقشّر ها. تحسّ بشعور امرأة تواجه ذكرأ مقبلاً على اغتصابها. تأنف من بوادر أنفاس حارة شبة تلامس خدها ويد تتسلل للمس يدها، "لكن عزيزتي زوجة المناضل لازم تسانده، تتحمل، تصمد، وتنتظر نتائج النضال، وأكد (باچر أحسن من أمس، مو؟). **"نسيت أن تقول، ولقد أثبتت الأحداث صحة تحليلات الحزب دائماً".** "وهاي الحرب قشة راح تقصم ظهر النظام الآيل إلى السقوط. يبدو ماكو انسجام بينك وبين زوجك. ومع هذا، آني أريد أساعدك، الحل بيدك، لكن قبل هذا الشي خلينا نخلق سعادة آنية ومحلية. شو حليانة يا ضرسانة، لك دخيلو المعصّب".

ينادي على النادل: دبّر لنا شوية حبشكلات وشوية مقبلات على شوية كوكتيلات.

ينظر إليها ملياً: "أمي داعيتلي لو تحنّين عليّ نيدابا، انسّيج قهر الدنيا، بس گولي إي"

يلتفت نحوها ضاحكاً: "وداعتي، لازم (أزرعك بستان ورود، وشجرة صغيرة تفيّكي، ولجيبلك من نور الشمس، سواره وحطّا بإيديكي)".

يهمس بشعر كتبه لها ذات زمن وذات عشق، غامزاً بالقول: "تذكرين؟ / قولي لهم، كان يعبدني في خاطر الأزمان في جنح الفراشة/ في ارتعاش اللغة الخجلي/ قولي لهم، يخدر إن حدّق في عيني/ فأنا السر ونور الربّ في عيني نبي/ وأنا كنت له السلوان لما ضيّعته القافلة / قولي لهم واسكتي/ ففي قلبي حديث عني وعنك".

بداية غير مشجعة لتواصل جلسة معه. يقرب وجهه من وجهها، يقترح مساعدتها في إيجاد فرصة عمل: "العمل صعب هنا، لكن سهلة جداً بالنسبة الي. لو تقبلين تحقيقين لي حلم وأمنية قديمة من زمان، تعرفين أنت ببالي دائماً، وياريت تحين عندي للشقة، عندي شقة وحدي....."

يدعوها لإقامة علاقة خاصة معه، يسرف في الحديث عن تعلقه بها، عن أمنية دفينه في معاشرتها. لا يجد راحته مع امرأة غريبة لا تفهمه، لا تفهم لغته، ترطن بلغة أجنبية، لم تشرب من ماء فرائه، لا تطرب للحن أغنية من بلده، لا تتجاوب مع انفعالاته الحارة حرارة أرضه. يستحضر حبه القديم بقوة، بكل وجد قديم متجدد، بكل مفردات عشق متأجج، بلعاب ينشط على زوايا فمه، بروائح رغبة ترشح من جسمه، بشبق خائر أمام جبروت إشتهائه لها. تتسع مساحات الشهوة ومساحاتي عند فلاح في حالة من الضعف الإنساني اللذيذ المحرّم. لا تهدأ أعضائه، يمّني نفسه لو يتنفسها، لو يدسّ أنفه في رقبتها أخذاً نفساً عميقاً طويلاً طول سنين فراقه لها، لو يمرّر فمه فوق جسدها كله، يدفنه بين ثنايا رغبة يتوق إليها

بجنون.

تلعنني نيدابا، كما تلعن رجالاً يعتبرون الثقافة محض معلومة وليست سلوكاً ومواقف.

"اللغة على ذات تحبس نفسها داخل دائرة جسدها وتفكر كخصية. يسقط الرجال عندما يستبدلون عقولهم بالأجزاء السفلية من أجسامهم، عندما تكون نعمتهم الوحيدة عضو ذكري، يجهدون في إرضاء أهوائه. لا حيلة لي في مقارعة ما يجري من مساومة رخيصة غير القرف. مثل هذا الأمر يتطلب موقفاً غير الغضب الداخلي والهروب، يتوجب موقفاً وفعلاً بالمفهوم الشرقي لرد الاعتبار، ربما نزع حذاء من قدم وضرب المتحرش، لكن كيف وأنا التي لم تفعل ذلك في حياتها؟"

(غلطة صارت يا خسارة يا خسارة، ليلكم ضيّع نهاره، غلطة مرّت وانتهت، شمعة العشرة انطفت)

تغادر نيدابا المكان غاضبة من فلاح عناد، مترحمة على روح أخيه صلاح، على زمن أصالة مضى، على زمن آت يقوده رجال يحملون في دواخلهم عشيرة أصدادهم، أين هم من ناس نظيفين في حزبه؟ ربما انتهى أغلبهم بتصفيات عام 1963.

لا تعرف كيف ومتى تصل إلى بيتها، تنزوي كعادتها في ركنها الداكن في المطبخ عند الثلاجة، لا يطاوعها بكاء مثل كل مرّة. يستعصي عليها غضب. تغرق في حالة ذهنية مستعذبة الألم، تشيح برأسها وسمعتها عن عقلائيل: "بوسعك أن تعذري فلاح عناد، وإن لم يكن بإمكانك ذلك. انسيه وتجاهليه. تعلمين جيداً ما عانى منه في فترة صباه وشبابه من عجز أب

ومسؤولية أم تعيل أسرة كبيرة، من خذلان في علاقة حب، من فشل في تحصيل علمي. مثله، إن تَبَوَّءَ مركزاً وجاهاً، تغويه حالة انتصار على أمس خذله. أمر طبيعي أن يخطأ البشر، فلا وجود لقديسين على هذه الأرض. تذكرني؛ ليس كل منخرط في حزب سياسي عرف عنه حب الناس والتضحية، إنساناً بلا مثالب ولا رذائل، أولئك بشر بأخطاء مثلهم مثل غيرهم، ومن منا ليس بخطأ؟"

تنفر من عقلائيلها. يخبرها بأنه لا مناص من اللجوء إلى الحل الأخير، من الحل القديم الجديد، من قبول عرض السفر إلى بلد آخر يوفر لها عملاً مستقراً وحياة أخرى ربما بلا منغصات.

"وَقَرَّ نَصَائِحَكِ عَقْلَانِيْل. مَا عَدْتَ أَجْرُو عَلَى الذَّهَابِ إِلَى مَكَانٍ جَدِيدٍ وَغَرَبَةٍ جَدِيدَةٍ، عَلَى الطَّوَافِ فِي مَمَرَاتِ نَفْسِي مِثْلَ كُلِّ مَرَّةٍ لِأَعْرِفَ لِمَاذَا يَحْدُثُ لِي كُلِّ ذَلِكَ. أَخْشَى مِنْ الْمَجْهُولِ".

تبقى في الدار. تمتنع عن الأكل وعن الاتصال بالناس. يأتي رد فعل مطيع على تحرش رفيقه مخيباً، "نيدابا لا تشوّهين سمعة رفاق الحزب رجاءً".

تقنط. تنقطع عن العمل. تنام ليومين متتالين. تصحو فجأة وتتخذ قرار الرحيل رافة بطفلها.

في المطار، تحاول بشتى السبل ترك همومها خلف أبوابه. ترحل وليس بمعيتها سوى حقيبة وجواز سفر، تطوي داخله ورقة موافقة خروج تحصل عليها من جهات أمنية في مكتب شؤون بلدها ودائرة مخابرات بلد الإقامة، يتقصد موظفوها الأمنيون على القيام بممارسات وإجراءات تعيد إلى ذهنها رعباً

لم يغادرها. تتلذذ وحوش بشرية بتصويب نظرات تشفّي وحقد إليها، بزرع شك وتوجس. يحلو لهؤلاء خلق جو من ترويع في نفوس مراجعين غرباء، هدفهم الحصول على وثيقة رسمية تسمح له بالخروج من البلاد. يتخصصون بي، بإثارة رعب لدى كل من يدخل لمكتبهم إلى حد الإيحاء إليه بأنه مذنب لا محالة.

- متأكدة جوازك ما تُو مزور؟

يطلبون منها بعد زمن انتظار مرهق، ملء استمارة طويلة تتضمن أسئلة شخصية وبأثر رجعي، لا تتذكر زمن وتفاصيل بعضها لقدمها. تستعيد بفضلهم ندباً طرية لمواقف مماثلة عكّرت عليها حياتها ومناماتها. بين فينة وأخرى، يسمعونها محادثة تبدو بريئة، حول وسائل تعذيب يقوم بها شباب في الفرع، مستعرضين فيها أسماء أجهزة وطرق تعذيب كأنهم يتلفظون بأسماء أطعمة وأطباق شهية، مثل دولاب، بساط الريح، مرج، رنگ، الشبح، العبد الأسود، الكرسي الألماني...

يقطع موظف المطار أفكارها هامساً:

- إدهن السير يسير، اكرميننا أنسة أنكرمك.

تفرغ من جيبها ليرات قليلة، تعطيها إليه، يخفيها بخفة ناظراً بحذر يميناً ويساراً، يتسامح مع زيادة وزن طفيفة للحقائب، ناطقاً كلمة، معوّضين. تمد يدها إلى جيب فارغ ونظيف، "يَلْه. نظافة شيء لا تتم إلا باتساخ شيء آخر".

يشتكى صغيرها من العطش، تترجى رجل المطار إرجاع بعض العملة لشراء قنينة ماء، يجيبها ضاحكاً: "دخلك، مين مات من العطش؟ وشو يعني الأولاد؟ كول بئلاوة وطعمي ابنك خرا، هوّه لي أدام وأنت ليورا. ههه.. ويا مال الجيب يلا

يمالي".

يقولون هنا، يا الراح كثر الملايح، ولا تنسى مدينة
الياسمين.

* * *

مدينة الياسمين

سترحلين يا غريبة في العقد ما قبل الأخير للقرن العشرين.
ستغادرين شامة الدنيا. ستتركين مدينة معروفة بعراقتها،
بسحرها، بخيراتها الطيبة. مدينة أخاذه، خميلة جذابة، جنة
خلّابة، مبدولة لسائح ومصطاف. هل تعرفين بأن "هذي
دمشق/ وهذي الكأسُ والراحُ؟". هل تتفهمين أيضاً ما يختبئ
تحت جلدي من لهات متواصل وتعب متواصل لأبنائي من
معدمين وفقراء، يقتاتون على مجدّرة، كبيس، فتّة، فلافل،
حمص، أو يمضي يومهم ولا يتناولون شيئاً سوى حساء
بحص. يشتغلون أي شيء وبأي أجر، ولا يرتفع لهم رأس ولا
حلم. الويل أشدّ الويل لكل متقاعس كسول في جوفي، لمن
تفوته نقطة انطلاق لرزق وفرصة عمل، استدعسه صرامي
لاهثين متنافسين متربصين لخطف لقمة عيش من الشيطان
نفسه. يحكي زميل في المدرسة والشقاء، عن أحلام متكسرة لا
يجد وقتاً لتذكرها، عن عمله وقت الفجر كسائق تاكسي،
ومساءً، كبائع بطيخ على الرصيف.

أعتذر لأنك لم تجدي في دروبي وحواريّ سوى؛ أحلام ناس
متحجرة، زمن صخري، عسر عيش، عيون مترصدة لذوي
شوارب كثيفة. اصفحي عني لأنك عانيت من شوب كافر،
شتاء قاهر، شخيرة صوبايات، جرّي مجنون وراء رزق
ووسائل نقل، ولأنك لم تشهدي إشراقة فتنة لقود حلبية، سحر

صبايا شامية، عبق منعش لياسمين وحبّ وفل، لم تستعذبي مذاق حواضر عصرونية مع كأس شاي بالميرامية، صحتين على قلبك، ولم تأكلي نمّورة وحلاوة جبنة... "وأين في غير شام يطرب الحجر".

يحلّو لي السجع في مقامتي الدمشقية. يحكون عن مرجة، ساروجة، سوق الحميدية، عن صابون غار، وعن مساجد لا ينقطع فيها صوت أذان من على منارات، خطابات قائد أوجد، شعارات، يافطات، عن ربوات وحارات، بيوت شرقية تراثية، بردى يسقي غوطتي الندية، ويلّله تعالوا نعمل سيران، من قاسيون أطلّ ياوطني يا أحلى الأوطان. وأويبيها، بلاد العرب أوطاني.. من الشام لبغدان. أويبيها، ومن نجد إلى حلب.. إلى مصر فتطوان.. للللللللش.

تشهدين بين جنباتي، أحياء وقصوراً منيفة بهيّة، سيارات ومطاعم عصرية، محظورة عن ساكني بيوت عشوائية ومخيمات فلسطينية. صبيّة بملابس طلائعية، وجوه صفراء من دود وسوء تغذية. خطوات تائهة وملامح لوجوه عراقية، موسومة بغد مجهول وعيشة غير مرضية، لا بقعة تأويهم لا كرامة، لا هوية، يرقبهم فرع أمن لشؤون عراقيين وقيادة فُطرية. يا أخوة يا عرب، سمّعونا أحلى عراضة دمشقية: آوويها، البعس حزب وحدة وحرية، آوويها، بالروح بالدم نفديك يا قومية، آوويها، حافظ راعي وقائد الأمة العربية، آوويها، يحرّر جولاناً من الصهيونية.. للللللللش.. عيش يكديش، لينبت الحشيش.

في مقامتي ثمة ذاكرة وجع وجروح نديّة، من مخابرات ومقرات أمن سرّية، معارضون أحرار في زنازين تحتأرضية، ربطات خبز تأكل رواتب شهرية، في الحجر الأسود والمساكن

الشعبية، يتعفن أحياء أموات تحت أنظار ضمير البشرية، مهجرون بأحوال مأساوية، يصلحون لأمثال شاميّة: "طلعنا من الدلف لتحت المزراب، يا خطيّه". في الحجيرة أم حيدر الحجيّة، تخفي وجهها وتبيع أكلة شعبية، والكل يتاجر بالقضية، والتهريب شغل، وحيّوا الشام يا رجال، الشام ميّة ميّة.

تنتعش على جلدي واجهات محلات دمشقية زاهية، بضاعة غالية راقية، يتأملها أطفال عراة حفاة، بل جلود فوق بطون خاوية، مدعاة لكفر دون أسباب وافية، وحكم على عدالة عادل أو طاغية، دون رجوع إلى برامج أحزاب سياسية، ثرثرة وسرسة فاضية، وإلى أديان ورسالة سماوية ماضية، تلك هي رذيلة أمة قاضية.

باطل، نظام يضطهد ويجوّع الناس، عار على الإنسانية من الأساس، قمع شعوب، إذلال بشر وتركيع راس. باطل، وطن "تعرق فيه ناس بحثاً عن رغيف ولبس، وتعرق فيه ناس من تخمة ورقص ولعبة تنس". يا خالقي، متى تخلع أحلام ناسي أكفانها؟ متى يحيون بسلام وصفاء وأمان؟ متى يعيشون كأخوان في بلاد العربان؟ ومتى ترتاح نيدابا من الرحيل والطوفان؟

متنزه

عند جرف البحيرة الجنوبية، يركض كلب صغير نحو قطعة خشب يرميها صاحبه بعيداً، يجري الكلب بخفة ويحملها بين فكيه ثم يعيدها له. على الأرض، تتطاير أوراق أشجار صفراء ذهبية، عسلية، سمراء، حمراء، بنية. أشجار تتعري، لتستعيد أنفاسها، هاجعة متأهبة لجولة جديدة من الاخضرار، أو ربما ليغري تبديل منظرها ناظراً، عسى أن يلتفت إليها ويتعظ من حكمة حياتها. طيور تهاجر للتذكير بضرورة السعي نحو حال أفضل. ورود تخفي جمالها لفترة حتى لا يغدو مبتذلاً عادياً. سحب، رياح، مطر، تفصح عن أن الصفاوة والإشراق لا يدومان إلى الأبد. طبيعة تفرش عباؤها على سمائي وأرضي وتغيّر لونها، تذكّر بني البشر بلزوم الاستمتاع بما أتاحت لهم من نعم قبل نضوبها.

"طفلة بحجم حصاة صغيرة، تقفز في المتنزه باحثة عن وردة، تلك الطفلة كنتها أنا / فتاة كما الشمس، تتجول في المتنزه باطمئنان ورضا، تلك الفتاة كنتها أنا / شابة تائهة في عالم الدلال والخيال، تخطر حاملة بالحب في المتنزه، تلك الشابة كنتها أنا / امرأة يضنيها مثقل ما تحمله، تقطع بتؤدة دروب المتنزه، كل ما يملأ بالها ضجيج أطفال، تلك المرأة كنتها أنا / عجوز ذات مزاج مختلف، كل ما تطلبه مصطبة وسكون.. تلك العجوز هي أنا اليوم".

تتمثل تلك القصيدة أمامي عندما أُلح السيدة مهمومة وتفكر.
"أين تأخذنا سيدي؟ ماذا تروم؟ علام ناسنا ومدننا على هذا
النحو الحزين، أما من فرح في حياتنا؟. قلّما تستحضر الذاكرة
وتلتقط أوقاتاً سعيدة مفرحة، لماذا؟ هل لكونها شحيحة
وعابرة، أم ثمة تفسير آخر يتعلق بناسنا وجينات حزن
ومظلومية تنعكس على إدراكهم واسترجاعاتهم عبر الأزمان؟
لو تسأل إنساناً عادياً غيرنا عن ذاكرة يحتفظ بها، سيحكى لك
عن سفرة قام بها أو عن مناسبة زواج وفرح، عن يوم ولادة
ابنه أو ابنته، أو يوم فوزه بجائزة ما. حتى وإن تذكر صديقاً
راحلاً، ستأتي إلى باله لحظات مرح قضّاها معه سيحكىها
بطرافة. نحن بحاجة لأن نتعلم حزنّاً إيجابياً. لكن ينبغي أن
نسال، هل مرّ بالآخرين كما مرّ بنا تاريخ كأحزاننا ومآسينا؟"

تمد يدها وتصفح الكاتب. تزيح أوراق شجر ذابلة من على
المصطبة. يتحدثان عن الطقس المتغير. تحب السيدة الخريف
لأنه عنصر تغيير وتجديد، بينما لا يفضلّه الكاتب لاقتران
ألوانه ومعناه بالذبول والتلاشي. يناولها بضع أوراق وينسحب
إلى نفسه نابشاً في ذاكرته عن صور يستحضرها لمحكياته.

تحسّ السيدة برغبة طاغية في الاختلاء مع تلك الأوراق
وقراءتها، لاستجلاء المزيد من الأحداث والتفصيلات في
المحكية الخامسة.

المحكية الخامسة

الأرض الطيبة



"كم مصباح يبحث عن فراشة لا تنام / وعن سفرٍ على
قارعة الطريق؟ / أيها الراقد كالشجرة / أوراقك تشم
الذاكرة / ولا شيء غير مواسم الغناء / وبقايا شوارع
مستهلكة / وقصائد بيضاء".

أليمدا

يخطّون على هيكلي الصغير كلمة - أليمدا- بخط كبير،
يسمونني حبة طائرة، تحبباً وتواضعاً. أنقل على متني ركاباً
مختلفين من أجناس، أطياف، ديار، وهموم متنوعة. رحلتي
اليوم تضمّ عدداً من الرفاق العراقيين. يلفت انتباهي أحدهم
يتحدث بصوت عال، يلتفت من حين لآخر نحو شابة تجلس
خلفه، مواصلاً حديثاً له مع راكب آخر، تؤيده امرأة جالسة
قربه بهزّات متتالية من رأسها وبعينين متوفزتين.

تتماهى ابتسامة له مع وسامة رجل خمسيني أنيق، ببذلة
رمادية وربطة عنق حمراء. يتأنّى في اختيار كلام يتميز بالفاظ
مفردات ممدودة النهاية، كما لهجة سكان مدينة في جنوب
العراق، نزلت في مطارها مراراً: "احنه لازم ندعم تجربة
الحزب الاشتراكي اليمني بكل طاقاتنا وجهودنا، لازم نخدم هذا
البلد بكل اخلاص وكرم، مثل كرم بصرتنا، وندين الحرب بكل
أشكالها".

"ما هذا الحديث؟..يا أخي خاف الله، سياسة برضو؟
عراقيين، ما في فايذة منكم، ما تملّو كلام في السياسة".

يحاوره شخص آخر يجلس في صف مجاور، لا أكاد أتبين
شفتيه لكثافة شارب يغطيها، يحرك عند حديثه بعصبية
حاجبين كثيفين فوق عيين قلفتين :

- هاي شلون مقياس للوطنية؟ ما أدري! يعني إذا أنت مع الحرب تكون ضد الوطن، وإذا انت ضد الحرب يعني مع صدام.

يلتفت الرجل كثيف الشعر فجأة إلى طفلين يتشاجران بجواره:

- لك كافي عاد. جوز من أختك، تره هسه أشمرك من الطيارة.

يعاود بحركة حديثاً انقطع:

- هذا دفاع عن الوطن، لو مغامرة من واحد أحقق لغى اتفاقية دولية بجرة قلم؟

يجيبه صاحب البدلة بثقة هادئة، بينما تواصل المرأة، التي أظنها زوجته، هزّ رأسها تأييداً لكلامه:

- آني مع رأي حزبنا "ضد الحرب، ضد الدكتاتورية"، المهم التجربة، لازم ندعم التجربة اليمنية.

يعلو بكاء طفلة الرجل ذي الحواجب الكثيفة، يمدّ يده ويصفع صبيّاً بجوارها، يدير رأسه نحو صاحبه مواصلاً نقاشه:

- الشكر لرفاقنا بالمنظومة الاشتراكية وعلى رأسها الاتحاد السوفيتي، منو غيرهم اللي دعموها.

"يالهذا هذا الرأس! كم تحمّل منا من مشاكل ووهبنا مساعدات وخبراء وزمالات دراسية".

- هذه التجربة مفخرة لنا كلنا، متكّللي يا دولة عربية ببيها مثل الحزب الاشتراكي اليمني؟

- يشهّرون بحزبنا العظيم، سمعت هذا القول: "من بلغ

العشرين ولم يكن شيوعياً فلا قلب له، ومن بلغ الأربعين ولم يخرج من الحزب فلا عقل له"؟

يستحلب راكب يمانى قاتناً باستمتاع، (يا طائرة طيري على بندر عدن، دي جنة الدنيا حواها كل فن).

يعرب وجه الشابة عن ضيق، كأنها بحاجة إلى جهاز تحكم كالذي يشغل التلفزيون، يخرس كل الأصوات، صوت أزيز محركاتي، صوت صاحب التجربة ورفيقه، صوت بكاء وصراخ ومشاكسات أطفال بين مقاعد الركاب، أصوات قنابل مدافع ونواح أمهات شهداء محمولين على نعوش آتية من جبهات قتال متوقدة في بلدها، لغو ركاب يمنيين يتحدثون بنبرة عالية وبحركات معبرة من أيديهم. ليس بمقدوري إسكات كل ما يزعجها أو إخفاء رائحة كاري آتية من ركاب هنود خلف مقعدها ورائحة طائرات زميلات ركبتها ورائحة مجهول قلق، في جديد أرض وناس.

يسكت الركاب لسماع إعلان الطيار عن سلامة وصولي إلى المطار، يرجعون إلى التحدث بصخب وإلى التدافع للوصول إلى بابي من أجل النزول قبل آخرين. أسمع تعليقات ساخرة لركاب شباب متأهبين للخروج:

- عراقيين، ما بيكم رجا ولا تصير إلکم چارة، هسة شکو مستعجلين؟

- متدري ليش مستعجلين؟ مو نريد نلحگ بالتجربة وندعما.

- وين راح تروح التجربة؟ وإحنا بعد وين نروح؟ لتلفات الدنيا؟ سامعين أغنية (لگیتة بحضرموت یحُم علي)؟

رفاق، أبشرکم، إحنا اقتربنا أما من خط الاستواء أو من

خط الاشتواء.

- راح تتحقق أمنيتك، مو جان عاجبك تشوف بلاد الواق واق؟

- واق وبق، موزمبيق، المهم خلصنا.

- يمكن لو رايعين لموزمبيق أحسن.

- عيب، شلون؟ ما ترهم، أنت من بابة عرب، شلون تريد تصوير موزمبيقي؟

- زمبيقي مو زمبيقي، أحسن ما أضيع بالطريقي.

- يلا انزل يا رفيقي الزنديقي.

تنتفتح أبوابي. تلفح وجوه النازلين حرارة جو تشبه حرارة بخار ابريق على النار بلا غطاء، تحدث صدمة وتخلخلاً في طقس نفوس وأجساد المسافرين. تشبّه مسافرة بأن تلك البوخة تذكّرنا بأمور سقيمة في طفولتها، بحمام بيتها القديم ورائحة بخار ضبابية، تجعلها تنفر من الاستحمام وتخشاها، وكذلك بفرن خبز في ظهيرة يوم تموزي، حين ترغمها أمها لتجلب خبزاً ساخناً أو صمون بالسسمسم.

تسيح ابتسامات تعب متكلفة لمضيفات، ممتزجة بألوان مساحيق زينة. وأفرغ من كل الراكبين.

من عنبري إلى الأرض، يرمي عمال المطار حقائب المسافرين. تختفي الرؤية لبرهة حين يتناثر غبار غزير وينشغل القادمون بالبحث عما يخصّهم، يحملونه تحت شمس خارقة حارقة، إلى داخل صالة استقبال متواضعة، تنتشر فيها قطط سائبة ومنكّبة على طعام باقي في صواني المسافرين.

في فترة انتظار الرفاق لرفاق يستقبلونهم، يتفاقم حرّ

وصراخ أطفال، تتلطح وجوههم وملابسهم بسخام شريط لنقل
الحقائب متعطّل، يمسح صاحب التجربة عرقه بمنديل ثم
بمنشفة يدوية، يخلع سترة بدلتته، يوسع دائرة ربطة عنقه،
يتخلّى عنها كلياً، يفتح أزرار قميصه. حين يجيء الرفاق
المنتظرون ليأخذوهم إلى سكن ووظائف، يستقبلهم بسرّوالم
وفانيلة فحسب.

رحلتي طويلة، أحتاج إلى الراحة بعدها. عادي، الراحة
ضرورية في بلدي وعلى أرضي.

* * *

أرض العادي

كما تعرفني كتب التاريخ، أكون موطن العرب الأصلي الذي ينطلق منه الداعية القرمطي علي بن الفضل الخنفري فيشن غارات على الملك الحميري صاحب مخاليف أبين ولحج وحضرموت. تعيش في قبائل جهرم، بلقيس ملكة اليمن، محميات الجنوب، مملكة أوسان الممتدة إلى أفريقيا. تنطلق من جبالي ثورة مسلحة ضد محتل أجنبي، من جبال ردفان والضالع. انظروا إلى مدينة أبين أو زنجبار، سالبة العقل والأبصار، وفي ربوعها يحوم صوت مطرب وأشعار (يا ساحل أبين بنى العشاق فيك معبد، يا دان يا دان.. سمعت أبين على الأمواج تنتهد). يزخر ساحلها الدافيء شعاباً مرجانية نادرة ومبهرة. هنا على ساحل البحر العربي تقع مدينة شقرة. فيها مصنع تعليب أسماك، رائحة عتيقة لصيادين، عشش مصنوعة من ألياف ومن أغصان شجر وأسمال لا قدرة لها على مقاومة شمس عاتية. في الأفق القريب مدينة إمعين، لودر، جبل ثرة وعزل زارة.

هذا الشارع الرئيسي، ينتهي عند مستشفى الشهيد محنف، فتنتهي عنده المديرية كلها. قرية صغيرة منسية في غفلة من زمن وجغرافية. "هنا راح تقيمون".

يلقي رفيق قديم على مسامع القادمين الجدد كلماته ببرود رغم حرارة جو، يجفف حبات عرق بمنشفة صغيرة ويرفع يده

طالباً عدم الاعتراض أو التذمر من المكان. لم يوفر لهم فرصة كافية لمشاهدة عاصمة أو مركز محافظة، جاء بهم بسرعة لـ "يعيشوا" في هذه القرية الصغيرة النائية، إحدى قراري.

لا يوجد أهم من السوق كمعلم من معلمي الأساسية. يملأ البصر فيه ناس تبدو ملامحهم غبارية، يفترشون الأرض بقطع قماش بال، يضعون عليها بضاعة تحتوي على كومة بطاطا، فلفل حار، بصل، وطماطا. يطردون من على بسطاتهم من حين لآخر، ماعزاً يفتات على صناديق كارتونية فارغة وأشواك متناثرة تنبت على جسدي.

ساعة وصولهم، يندهش القادمون من بدائيتي، تقلقهم أسئلة حامضية. أين نحن؟ ماذا ينتظرنا؟ ما القادم؟ ما الذي يمكن ان يحدث أكثر لنا في بقعة طبيعية معزولة محدودة حيث أذهلهم ما سمعوا عنها وعن جاراتها من حكايات. لي مع رفاق سبقوهم حكايات عن بعض ناسي وهم يستخدمون نظام المقايضة بدل النقود، أو يضعون حشائش تحت سياراتهم لإكرامها بالطعام مثل الدواب، وفي مناطق نائية، يقدمون تكريماً للضيوف، امرأة من القرية، يغضبون منهم لو رفضوا هديتهم.

عادي. حدث ذلك منذ سنين، حتى صار ناسي يسخرون من أجدادهم حينما كانوا يقاومون المحتل بخناجر شخصية، يضربون حديد دبابات بجنيئاتهم هاتفين: (برّع يا استعمار برّع، من أرض الأحرار برّع)، غير أن بعضهم يبالغ في تندره على وزير له، قائلاً بأنه لا يحضر أي اجتماع حزبي مهما كان استثنائياً ساعة عرض مسلسل نحول للرسوم المتحركة، ولما يضطر على السفر في مهمة ضرورية، يسأل مستقبله فور وصوله المطار: "هيا قول لي ببربك، نحول لقي أمّه ولاّ عادّه؟". يحكون أيضاً عن ممثلة غريبة، تنزل في

مطار العاصمة بحقائب يصعب عليها حملها، يصدف أن يعرض عليها رجل قصير القامة يد المساعدة، يحمل إحدى حقائبها ويمضى بها إلى الصالة، تعلم، حين يؤدي له التحية العسكرية حارسان عند الباب، بأنه وزير الثقافة، مرؤوسها في مكان عملها المنتظر.

يروى مدرسون سابقون عن بساطة ناسي حينما يزور الرئيس القرية فينشغل الجميع بتزيين صالة نادي كرة قدم بكراتين فارغة تستخدم لحفظ البيض، يلونونها بألوان فاقعة، يغرزون فيها وروداً اصطناعية ويثبتونها على الحائط، يجلبون للأجانب كراسي في حين يجلس رجال القرية على الأرض. عند دخوله المكان، لا يقف أحد من الجالسين تحية للرئيس كأنه واحد مثلهم، يلفّ رباطاً مبروماً حول شعر رأس مضمخ بالحنة ويغرز بين طياته نبات شقر معطر، ومثلما يلبس الكثيرون هنا، يرتدي وزرة بنية ويتمائل معهم بوضع كحل عربي في العين. ينشغل بتنظيف أسنانه بعود ثقاب من بقايا وجبة لحم. يجلس أمام طاولة صغيرة، يتأمل المدرسين لبرهة، يحيي المدرسات مبتسماً. يناديه رجل جالس بإسمه دون ألقاب، "علي، علي.. شخّطه". يخرج الرئيس علبة كبريت من جيبه، يرميها إلى طالبها، يشعل هذا سيجارته ويقذفها ثانية من مكانه إليه.

في شارع رئيسي لأحدى القرى، يتجه مدرسون نحو سيارات يترجل منها القادمين الجدد. يتقدم معهم صالح عوض. يبادر بالسلام، ينادي على أشخاص آخرين يصادفهم طاباً للمساعدة في حمل الحقائب، لافظاً صوت حرف الجيم كما في اللهجة المصرية، وصوت حرف القاف "غين" وبالعكس أحياناً. يمد يده معرفاً بنفسه: "يا مرحب بالرفاق المدرسين

الجدد.. رفيقكم صالح عوض، النائب السياسي في الثانوية".
ينادي على شخصين مارّين ليساعده في حمل الحقائق،
أحدهما مدير التربية والآخر مدرّس في الثانوية، "يا دُرْعان،
تعال تعال شِلّ معنا.. يا كُعبل، يا كُعبل.. تعال يا أخي، هيا
إكُري إكُري ساعدنا".

كل شيء عادي تحت سمائي، فلا مكانة عالية لشخص، لا
تفاوت طبقي، الكل متشابهين، حتى الأيام تتشابه جميعها ماعدا
يوم واحد، هو يوم الخميس.

* * *

يوم الخميس

أتميز بخصوصيتي في هذه البقعة من الأرض وبكوني يوم غير عادي. لي مكانة في أفئدة الناس وفي خاطرة الأغاني (اليوم أقابل محبوبتي، يوم الخميس، هذا الحبيب النفيس). في صباحاتي، يشهد سوق القرية حركة غير مألوفة وزحمة ملحوظة؛ يأتي متسوقون من كل القرى والقصبات، يتجمعون في أماكن معلومة ريثما تأتي سيارات محملة بنبات أخضر ملفوف بقماش مبلى للترطيب، يتزاحم عليها رجال سمر نحيفون، يرتدون أحسن ما لديهم من الملابس، في كرنفال ألوان وأشكال متباينة لمعاوز، إزارات، مقطبات، فوط، وزرات، تتنوع أسماؤها حسب المناطق، مصنوعة كلها من قطن مصبوغ بألوان جذابة، منسوجة بخطوط وتشكيلات هندسية منتظمة، تزين أطرافها أحياناً ذوائب مطرزة بخيوط لامعة تمنحها بريقاً، يقلب الرجال باقات خضراء بلهفة ونهم، يتفحصون طراوتها وأنواعها، يتجادلون على سعرها وعددها، يتذوقون أوراقاً منها لاختبار طعمها، عمر قطافها، مصدرها ومصداقية بائعين يحلفون بأنها طازجة. تعلو أصواتهم في بعض الأحيان، يشتم بعضهم قبيلة الآخر مازحاً: "مالك؟ مال عارك"، ثم يعودون لصفائهم، يقبلون ظهور أيادي بعضهم بأرنبات أنوفهم ويمضون نحو ديارهم بمتعتهم الأسبوعية، ضاحكين برضا، كاشفين عن أسنان مبقعة بلون أخضر.

تنشغل النساء بتهيئة المَخدرة لرجالهن ولمن معهم. يفرشن الأرض بفرش وثيرة، يرتبن عليها وسائد للإتكاء، دون أن ينسين تشغيل موسيقى خاصة لمطرب، نبرات صوته تشبه تدرج حجارة من جبل (شنشني شنشني.. يامطر رَشني، يا محبة انشري، إلّا في ليالي السعود). يقضي المقوّتون أو المخزّنون ليلي باستحلاب نبتة سحرية تجعلهم متنبهين، يقظين، في أشدّ حالة من حالات الصفاء الذهني، مستعدين للبوح، لاتخاذ قرارات حزبية سياسية أشدّ تأثيراً وحرجة، بل ويتمكنون من كتابة أروع القصائد، والفضل كلّه يعود إلى نبتة يذكرها شعراء في قصائد مخصصة لسحرها: "القات يجلب للأرواح إفراحا / ويورث القلب تنويرا وإصلاحا / ويشرح الصدر من همّ ومن نكد/ حتى يعود بعيد الهم مرتاحا". يطلق عليه ناس سالفين "قوت الصالحين" لأنه يعين الصوفيين على قيام الليل والتهجد والعبادة وتشتترط مناسبات اجتماعية استحضاره كأفراح وأتراح، كمراسيم زواج ومجابهة الموت، وفي تجمع أصدقاء في مقایل ومخادر.

لا تغفل النساء عن تحضير علب المرطبات الغازية أو مشروبات منبهة مثل الشاي بالهال والقهوة العربية والحقين والقشر، يشربها الرجال لأجل - التفسيح- وإبطال مفعول القات بعد جلسة قات طويلة في المقيّل، في حين تتفرغ النساء إلى العناية بمظهرهن بعد الاطمئنان على المخدرة ومستلزماتها، يقمن بغسل حناء يابسة من شعورهن (شفته ناقش الحنة يا بوي من فنه) بإزالة عجينة ورق سدر مطحون من وجوههن، رسم أيديهن بنقوش خضاب أسود، ارتداء ثياب معطرة مبخرة تزيّنها أحزمة من ذهب، وفي لمسة أخيرة، تقوم النساء برسم عيونهن بكحل عربي وبوضع أحمر شفاه فاقع. يبذلن كل تلك الجهود من أجل استقبال رجال نشيطين، تفتق عصارة نبتة

القات فيهم قوى جنسية هائلة وقرائح غنائية وشعرية.

تحضّر النساء كذلك بخوراً منزلياً باعتباره من لوازم الضيافة والتعطر، غالباً ما تصنعه من عدة مواد مخلطة بدهن عود هندي، جوهر مسك ألماني، عرق عنبر مستخرج من حوت بحار نائية، لبان ومرّ يمانى مأخوذين من جذوع أشجار في وديان عميقة وجزر قصية. يعجّن تلك المواد بماء ورد وسكر نبات، يطبخنها على نار هادئة، يخزنها في علب محكمة الإغلاق لحين استعمالها في مباخر تحت مشبك على شكل قفص، يضعن فساتينهن عليه ليتغلغل البخور في النسيج ويدوم عطره لفترة أطول.

حين ينقضي اليوم الذي يليني، يمضي الرجال بتثاقل نحو كسبهم ومشاغلم في السوق والمراعي وفي دوائر الدولة والمدارس، فتعود الحياة إلى رتابتها العادية دون اختلاف، والناس مثلها، لا يختلفون طويلاً في وجهات نظر أو حوار.

* * *

حوار

ليست غايتي تغيير وجهة نظر أو إثبات رأي لشخص دون آخر. يتبناني بنو البشر حسب مداركهم وفهمهم للأمر، لكن ثمة ناس لا يتقبلونني فيحولونني من اختلاف إلى خلاف، في حين ينحصر دوري في التأثير على عقول آخرين، تطويرهم، توسيع مداركهم العقلية ونظرتهم لما حولهم وجعلهم يعرفون بعضهم الآخر.

أظهر جلياً عبر وجهات نظر النائب السياسي صالح عوض، والمدير سالمين با سندوة، حول أمور سياسية.

ينادي عبد الله، فرّاش المدرسة على المدير، "باسندوه، الست العراقية با تسأل عنك".

يتربع سالمين على أرض المكتب مع صالح عوض، يتناولان فطوريهما، القوراع، يغمسان خبزاً ملوّحاً بنار في مرقّة مطبوخة من خضار مشكلة. لا يكلفا نفسيهما بالقيام والسلام حينما تدخل عليهما الست نيدابا، بل يتقاربان من بعضهما دون اتفاق ليفسحا المجال لها بالجلوس بينهما في مودة وتلقائية فطريتين: "تفضلي تقرّعي معانا، هيا إكلسي، إكلسي ياست".

تشكرهما نيدابا وتخبرهما بانها تتناول الفطور باكراً، وما تريده هو إعطاء الاذن للفرّاش عبد الله لكي يفتح باب

المدرسة لها عصرًا، لتدريب الطلاب على مسرحية جديدة.

يتمهّل المدير في إلقاء لقمة خبز إلى فمه ويمزح معها، "أيش بلاكم انتم العراقيين، واحد يشتي يسوّي معرض رسم، الثاني فرقة قناء، وذاك نشرة حائط، وأنتِ با تعملي مسرحية. حيّاك الله، با أعطيك مفتاح المدرسة، وعبد الله با يكون معاك".

ينبهاها إلى وجوب عدم إشراك الطالب المعاقب عبد ربه في النشاط المسرحي، وإلى ضرورة بقائه الليلة في بيت الطلبة لمخالفته تعليمات الإدارة بخصوص لبس الأحذية بدل الصنادل، وكذلك لأنه يفضّل الاستنجاء بالحجر بدل الماء، حتى سدّت حجاراته، هو وبعض التلاميذ المشاكسين، مجاري الصرف الصحي في المدرسة: "سدّوا لي المگاري الله يسد باب گنته عنهم. بدو متخلفين وگعولي قلبي لعنة الله عليهم".

يناولها مفتاح المدرسة بعد أن يمسح يده بمنديل خاص، أمر يجعل من يحيطون به، يتتدرون على نظافته ويقارنون أنفسهم به وهم يستخدمون فوطهم ويشامغيهم لأغراض متعددة، كتتنظيف اليد والقم بعد أكلة سمك مقلي وبعضهم يذهب إلى مدى أبعد حين يتمخط فيها.

يعجب الناس بسالمين وتميزه عن الآخرين، فهو لا يقرب القات ويهتم بنظافته الشخصية ونظافة مدرسته وطلبتها وبأمر التعليم وتنشئة جيل متعلم. يذيع صيت صرامته في الإدارة، يخشاه تلاميذ وتلميذات، تحترمه الهيئة التعليمية وكل ناس القرية. يتصدر، في كل مناسبة أو احتفال، الصف الأول من المقاعد إلى جانب ضيوف زائرين مهمّين، غرباء أو محليين ومسؤولين حزبيين، عرب أو من بلدان أجنبية صديقة.

في النقاش، يحاول أن يبرز أفضل ما في. يحكي بمزاج رائق مع النائب السياسي صالح عوض عن أمور البلاد السياسية وقيادات الحزب بوجود الست العراقية:

- يا أخي وش بلاك أنت؟ الراگل كان من صناعة الكبار، راگل الحُمُر الأول في بلادنا.

أحضر في حديث صالح عوض لَمَّا يتناول منجزات قائده وحزبه:

- لكن يا أخي ماشي حد ينكر كيف كان مناضل ثوري من أصول عمّالية، وكيف أسس - الحوزب - الاشتراكي اليمني، وكيف عمّرت البلد على يده، كمعيات استهلاكية، دعم أسعار، تعليم مگاني، مافي قني ولا في فقير. ولا ايش رأي رفاقنا العراقيين يا ست؟

تركّز الست العراقية على عملها والنشاطات اللاصفية مثل التدريبات المسرحية، تحاول تفادي الخوض في أمور سياسية قدر الإمكان، تؤكد على أنه لا يوجد رئيس من رؤساء دول العالم العربي ليس لديه ارتباطات بدول كبرى قوية لكون السياسة مصالح متبادلة، وان كل حماية ودعم من قوي متقدم لضعيف متخلف، يكون عادة بثمن. أما كرسي الحكم فيجعل الحاكم في بلداننا، يستخدم أي صمغ ومن اي مصدر، ليلصق به. أما الرجل، على ما تعتقد، فلقد كان شاعراً، عنده ديوانين، وحسب اعتقادها أن الإنسان الذي يهزّه احساس جميل لا يمكن أن يكون مجرماً، لا ممتلكه حصانة من الشر، لا تمكّنه من انتهاك قدسية الحياة. تعطي مثلاً من مسرحية يوليوس قيصر لشكسبير: "احذر من كاسيوس، أنه رجل لا يحب الموسيقى".

لا يتفق المدير معها، أرى حدقات عينيه تضيقان دون

غضب:

- وأيش يعني ذه يا ست؟ هتلر نفسه كان يحب الرسم والموسيقى.

يغتاظ صالح عوض، يلمّ أصابع يده أمام وجه أسمر داكن وشعر أفريقي، يقربها من فمه ثم يفرقها مطوّحاً بكفّه في الهواء دلالة على استنكار:

- قلّط، أيش من مقارنة ذي؟ مألّك يا أخي؟ خاف الله.. ماشي شبه بين هتلر وعبد الفتاح اسماعيل، هُوو كان ضحية حرب باردة، ومؤمرات دول مگاوره، تدخلات مخابرات دولية، حركات تحرر مقشوشة، وحتى تأثير تطورات تگري ذا الحين على الحركة الشيوعية وعلى بيت الدب الكبير.

يوضّح له المدير وجهة نظره وعدم جدوى ما يفعله الرجل:

- يا أخي هُوو كان يُسكّب في زير مخزوق، وقالوها من قبل، اللي موش من گلدنا ويگينا من برّه، ما هو مننا ولا يناسبنا. شوف مثلاً أنت يا صالح، ايش استفدت لما درست سنتين بروسيا؟ أنا با قلّك. دحين لما رگعت، لبست الفوطة حقك ورحت ترعى القنم ونسيت العلم وروسيا وال - ناتاشات. يا أخي لا تخلينا نحكي أكثر، الست گالسة، كلمن إلى أصله يطرب، حتى الحنش والعقرب.

تتدخل الست العراقية بلطف، تمتدح الشعب الطيب ومع ذلك تلاحظ أنه من الصعب تطبيق اشتراكية أوربية على مجتمع قبلي بدوي غير صناعي، وتعتقد أن سبب اهتمام الدول بالبلد هو موقعها الجغرافي الاستراتيجي.

يدافع ابن عوض عن منجزات الحزب مبيّناً مخاوفه من إسقاط التجربة.

- كيف يا ست ننكر التطور الغارى في بلادنا؟ مصانع ومزارع ومؤسسات مدعومة ومدارس وعمائر وتعليم مگاني، شوفي وضع المرأة وكيف النساء تُطورين، شوفي الطفل كيف يلبس ويتعلم، شوفي خوف دول مجاورة من قوتنا. الكل يشتي يسقط التگرربة، الكل متكالب علينا. والجماهير يا زينها، کلها با تدعّم الحوزب. كيف ماشي علاقة بين شعبنا والاشتراكية؟

تنسجم نیدابا مع طريقتهم في التعامل معي مؤكدة على سلامة وصحة الوضع الاجتماعي والاقتصادي إلى حد ما، لكن العلاقة التي تقصدها، مثل علاقة الراعية أم عیدروس بعلم صناعة القنبلة النووية، أي أنها ماركسية بدوية كما توضّح.

ينهي المدير النقاش ولا ينهايني:

- احنا ديماً كذا، كل ما نفلح بووه، هوو الوقوف على حدود النتيجة، من غير الاستفادة منها، وربك، البلد عاها مثل ما خلقها الخالق. نص شبابها مهاكر با يشتغل في السعودية والخليگ، والنص الثاني بايفكر يهاكر. هيا هيا نمشي.

يمضيان مختلفين ويبقيان صديقين.

ما أغرب بني البشر، وما أعجب ما تخزّبه مصالح ورغبات، وما تخلقه من تنافر وعداء بينهم! يعيشون في ود ومحبة مادامت مصالحهم متوافقة، لكن ما أن يفكروا بمال أو بجاه أو بسلطة وشيء لك وشيء لي، حتى يتغير الحال وتتبدل النفوس، ويضيق بحر المودة ويجفّ، فتطغى قيعان بغض وطين كراهية على سطوح أنفس تبتلي بالأنانية. هكذا حال سياسيين وقادة، يقودون بلدانهم وشعوبهم نحو لجة دمار وهذيان حتميين.

* * *

هذيان

وقت يأس ونحس، تفقس بيوضه في نفوس ورؤوس، في أماكن وأزمنة جهمة. عادي، دعونا بانغني وبانرقص (والدهر لا بدّ ما تتحمّله، واصبر على ما بقلبك من شجون). دعونا با نعرّس (ألا ياطير يا لخضر وين بالقاك الليلة). يلتهم مدعوون متجمعين حول بساط طويل رزاً ولحماً، يرجعون رؤوسهم إلى الحائط، يتجشأون. هواء لافح، بخور، زغاريد، أهازيج (وا سيلو، وا سيلو)، ترقص أمراأتان، تذهبان وتجيئان بالتتالي على أنغام رقصة شعبية.

تحمل الغريبة فانوسها ساهدة قرب سرير طفل. زواحف، حشرات سامّة. عقرب أصفر، ثعبان صغير نينو، عنكبوب خطير، بثن "إذا حضر البثن، حضّر الماء والكفن". (يا مكثّر القتل، يا بويا أنا، من عينه الكحلى). سكن مشترك ومشاكل، أين اختفت الملعقة؟ طفلك ملعون، قطع حبل الغسيل. هسس، نريد أن ننام ظهراً. نظّفنا أمس، أنتم من ينظّف ومن يجلب الماء اليوم. عجبتكم اختمر، هيا اخبزوا، عادي. لا أثاث لدينا، اصنعوا أثاثكم من مقاعد مدرسية قديمة. بئر وسخ، تطفو عليه نعلان مقطّعة وقاذورات، اشربوا من مائه. الصغير بيتغي جلدأً خشناً لكعب قدميه، قدوته ابن طرموم، صديقه الذي يقف متحماً على عقب سيجارة مشتعل دون أن يتألم. أعباه علب صدئة، دفتر رسم فيه تخطيطات ماعز، أشواك، أفعى، عقرب،

عناكب سامة. قمل، قمل في شعر رأسه، عادي، مخل، مخل. تنقلب سيارة في الطريق العام، ينزل ناس من سيارات أخرى متفرجين: ذا مات إلى رحمة الله، وذا با يموت ذا الحين، مسكين قدره حلّ. يموت لأحدهم عزيز، يردد بحيادية: عندنا قليل وفاة. زهد في حزن وهمّ، الموت حقيقة مقبولة. يقيم أحدهم حفلة زواج "عندنا قليل زواج". الزواج سنّة ثابتة في حياة البشر. تمسك إحداهن قملة في شعر رأسها، ترميها بعيداً، ليس من فعل الطبيعة أي ضرر. عادي، تدهن شعرها بزيت متبقّ قلّت به سمكاً: أيش من كفاف؟ زيت القلي يרטب الشعر، عادي. قبالة مساكن مأهولة، يقرّص رجلاً، يرفع وزرته، يتغوط في العراء، ينتقي حجراً مناسباً ليستنحي به، جداً عادي.

مرحي لبدائية، لا لتلوث حضاري، لصخور بركانية تنتشح بسواد عابس، لغياب طراوة ندى، لمضاجعة شمس لأرض شبقة بفطرية متوحشة، يولد إثرها حر لاهب ووهج يغشى البصر "يا شمس دومي على جعبون، ويا قمر على وادي أيلون". يدفع رجل بشدقين ممثلّين أوراق قات إلى فمه في حديقة يتيمة. حر، دبق، تراب، ناس، غربان يطغي صوتها على صوت مسؤول يخطب في ندوة حزبية: قاق، قاق، قات، قات. يؤشر بيده مندداً مستنكراً، يسيء إلى معنى نبيل بحرف القاف: اننا نناضل من أجل - استغلال - كامل لا تنازل عنه..... قاق قاق..... الحوزب الاشتراكي..... قاق قاق.. تجربتنا الاشتراكية..... قاق.. قا.. قات.. قات.. (بلادي بلادي بلادي اليمن، أحبيك يا موطني مدى الزمن).

تتحرك قطعات عسكرية من مركز المحافظة. سرب من سيارات "زمرة" هاربة نحو الشمال. دبابات نظام جديد. ماردي فوضى. هيا، هيا افتحوا مخازن حكومية، اسرقوا أكياس

طحين، مواد غذائية. اسلبوا، انهبوا. علب بسكويت فارغة تتناثر في دروب القرى. قصف عاصف، معارك عنيفة، رفاق الأمس، مدرسون وعاملون في الميناء، باخرة تاخذهم إلى أمان، يتركون دورهم، مدخراتهم، ملابسهم ويهيمنون في عباب البحر، برد شتاء شمالي قارص، أكياس بطاطا فارغة تحميه من، ضياع جديد في حياة مجهولة أخرى، عادي.

بضائع استهلاكية متنوعة في الأسواق، صناعة أجنبية، منتجات استهلاكية، أنواع جديدة من البسكويت. لا مؤسسات تعاونية بعد اليوم. بشرى سارة، ستتناولون القات كل يوم. أشداق منتفخة. قات.. قات.. رجال من كهوف شمالية، جنبيات كبيرة، لحى كثيفة. تظاهرات تأييد لحاكم نظام عربي أرسل ضراطه غير المجدي إلى اسرائيل: هيا، برّعوا من بلادنا. شلّيتو علينا الطميط والبطاط، كللللش. باركوا الوحدة بين الشطرين. لحن ضائع: (عشت إيماني وحي أميا، ومسيري فوق دربي عربيا. لن ترى الدنيا على أرضي وصيًا). ناس طيبون مهمومون أزومات، همود ضحكات، وضع جديد، اعتكاف بنات في البيوت، حجاب، عزوف عن دراسة.

أم عيّدروس تضجّ في فضاء خيبة، "ما نشّتيكم.. شلّو بسكويتكم ورگعو لنا الحوزب. ما نشّتي وحدتكم. احنا ماشي زيكم". في يدها دبة شاي معطر بحبّات هال، تأخذها وتتجه صوب المرعى. قبائل؛ آل ديان، آل فضل، آل عوذلة، آل باكازم المراقشه، آل شداد، آل عمير امفضل، آل جنيد، آل بدر... الحزب الاشتراكي، منجزاته، نظرية ثورية، تجربة اشتراكية، خبراء سوفيين، صالح عوض يحلق بالشعر:

"با يعود العلم الازرق وصرف الشلن / با يخرگو غصب عنهم من عدن بالسفينة / عيب ياناس في لودر نشوف المحن /

واللي بيا المال يتربص بنا كل حينه / العواذل مع لودر ومن
بها سكن/ لا تترك، والارض للخازي تظلي رهينة / المياسر
والحسني كفانا حزن/ يا حسوفي ويا قهري لبندر عدن / يا
ضيم حالي وشوقي لبحره وطينه".

يفقد النائب السياسي وظيفته، تغضبه سليطة اللسان، زوجته
فاطمة:

- خسران اللي يبيع ليسان رگاليه بيلدنا، هم ما يلبسو شي
تحت الفوط، كيف تصنعو لهم معمل ليسان؟

- اسكتي يا مره. فيني ما يكفيني، قومي اعلمي لي شاي،
هيّا، أعصابي تعبانة.

في طريقها إلى المطبخ، تغني: (يا فاطمة قومي، قومي
انگحي الشاهي.. رعّي الخضر زعلان..). تحور الإهزوجة
الى: (رعّي بو الحوزب طفشان، با يضرب نساوين). يكتم
صالح عوض غيضة.

كفّي عن مضايقته يامرة وإلّا سيرسلك إلى دار أهلك.
تتنح فاطمة متظاهرة بالسعال. يهز رأسه أسفاً:

- زي اللي يقالط الضرط بالنحنحة. ما يضر فيك خير يا
مرا.. إحنه ما يهمنّا - قازي- ولا محتل، الحمام با يبقى - يقرّد -
على أرض اليمن، نحن إلى زيادة والكباش إلى انكماش.

سلام على نفس غير مطمئنة، تدخل في جنة العادي. (جنة
جنة جنة، والله يا وطننا)..يا وطناً تحتله الماعز، تسيطر فيه
على مبان حكومية، ترفع عليها أعلام رمزها القرون.. ميبيع،
ميبيع. تنادي على يأ جوج ومأجوج يخرجان في تظاهرة
للمطالبة بأرض ثمود وعاد وإرم ذات العماد.

مرحى للاستخراء في الفضاء. مرحى لحجر محشور في مؤخرة الزمن. مرحى لحشائش ذاكرة ضارة لا يجدي في جزّها منجل نسيان عملاق ولا إمدادات عزيزة لعقلائل. من عقلائل هذا ليفعل كل ذلك؟ عقلائل العجيب الصنديد المقارع الجبار، له تسعة وتسعون ألف اسم.. طير بابه طير.. عفة عليك وعلى بلغم حكمتك، فأنت تضطرب من مؤخرة واسعة.. لا تطلق فقاعاتك الكريهة، لا وقت لفقعها واحدة تلو الأخرى.. ابصقوا على واقعكم تقووو وضمة بحجم طن.. ارفعوا بوجهه أصابعكم الوسطى.. كثير من الأصابع الوسطى.. ني... عار أم الدنيا، أم الذاكرة، أم سنوات ست ضاعت، أم حرمانات، أم تخلف، أم صبر، أم ضريبة أحلام، أم انتظار، أم لا حضارة، أم التجارب كلها، أم الأوامر كلها، أم الهنا والهناك، أم القلق، أم اللقلق والغراب. (غرّابي أسود، دخل بيتنا، أكل لحمنا). أغربي يا غربة، أنت تأكلين أياماً ذات قيمة من عمر لن يتكرر، عمر تهرأ وما من عملية تجميلية تعيد له لحمه من جديد.. ني... عار الإنسانية وعار البشرية إذا تنتج وتتقبل هكذا أوضاع.. طز بك وبك وبكم ما طلعت شمسٌ وما غربت.. طز بحضارتكم وخصوماتكم.. طز بحروبكم وقذاراتكم.. طز بحياة وخلق انتم منه وفيه.. كم فرطتم بإنسانيتكم يا بني البشر؟

طائر يبحث عن ريش، طائر جريح يبحث عن ريش، يقطر دمه ساقياً أشواكاً وصخوراً، عازماً التحليق من جديد في أرض غير أرضه وفي سماء غير سمائه، مغرداً بوجع. وداعاً يا كفل خالق منسي على الأرض. اللعنة على زمن ضاع ويضيع في حقبة سفر .

* * *

حقيية

مصفوفة على رفوف ذاكرتهم وذاكرة سفر، أكون لمسافرين متشردين سيماهم في أيديهم من أثر الأسفار. في داخلي يضعون محتويات وأغراضاً يحتاجونها. في الحقيقة، أنا من أضعمهم فيّ، أكون لهم وطناً وزمناً لا يملكون غيره ولا يملكون غيري، لا يصاحبون غيري، لا يألّفون غيري. اسمي مقرون بالرحيل، بملابس قليلة، بنقود نزيرة، بممتلكات شخصية، بأفكار قلقة، بمجهولية محتشدة بترقب. "كلما آخيت عاصمة، رمتني بالحقيية / فالتجأت إلى رصيف الحلم والأشعار". حال الشاعر مثل حال نيدابا، تضع تاريخها، وطنها، ذاكرتها تحت جلدي، تسافر بي في آفاق ومسافات ومحطات، في بلاد باردة، بلاد حارة، بلاد فقدت طقسها.

أقبع في عنبر بارد لناقلة جوية. أين ستذهب بي هذه المرأة الآن؟ لا أدري. تسند رأسها على ظهر مقعد في طائرة، تغمض عينيها. صور وأصوات مبعثرة تهدر في بالها صاحبة، تطغى على صوت عقلاني: لا عليك نيدابا، استرخي وامحي من بالك كل ما مضى. تذكرني أوقاتاً طيبة عشتها مع ناس دمثين بسيطين.

في قرية بسيطة، تحملني، أنا حقييتها، مارّة بي على بيوت من طين، أبواب ملونة بألوان من فاقع أخضر وأحمر وأزرق، جدران مرتفعة، شبابيك خشبية صغيرة وضيقة، مداخل بيوت

مشرّعة كما خيم الصحراء، يدخلها من يدخل دون استئذان. تضعني على أرض غرفة في سكن مشترك. تدخل عليها امرأة بدوية، طويلة نحيفة ترتدي ثوباً تقليدياً كما كيس مربوط بخيط من الوسط، وينكم يا گیران؟ تسألها لو كانت بحاجة لشيء، ايش تشئتو احنا حاضرين، لا تخگلو من عندنا.

تقضي الجارة أم عیدروس يومها مع ماعزها في الخلاء، تضمخ رأسها بالحناء اتقاء لفح شمس قاهرة كما باقي نساء تلك القرية. تغطّي جسمها بخليط من مساحيق نباتات كركم ومسحوق ورق سدر وبذر كتان، أمر يثير دهشة نیدابا لأول وهلة، لكن كل دهشة تتقلص وتضمحل على أرض كهذه الأرض، تتمازج فيها بيئة بدائية مع ملامح ودواخل ساكنين. ينمحي كل فاصل وكل جدار بينهم وبين ما تمثل الدور الرئيسي في فيلم حياتهم. الطبيعة، بطلّة قصة هذا البلد ونجمه بلا منافس. يتفهقر عامل الزمن، يغدو كما ممثل كومبارس أمام عملاقة مكان وبيئة، متواشجين ناضحين بفطرائية سجية وتكوين خام خاوي من تصنّع وحضرنّة. لا شأن للناس في تلك البقعة بتزويق عصرنة ولا بتدخل حضارة من بلدان بعيدة، لا يمتثلون لمرأوغة ومجاملة حدّثة، جذورهم مشدودة ومتشبّثة بأرض بكر وسماء صرّفة. الإنسان هنا، رخوا طيّع بسجية خالصة وبتلقائية دون تعقيد، يحسن اندماجاً وتوحداً مع بيئته سلوكاً وتماثلاً دونما افتعال، يمنحه هذا الشعور استقراراً روحياً وطمأنينة راسخة في النفس، بعيداً عن تعقيدات معاصرة يشوبها قلق ويكتنفها توتر.

تنفلت طالبات من حزنهن باكيات على فراق الست نیدابا. يتعلم الطالب عبد ربّه النظافة ويشترى زوجاً من الأحذية عندما يجلب لمدّرسته جوّافة من مزرعة والده، تضع هديته في

داخلي، يمرّان على ذكر أوقات قضياها في ساحة مدرسة بعد الدوام، فوق سطح عمارة أو في البريّة، يتدربان مع بقية طلبة على مسرحيات يعرضونها في مناسبات تخص البلد.

يقطع العم عبد الله زهرات عزيزة ونادرة من حديقة المدرسة ويعملها باقة صغيرة، رغم علمه أن ذلك سيثير حنق المدير سالمين لصعوبة إنباتها، يهديها إلى الست العراقية، أتعطر بأريجها عندما تخبئها عندي. تدسّ أم عيدروس في جيبي قطعة قماش تحرص على نظافتها، تضع فيها بخوراً صنعته بيدها. تضع فاطمة، زوجة صالح عوض في جوفي، قطعة من الزي الشعبي، شريط أغان شعبية، ومجموعة من القصائد تتغنى بالأرض والإنسان، يبعثها زوجها صالح عوض كاتباً إهداءه عليها: "الى الرفيقة نيدابا.. عدن البدن وأبين اللبن.. با أتمنى تعود وتعودي لنا، ياريت التمانى با تقع لي". تطمئنّها زوجته عليه، تخبرها بأنه معتكف في الدار يردد: (ليت الزمن با يعود، يا بلاد الجدود).

عبثاً تؤسس للغياب والتشرد معنى. تائهة ترنو عيناها إلى بلادها من خلال حدقات بلدان أخرى كثيرة، إلى ملامح واضحة لغد تنتماه دون ارتحال وترقب. تستمع نيدابا وهي تحضّرني إلى راديو للمعارضة، يلخص أخبار بلد في قلبها:

غزو أحرق لبلد مجاور. سلب وقتل واستباحة، شباب يُقحمون في حرب خاسرة. يسIRON عند نهايتها في درب الموت بأسمال وأحذية مهترئة، تتساقط عليهم قذائف طيارين ساخرين مستهترين، تطفئ فرحة امهاتهم وعيونهن. يقصف متهورون ملجأً ويحترق أبرياء فيه.

تنطلق فجأة، صرخة قوية على ظلم وبصقة احتجاج على صورة حاكم. تنتقل شرارة أمل من محافظة إلى أخرى، ملتهبة

ب - لا - طال الشوق لسماعها، يقولها ناس فاض بهم ما كتموه من جور. حركة فيها بركة، يندلع لهيب هبة شعبية وتتسع رقعتها، يأمل آملون برجوع إلى دار، ينتصتون إلى أخبار متفائلة بحماس. ينظرون إلى طائر السمرمر محلقاً في فضاء أحلامهم، هادراً زاعقاً بجراد الأسى وآفات الانتظار، لن يهدم صوته بعد اليوم. يحلمون بكتابة كلمة وداع لمنافي وتشرّد اكتظت بي.

وفي غفلة من ظهر قدر قميء. تدنو خطوات ماردة لجزمات عساكر، تلعلع رشقات رصاص حاقدة على صدور، تنطلق قنابل مدافع على مآذن، يسمع العالم أصوات تأوهات لشباب يُركلون بأحذية، لآخرين يذبحون على أرصفة الشوارع، يرغم المتوحشون شباباً على شرب بترول، يشعلونهم، يفجّرونهم. يعود الحاكم إلى سيجاره الكوبي، إلى قهقهته الباردة ونظرته الشامّة. ينطفئ حلم وأمل، يفرّ الطائر من أرض الجراد إلى تخوم الخيبة.

أين أنتم يا مقهورين ويا متشردين؟ هل مازلتُم تسبّحون بحمده وتقرؤون السور؟ ألم تبدّلونها بسور تتلائم مع وضعكم؟

قل أعوذ من الناس/ من جوع الناس/ من غضب الناس/ من كثران فعل مقبل/ يكشف لحم الناس/ يا أيها الليل الخرافي ألا انجل/ يا أيها الهم الخلاسي ألا انجل/ ويا أيّتها النفس المتشظية، ارجعي إلى نسغك راوية مروية/ وادخلي في بلادي واخرجي من غربتي/ فلا أقسم بحب ذاك البلد/ وما أنا حلّ بذاك البلد/ وبصبر وما نفذ/ وبانتظار ما همد/ إن مع العسر ثورة / إن مع الظلم ثورة.

يغادر صاحب التجربة وإمرأته إلى دول اللجوء، تاركاً التجربة وأهلها بلا معين، أذهب مع نيدابا لمحطة جديدة لا

أدري أين تؤدي وإلى أي مصير. (لعبت بحالي الليلي وما لكه
ولايه العمر). يضعونني في عنبر كبير في طائرة غريبة مع
كثير من حقائب تشبهني.

اربطني الحزام يا نيدابا على صبرك وذاكرتك. خذيني إلى
مكان آخر فأنا وطنك.

"وطني حقيبة/ وحقيبتني وطن العجر شعب يخيم في الاغاني
والدخان/ شعب يفتش عن مكان بين الشظايا والمطر". أنا قلبك
"لحياة مصرّة على أن تظل كالريح تصهل صدقها/ قدماي
خشبتا تزلج على ثلوج الغربة/ وشفاه التشرّد المزرقّة/ تقبلني
كل فجر في عنقي".

متنزه

عند ركن قصي، ثمة أجمة بريّة تكثر فيها نباتات شوكية قصيرة، يبيّن متخصصون للناس معلومات عنها كأسمائها وأنواعها في قطع معدنية مثبتة عند بيئة خشنة وحشرات صغيرة. يسيل مطر الطبيعة ممترجاً بمطر الحكايات، يندفعان سوية في أفضى رعود، كلمات، أصوات، متواليات نثرية ونواثر مائية. مطر غزير لسحب مانحة، سرد بدين ثخين لسيول أحداث جارفة. من غير البشر أنفسهم قادر على صبّ كل تلك التفصيلات من مرشّة أحداث في خيالهم؟ هل يقصدون التأمل في أمور وحيوات أخرى من خلال استغراقات دقيقة في وصف وتأنيث لفضاءات سرد متلائمة مع فتات ذكرياتهم؟ لم تضيع حقيبة الأيام قفل المسرّات، فعلام تغدو مزحومة بهم في ذمة انتظار وأوهام متخمة بمرار؟ ما الضير في التفكير الايجابي أيها البشر؟ لماذا سوانح التركيز تنصبّ على استيلاء وجع ونوح بوح؟ لم لا تروّضوا أنفسكم على التفكير باللحظة لا بما مضى؟ أطلقوا أفكار الماضي من أقفاص الذاكرة، أحبوا أنفسهم لأنكم تستحقون الحياة، عيشوا، أستمعوا قدر ما تستطيعون. تمنعوا فيّ، في الطبيعة، تعلموا مثلاً. أمحوا الخوف والتوقعات. دورة الحياة أنصع وأبسط، أنقى وأبقى، لتتأكدوا بأنكم أنتم من يصنع ما يريد، لا تبرعوا في تشويه الفطرة.

ليتني أرفع صوتي ليسمعني السيد الكاتب العنيد: "سيدي، ما لك بهذا النوع من السرد الأزرق المريع، ألا ترى أن مفرداتكم الحيوانية في قواميسكم، أكثر من المفردات النباتية؟"

لكني أظن أنه لا يسمعني ولا يراني، أنه لا يفهم شيئاً مما أقوله.

أراه يناول السيدة ما بيده قائلاً بأن تلك الأوراق هي المحكية السادسة. تبادلته الابتسام، "هل من الأفضل أن يعيش بنو البشر في بيئة فطرية غير ملوثة بتحضر زائف وبأخلاق منمقة مرئية، أم ينعموا بمجريات واقع عصري يتيح لهم أشكال تطور تنمو فيه قدرات عقلية تحول دون تفهقره وضيق تفكيره؟ وهل جوهر الإنسان هو الجانب البهيمي منه؟" يقفل السيد الكاتب راجعاً إلى داره بعد توقف المطر.

تتأمل السيدة المطر من على مصطبة يعتليها سقف يحمي من البلل، "هل يمكن أن يكتب أحدنا بصدق وببساطة في آن واحد دون أن يقف في طريق تفكيره رأي قارئ أو رضا ناقد؟"

تواصل القراءة.

"لكن، إلى متى ستظل فارغونات المحكيات سائرة بقطار حياتها نحو المجهول؟"

أسمع صوتها متهدجاً أثناء قراءتها للمحكية السادسة.

المحكية السادسة

عصير الظلام



"الحرب التي لوثت قمح أيامي/....الحرب التي تلوتها
بالخطيئة، فبصقتني بالسخام/....الحرب التي قطعت لنا
تذاكر الهجرة/ وبطاقات التموين/ وليل التجني وكلاب
الحدود/ كيف أحذفها؟ "

أختي الحبيبة وابنتي الغالية

يا سندباد الزمن المعاصر ويا أيها السنونو العابر للمسافات
والأوجاع

تحية طيبة مع عظيم حنيني وأشواقِي

"ما كنتُ أُوثرُ أن يمتدَّ بي زمَني // حتى أرى دولةَ الأوغادِ
والسفلِ"

"يسوسون الأنامَ بغير عقلٍ // فينفذُ أمرُهم ويُقالُ ساسَه //

فأفَّ من الحياةِ وأفَّ مِنِّي // ومن زمنِ رئاسته خَساسَه "

خير فاتحة لرسالتي، وجدتها لامية الطغرائي وشعر
المعري.

ستستغربين لا محالة من مكان إرسال هذه الرسالة ومن
حجمها، يمكنني أن أسميها رسالة من أبط مقصلة. ولكي لا
تحتاري وتندهشي، أخبرك بأني أنتهز فرصة وجودي خارج
الوطن لأكتب اليك بحرية بعدما كنت أخشى حتى من فكرة
الكتابة اليك، رغم أنني كنت أتمنى لو أكتب لك يومياً، وفي كل
مرّة أقاوم إغراء يلحّ عليّ بالبوح وفكرة مجنونة في المغامرة
بكل شيء من أجل التواصل معك ومعرفة أخبارك. أعدل عن
ذلك لأسباب تعليميها وأظنك تقدّرينها، تتعلق بزوجي مجيد
وأخيك فارس والعسكريين الآخرين في العائلة، وحتى لو
تقاعدوا يبقون في خطر محاسبة السلطة. إعذريني أختي حين
دعوتك للعودة وقلت لك أن الدنيا بخير بفضل القيادة الحكيمة،
فلقد كان رجال أمن المنطقة يملون عليّ ما أكتب لك. أقدر
حرصك علينا وعدم تطرّك إلى أي موضوع ذي طابع سياسي
وأصارحك القول أنني أكتب لك الآن وأنا أتلفت قلقاً وخوفاً
وكأن هناك من يراقبني، ولا أظن أن خوفي هذا سيغادرني أبداً

ما حييت، أخاف من أن يظهر ما أفكر به على انفعالاتي
وقسمات وجهي أو لغة جسدي، خشية أن يكشفني أحد أو أن
ينطبع في لاوعيي، فأهلوس به أثناء النوم.

أختي الغالية

إغفري لي إذا اعترفت لك بأننا وبعد ما حدث لأرشد إبني
الكبير، من سجن وتعذيب عقب إقراره بأن خالته في
المعارضة وفق ما يلزمه قانون السلامة الفكرية بغرض تنقية
البعثيين من أقارب معارضين. اضطررنا أمام السلطة إلى
إخفاء أثارك، بل ومحوها مثل كتبك وصورك وكل أشياءك،
فلم يكتفوا بذلك فقط بل طلبوا منا التبرؤ منك علناً، وقد فعلنا
ذلك مرغمين.

أعلم قسوة ما أقوله وصعوبة استيعابه من شخص رقيق
مثلك، لكن الذي عشناه من رعب وقلق يا عزيزتي، يبرّر فعلتنا
هذه، وليس لدي أدنى شك بأنك تفضلين الحفاظ على حياتنا لو
خيرناك بينها وبين المصير الأسود الذي كان متوقعا لكل
العائلة، فاعذريني يا حبيبتي لقسوتي وأنت تعلمين كم نحبك
كلنا. وكما تعلمين أيضاً، أن للإنسان نقاط ضعف كثيرة ومنها
حبه للحياة مهما كانت حقيرة ومذلة، وهناك قلة من الذين لم
يوافقوا على ذلك، اختفوا ما وراء السجون وتحت التراب نتيجة
تشبثهم بالمبدأ، ونحن، لا أدري هل أقول للأسف أم لا، لسنا
منهم ولا نمتلك مقدرتهم.

لك الحق الآن في أن تتوقفي عن قراءة كلمات أختك وترمي
رسالتها في أقرب قمامة ولا تعودي إلى مراسلتها أو حتى
التفكير بها، لا ألومك. كم أضناني التفكير بردّ فعلك؟ عليك أن
تتخلي.

لعلكم، مرّت علينا سنوات وعهود لم نألف مثلها قط في ضراوة ظروفها وتأثيراتها السيئة، أيام غريبة كلّ الغرابة عنّا نحن جيل الأربعينات الذين نختلف عن أجيال أعقبتنا والتي لم تواكب وتشهد مزايا أيام طيبة غابرة. إنها حالة تشبه الذي يعيش فترة رخاء ورفاهية في دولة أجنبية ويأتي ليعيش بعدها في قرية صغيرة معزولة في بلدة متخلفة، سيكون حاله قطعاً ليس كما حال القروي الذي لم يتخط حدود قريته. لا تأخذ أولادنا وأولادهم من بعدهم اليوم مديات الدهشة كما تباغتنا نحن في كل تغيير وتبدل في الحياة حولنا، وأصدقك القول إن ما جرى وما يجري من اختلال في مفاهيم الحياة الجوهريّة، غير حتى أقراننا ممن عاصروا الأحداث وويلاتها وجعلهم متباينين في ردود أفعالهم ومواقفهم وتقبلهم أو رفضهم لها، فهناك من انزوى في داره مكتفياً بتقاعد بسيط وحياة مقتصرة على رش حديقة منزل والخروج عصراً إلى مقهى قريب للعب الدومينو. وهناك من جرفه التيار في مجراه العاتي والقسري وأجبره على محاباة السلطة حفاظاً على نفسه وإتقاء شرها. وأيضاً هناك من سعى وراء مكتسبات حياتية كجاء ومركز ومال وحظوة فلبس البدلة الزيتونية واتخذ من التملق والتذلل لرجالات الحكم مسلكاً نلومهم عليه، لكن لو كان اللائمون في وضعهم لربما صاروا مثلهم. كل الأمور جائزة ومحتملة اليوم، فإمكانية الرضوخ للقوة وخسارة الأخلاق والمثل، واردة عند بعض الناس في أي مكان وأي زمان، فكيف في بلدنا وقد ذاق الخراب تلو الخراب والحرب تلو الحرب والقهر تلو القهر؟ نحن أصابتنا ركلات قهر متتالية لا زال أثرها شاخساً لا يبرح أراوحنا وأنفسنا، كل ذلك بسبب هيمنة حاكم أراد أن يدخل التاريخ بثمن باهض.

ستقولين إن هذا تبرير رخيص لهشاشة مواقفنا وسهولة

إنحنائنا للطغيان، تلك هي قدرتنا وأغلب الناس مثلنا، أقدموا على فعل لم يروا منه بُدّاً، وعموماً أنا لا أبرر وضعي ولا أدافع عنه كما البعض ممن يشعر بالعزة في الإثم ويدافع عن صحة اختياراته الخاطئة بحرارة بل ويذهب أبعد من ذلك فيتهجم على منتقديه حد النقمة. أنا سجّلت في الحزب وانتظمت في اجتماعات حزبية شكلياً لأن وظيفتي كمديرة مدرسة مهددة بل وحياتي كلها، إن لم أفعل ما يريدونه مني.

أظنك على اطلاع بالأخبار، وربما لديك أنباء عنا أفضل ممّا بسبب التعتيم عليها عندنا، فدعيني لا أزيد مواجعك ولا أطيل، أم أراك تفضلين ذلك لتكون عندك صورة أكمل، وللأسف أقول أقبح، عن أرض أحببتموها وناضلتن من أجل سعادة ناسها وتغرّبتن من أجلها ومن أجلهم؟

كان عليّ أن أخبرك في البدء عن سبب وجودي مع مجيد خارج البلد، وكيف تسنى لنا ذلك وناس البلد محكوم عليهم بالبقاء في تربة وطنهم وعدم مغادرتها حتى بعد مماتهم، لأنني أظن حتى الجنة ممنوعة علينا بعد اليوم. باختصار، وقبل عامين أصاب مجيد مرض في القلب تطلّب العلاج الدقيق وهذا ما لم يتوفر يومها عندنا. عجزنا في رحلة البحث عن علاج شاف وطبيب متخصص له حتى ساءت حالته، نصحني كثيرون بالذهاب إلى الخارج، ولكن ذلك الأمر كان ضرباً من ضروب المستحيل أو من المعجزات التي لا نجرؤ على التفكير بها، وفي صدف غريبة لمحت في التلفزيون وجهاً أعرفه من زمن الماضي في موقع يقرب من المسؤولية والسلطة، كان ذلك هو وجه - فضيلة - صديقة الصبا والشباب، الفتاة المتناقضة والجريئة، والتي أصبحت اليوم في مكانة قريبة من صانعي القرار بعد زواجها الثاني من مسؤول كبير في الدولة.

وجدتُ أن اللجوء إليها آخر وسيلة لإنقاذ عمّك رغم صعوبة ذلك، لم أجد بديلاً من طلب مقابلتها، ولما جاءني ردها بالإيجاب، حملت حالي ويأسي وذهبت إليها على الفور. وحين سمحوا لي بمقابلتها بعد انتظار مرهق وتفتيش أكثر إرهاقاً وذكلاً وصل حتى الدبر، قابلتها، ودار حديث مقتضب بيننا، ختمته بما يشبه التلميح والتهديد مع مفاجأة لم أكن أتوقعها:

- شوفي فردوس، مثل متعرفين أنني اليوم مسؤولة بالحزب وزوجة مسؤول كبير بالدولة، ما أريد أي شي من قصص الماضي تشوش على حياتي، أنت وزوجك راح ترحون على نفقة الدولة للعلاج، وهذا كل ما أقدر أقدمه وفاء لذكرى زمالة كانت بيننا.

لم أعجب من تلك المقابلة ولم أفكر في تفاصيلها طويلاً، لأن هناك الكثير من الأشياء تحدث بسرعة وبغراة ولا يوجد وقت للتمعن فيها وتحليلها والتعجب منها، وحالي كان لا يسمح بالتفسيرات التي كنا فيما مضى، نقضي وقتنا فيها، نفكر ونمحّص حتى نستنتج العبر والدروس، لا وقت اليوم لكل هذا، وما فائدة تلك العبر والدروس التي ينبغي علينا الإحتفاظ بها لأنفسنا؟

أثناء المقابلة التاريخية، جننا في حديثنا القصير إلى سيرة راجحة التي هاجرت إلى دولة مجاورة، وتجنبنا الحديث عن إختفاء خالدة منذ زمن طويل، وابتسمنا عندما تحدثنا عن ابتسام وإنشغالها بأولادها وأحفادها، إثر زواج مبكر كانت تسعى إليه، وكذلك تحجبها وحجّها. لم نأتِ إلى سيرة فضيلة ذاتها أو إلى أسرار ذكرتها لي من قبل. كانت صفحة من ماض انطوت مع زمن فات وانقضى. وهكذا تجديني اليوم أكتب لك من البلد الأجنبي حيث يتعالج عمك مجيد.

ومهما يكن من أمر، عشنا في السنوات الماضية حياة استثنائية، حربين عبثيتين طاحنتين وما يشوبهما من حياة استثنائية كأزيز طائرات وصفارات إنذار وصفير وعصف صواريخ وعسكرة مجتمع وشيوع لونين في واقعنا، زيتوني وأسود، فضلاً عن منع تجوال ومنع أفراح وحالة طوارئ وإعلام مؤدلج وتغييب ثقافة وترهيب مقصود وفساد اجتماعي ومزايدات وانحطاط نفوس وتقييد حريات وخوف مزمن وقلق دائم وشكّ بمن حولنا، حتى بالجيران وبأقرب الناس، إضافة إلى تكميم أفواه وحرمانات وفاقة وتبعيث إلزامي ومحاسبة على وزر أقارب من الدرجة العاشرة وتخمة وطنية جوفاء ومواضيع تعبوية وإعلام أحرق وصور من المعركة وانتصرنا وفرض تصور واحد على كل المواطنين، وكثير من "الواوات" لقطع النفس. أضحى الكل عبيداً للقائد وعائلته ولأتباعه وغدونا كلنا جميعاً مشاريع استشهاد فداءً للقائد، فإن نعيش فنحن مخطئون إذاً ولسنا جديرين بلقب الكرماء "فالشهداء أكرم منا جميعاً" والحياة خطيئة علينا ألا نقرّبها، ليغدو فيما بعد الشهداء "أكثر" منا جميعاً عدداً. فقدان لا يوصف وتفاقم مهول في عمليات غسل المخ وبرمجته وإعادة صياغته بصورة منظمة لدرجة صرنا نتشكك بكل شيء، حتى بقوانا العقلية.

كانت أهوال الصدمات فوق مستوى قدرة مختبرات التحليل النفسي على تحديد الاعراض، أصابت كرامة المواطن في الصميم وكسرت نفسيته وشوّهت شخصيته. وهناك جملة معطيات حكمت مسار الشخصية العراقية منها اتساع ظواهر انفصام الشخصية والكآبة الحادة فبات مجتمعنا يتألف من شخصيات عدمية ومتوترة ومضطربة تحمل أمراضاً عصابية معقدة تكاد تستعصي حالاتها، وكثرت آثار عدوانية لمعاناة العراقيين، مثل التدهور النفسي والتفكك المجتمعي والإنهيار

القيمي مع تزايد معدلات الإصابة بأمراض الشيزوفرينيا. لكن حتى المجنون لا يسلم منهم فالجنون رفاهية لا يمكننا امتلاكها. فما بال الأجيال القادمة وكيف ستسير الوطن؟ لا أدري.

حالات الترويع التي طالت الناس في تلك سنوات، جعلتهم يعيشون برعب وتوجس دائمين وخوف حتى من اسم القائد، للحد الذي يتندر فيه البعض بقولهم لو تستعصي عليك عملية تفريغ أمعاءك، هدّدها بالقائد فتخرج طائعة تهتف له بطول العمر. وحتى الأحلام، يتسيد مشهدها مثل اليقظة. صار الناس يتجسسون على بعضهم البعض، حتى الأطفال صاروا جواسيس صغار على أهاليهم الذين باتوا يخشون من الحديث والتذمر أمامهم، كما فعل ابن فارس حين لعنت أم هشام الرئيس القائد أمامه، فتح عينيه متعجباً وقال: بيبي تسيين بابا صدام؟ فأكرت أُمي ذلك وأخبرته أنها أخطأت بالأسم سهواً بعد أن كانت تريد سب الفرس المجوس، وراحت تغني له (تفاح تفاح، صدام مرتاح، عرموط عرموط، خميني مربوط) وفي سرّها تلعن كل من كان السبب في هذا الوضع. يريد النظام أن ينشئ جيلاً قاسي القلب ومنزوعاً من الرأفة فيأخذ الصغار من رياض الأطفال إلى ساحات الإعدام حتى يصفقوا ويهتفوا لأفطع مشاهد يمكن أن تشهدها عينا طفل، لا غرابة أن يقول برتراند راسل، بأن "الحرب تبدأ من رياض الأطفال وليس من ثكنات الجيش". لا أدري متى نخلص من هذا الكابوس القابع في أعماق تجاويف الألم والقسوة، وأعجب، كيف يمكن للسياسة أن تطفئ بريق ناس طبيين وتشوّه أحلامهم وتغدّر بآمالهم في بلد ازدهرت على أرضه حضارات عريقة. من نحاسب ومن نتهم ومن نُدين؟ متى يمكن أن ندين الجناة؟ وهل سيطول بنا العمر ونعيش حتى نعرف كل الخفايا ومن ورائها؟ لا أظن ذلك، فلم يبقَ من العمر الكثير، ومازلنا في

لجة المستنقع وعوج الحياة طال أمده. لا يغدو الوطن بعد تخريب النفوس سوى بقعة جغرافية ومزبلة نفسية تخلو من تضاريس إنسانية وفكرية وثقافية وحضارية، يعلو فيها صوت الحمق وليس صوت الحق، في زمن يفوق فيه عدد توابيت جنود قتلى قادمة من جبهات حروب عبثية، على عدد ناس تمشي في الشوارع، ولا يتفوق عليها عدداً سوى عيون أجهزة الأمن والعسس، الذين صاروا يلجأون إلى أسلوب تسريب النكات على صدام وقسوته وتصرفاته بعمد ولأسباب منها للتنفيس ولامتصاص الطاقة السلبية للناس، وكذلك من أجل اصطيد من يضحك عليها وينشرها، ولربما لخلق صورة القوة والسطوة والخوف من القائد.

هل تتذكرين كاظم ابن أخو عمك مجيد؟ لقد اعترف على تنظيمه الحزبي المعارض بعد أن هددوه باغتصاب زوجته أمامه في دائرة الأمن كما شاع، فما كان منه إلا أن انتحر بعد أن أفرجوا عنه. كما واعتقلوا زميلتك في الجامعة نُهى من أمام بيتها وسربوا معلومات كيف أنهم تفننوا في تعذيبها، فلقد سمعنا بأنهم علقوها من رجليها وهي تنزف أثناء الحيض، وحرموها من ابنتها الرضيعة التي ماتت أمام عينيها. ليس القصد من تلك الأخبار هو أن تحزني بل ربما أنتم في الخارج تستطيعون فضح تلك الأفعال المشينة بحق البشرية والإنسانية. كما لا تنسوا أن تفضحوا كيف تعيش الأسرة الحاكمة على حساب جوع الناس وحرماناتهم، والكل يعرف في منطقتنا كيف يبنون قصر السيدة الأولى بالمرمر والمعادن النفيسة، في الوقت الذي يركض ويشقى الناس من أجل استحصال طبقة من البيض. وللأسف، أيضاً، أخبرك أن جارتنا أم فائزة وابنتها، ذبحتها عصابة سرقت ما بحوزتهم من ذهب، ويُشاع بأن ابن اختها اتفق مع الممرضة التي تساعد في علاجهما على هذه الفعلة

معذرة على إثارة الشجون، ولأنتقل إلى أخبارنا وأظنك متلهفة لسردها.

لم أعد أنا اليوم كما تركتني، أنهكني الزمن والجري اليومي في وظيفتين لا تفي ثمن حذاء، إضافة إلى تلبية حاجات الدار وطلبات عمك مجيد الذي تغير كثيراً إثر تقاعده ومرضه فصار كثير الطلبات والشكوى والتبرم. أراني وقد عافت روعي أحلاماً جمّة في السفر وإقامة معارض فنية وإتمام قراءة مما هو مرصوف على رفوف مكتبتي من كتب وتلخيصها. ليس لي مزاج أو وقت لمطالعة ورقة من كتاب بعد أن تشوّه كل شيء، حتى حديقتي التي هي بهجتي وسلوتي الوحيدة، اقتطعنا منها ملحقاتاً وأجرّناه كمردود مخصص لأجرة الأطباء والأدوية، وأكاد أحسّ بأنني اقتطعت جزءاً من قلبي وأجرّته، لكن في هذا الزمن حياة الترف ممنوعة عنا، وحديقة الدار إحدى مظاهرها، ولقد بنينا سياجاً عالياً بيننا وبين جيراننا أبو محمد خشية السرقات والقتل. هل تذكرين عندما كنا لا نعبأ بارتفاع سياج وكيف كان أبو محمد وولده يقفزون إلينا عبره ويسهرون لشرب الشاي كل يوم الخميس حتى ينتهي فيلم السهرة؟ كل ذلك انتهى اليوم، ليس لدينا وقت ومورد لإستضافة أحد، ولا يتوفر وقت ولا مزاج لزيارة جيران أو أصدقاء، خوفاً من التطرق إلى البوح بموضوع مع الآخرين يؤدي إلى الوشاية أو تأويل الكلام، فالمخابرات لا تحتاج إلى أكثر من دسيصة من جار أو صديق حتى يخفي الموشى به وعائلته من الوجود. فقد يستغفلك جارك ويضحك عليك ويأكل ويشرب معك ثم يكتب عنك تقريراً يأتي بأجلك لأنه ملزم ومطالب بذلك، أو يفعل ذلك من أجل الحصول على وعد بمكاسب وتقرب للسلطة، وهكذا

اصبحت الوشاية خصلة الروح الوطنية ومعيارها، وكتابة التقارير أمراً إلزامياً وواجباً وطنياً. ولا غرابة أن يكتب الفراش تقريراً عن مديره أو وزيره، إذ أن الأجهزة السلطوية والأمنية تشجع الصغار والكبار على هذه "المهمة النبيلة" ولتسهيلها، يظهر رقم تلفون على التلفزيون للتبليغ عن أي شخص مشبوه يشكّ حزبي نجيب، بعدم ولائه للحزب والنظام الحاكم حتى لو تكون وشاية عشوائية لا تتأكد منها ومن دقتها أجهزة متوحشة ومهيأة للإنقضاض على أي إنسان بكل استهتار ومن دون وجه حق.

لا تشغلي بالك عزيزتي، نحن تعودنا على ذلك.

إليك أخبارنا، وأبتدئ بأخبار أم هشام، المرأة الوحيدة في الأسرة وربما في المدينة والقطر كله، التي لا تبرح الأبتسامة شفيتها رغم ما مرّت به من متاعب، فهي لا تزال مُحبة ومتفائلة ومقبلة على الحياة وشغوفة بها رغم أنها كانت بارعة في ابتكار الأحزان السريعة والشكوى الهوائية سريعة التأثير. هل تتذكرين أياماً كانت تقضيها نادبة حظها ونصيبتها، فتعيد الأسطوانة اليومية المقررة نفسها التي كان فارس يقدم لها بقوله: اسطوانات جقماقجي تقدم لكم المطربة شفيقة جبر، أو تسجيلات شرهان الكاطع- البصرة - ساحة ام البروم لصاحبيتها أم هشوم؟ كأنما كان ذلك البوح بصوت عالٍ، نوعاً من أنواع التعبير عن الغضب الداخلي ودحراً للكآبة. ولا أدري كيف تسنّى لها أن تتوقف عن عاداتها تلك. ربما لجأت إلى الصمت بعدما استنفذت كل ما لديها من كلام على مدى أكثر من ستين سنة. هل تذكرين اتفاقنا يوماً في أن تنبّه أحدانا الأخرى إذا ما قلدناها لا شعورياً في نهجها هذا، بل وكيف تراهنا أيضاً وكنت تفوزين دائماً؟

كنت أعلم وأتألم لمعرفة ما تعانيه من تلميحات وعزلة من صديقاتك وأنت صغيرة جرّاء مهنة والدتنا. يوماً وجدتُك تبكين لما قالت لك ابنة المعلمة، بأن أمها منعتها من مصاحبة ابنة "الحلاّقة". لكن أنا متأكدة أنك اليوم تدركين أنها أعلى شأنًا ورفعة من بقية النساء، واللاتي أكبر ما فعلنه هو الاعتماد على أزواجهن في تدبير شؤون بيوتهن. لم تستسلم أمنا كعاداتها ولم تتوقف عند حدود الخيبة والألم واللافعال مثل بقية النساء، ولم تنتظر أن تجد المشاكل حلولاً لنفسها، بل كانت تقوم بحلّها بطرقها التي تهدف إلى تحسين جودة حياتها وحياتنا. تقضي أمني هذه الأيام معظم أوقاتها في علاقات إجتماعية متشعبة ومتشعبة بروح الطرافة والمرح. ظلّت مخيلتها متوقّدة، تصوغ حكايات وقعت لها وأعاجيب حدثت لها، منها زيارتها لقصر زوجة الرئيس مع وصف دقيق حتى لصنابير المرافق الصحية الذهبية، أو حتى قيامها بزيارات لمواقع سياحية لم تطأها قدامها. ولقد ساهمت منذ مدة، في تأسيس جمعية للأرامل والثكالي تنظم زيارات بين عضواتها، وبإداء الواجب في فواتح ومآتم يومية. ونظراً لشحة وغلاء البيض، أخذت تربي دجاجاً في حديقة الدار وتسمي كل دجاجة باسم، فالدجاجة القبيحة التي فقدت عينها تسميها- نجية- على اسم عمتنا التي لم تحبها أبداً، والأخرى التي تدرّ عليها بالبيض، تسميها دلال، أما الديك البرتقالي اللون الضعيف والقبيح، تسميه- عزّت- على اسم أحد المسؤولين الكبار، ولا تفصح عن اسمه إلا حين توبّخه بصوت واطئ، فتبدأ صباحاتها بالأحاديث مع دجاجاتها وتحرضهن على الديك المسكين. فلسفتها في الحياة، هي ان كل ما يحدث هو قدر ومكتوب، وعلينا أن نعيش بكل طاقتنا متصالحين مع ما هو مرسوم لنا بأنامل القدر. تؤمن بالضحكة النابعة من القلب باعتبارها الخطوة الأولى للعيش السليم، وشعارها دائماً:

خَلِّي نعيش يومنا ونتونس، منو أبو باجر. لا أدري كيف توصلت إلى تلك القناعة وأمنت بها وطبقتها، وذلك من فوائد مهنتها ربما والتي علمتها أن تكون صابرة على جور الأيام. أوشك أن أقتنع بصواب نظريتها في الحياة، وأتأكد من اننا نحن المخطئون. أمنا لم نتعود على الراحة، فلمّا تمرض واطلب منها الاسترخاء لأعتني بها، تستكثر على نفسها ذلك فتتخرج وتلمل وتهمّ بالنهوض من فراشها من أجل خدمة نفسها بنفسها كأنها تستكثر ذلك على ذاتها، في مؤشر نفسي واجتماعي بانها لا تستحق أن تكون سعيدة. هكذا أمهاتنا، كلهنّ شقيّات مثل شقيّة أمنا. تعاني أم هشام هذه الأيام من إهمال أخوتي لها بسبب إنشغالاتهم الحياتية، وإذا يتصل بها أحدهم، تشكو له من مرض لا تعرف ماهو، قائلة بأنها تدنو من النهاية وأنها سوف تموت ولن تتمكن من رؤية أحد منهم. يعرف من يتصل بها دائها، مدركا حاجتها إلى كسب الإهتمام فضلاً عن حاجتها الدائمة للزيارات الترفيهية والاجتماعية، فيمازحها بقوله أنه كان ينوي أخذها بسيارته إلى بيت فلان الفلاني اليوم عصرأ لكنه يأسف لكونها مريضة، فيسمع صوتها متحمساً من الطرف الآخر للهاتف مبدياً إستعداداً للخروج "خمس دقائق ألبس هدومي، انتظرك بالباب".

أضطرت أمنا في فترة الضنك، إلى تأجير غرف دارها إلى طالبات الجامعة من مدينتنا من العوائل التي ما تزال على صلة بها، ثم بنت ملحقا في گراج الدار سكنت فيه وأجّرت البيت كله، ولم تمدّ يدها لأحد من أبنائها. علمتُ يوماً بالصدفة، أنها باعت الكثير من حاجياتها التي كانت تعتز بها كما فعلتُ أنا، إذ نصبت أختك طاولة كبيرة وعليها صحنون صينية عزيزة عليّ وبينها طقم تقديم صيني مفضل عندي، منقوش عليه رسم لروميو وجوليت، وكذلك تحف كنت أقتنيها في سفرائنا،

ومعطف فرو اشتريته من الخارج مع عقد كهرب، وأغراض أخرى لم نعد بحاجة لها واعتبرناها حاجات ترفيحية جزاء حاجتنا إلى الطعام وأشياء ضرورية أخرى. لكننا أحسن حالاً من غيرنا الذي اضطر إلى بيع أبواب وشبابيك داره وأعضائه أو حتى أطفاله أو شرفه.

تناسل الحزن في وطننا، وظهرت تركيبة غريبة من ناس لا نكاد نعرفهم بيننا وحولنا كزبد البحر على سطح واقعنا، رجال ونساء، متعصبون ومحدودو أفق وفاقدو طموح وتطلعات، خالون من ثقافة وأطلاع وجاهلون بأبسط قواعد السلوك القويم والخلق الرفيع. يلجأ البعض إلى أساليب الإحتيال كما حدث مع أخينا أبي الفوارس في سيارته التي حوّلها إلى تاكسي للأجرة بعد تقاعده الإجماري، يوم أركب معه زوجاً وزوجته كانا يتشاجران على سمكة يحملانها، رماها الزوج من نافذة السيارة، فلم يحتمل أخوك رؤية أكلة سمك تذهب من فمه، وما كان منه إلا أن أوقف سيارته ونزل ليقلب السمكة، ولم يكد يفعل ذلك حتى شغل الراكبان السيارة وسرقاها. وحدث لنا ما حدث لفارس يوم ظلّ عمك مجيد يقول من المستحيل لأحد أن يحرّك سيارتنا من الكراج، وليس بمقدور أحد أن يسرقها بعد أن ربطها ربطاً محكماً بسلاسل سمّاها سلاسل المستحيل، وفي إحدى الصباحات لم نجد السيارة في مكانها، بل وجدنا بدلها ورقة مكتوب عليها، "تباً للمستحيل، كسرنا السلاسل والزنجيل وسرقنا الأوتوموبيل".

ضاعت قيم أصيلة، وحلّت محلها أخرى وضيعة وغريبة. معظم الناس هم أناس ليسوا صادقين، آرائهم آراء شخص آخر، حياتهم تقليد وعواطفهم اقتباس ورياء. أخلو إلى نفسي أحياناً وأتذكر حياتنا وزمننا البسيط لما كنا سوياً في بيت واحد

مع هشام ومبادئه وكتبه وأحلامه، وحسّان وفارس وخلافتهما واختلافاتهما المتواصلة وهواياتهما المتعددة ودأبهما على تحقيق طموحات غضة، وحتى زبونات والدتي واهتمامهن بكل جديد في عالم الموسيقى والأغاني ومتابعتهن وتفسيرهن للأغنيات الجديدة لأم كلثوم.

من الصعب التخيل أننا نتمنى أن يكون الحاضر بنكهة الماضي وأن ترجع الحياة القديمة، كيف يمكن ذلك ولماذا؟ نعيش اليوم ونكون في الأمس، ونتحسر ونقول هباءً: (قل للزمان إرجع يا زمان). ورغم أن الخوف كان يحيطنا لكنه كان بدائياً وبسيطاً، فلما كنا صغاراً نخاف من حقنة الطبيب أو من الكلب، أما اليوم فالأم تخيف طفلها ببابا صدام أو بالشرطة. لست محللة سياسية ولا أريد أن أكون فهناك الكثير منهم ولا أنوي أن أزيد عددهم، غير أنني أزدري القمع والحروب وتبعاتها وكل من يقوم بإشغالها، ولا أطيق الديكتاتورية الشمولية ولا أقبل بالظلم والاستبداد وإذلال البشر وعلى وجه الخصوص المرأة.

كنت سابقاً أنتقد قدر المرأة في بلدنا وأقول لماذا ترسم حياتنا قيود تقاليد ووصايا جاهزة تحدد مصيرنا؟ من يضع تلك الحدود بين سمعة رديئة وأخرى حسنة؟ من يرسم خطوطاً للصواب وللخطأ؟ من يسمح لنفسه أن يكون حاكماً وحكماً على مقدراتنا وسير حياتنا وسلوكنا؟ ولماذا لا يتركونا نتعلم من الحياة بعد تحصينهم وإعطائهم مثلاً حسنة وقنوات صالحة لنا؟ لماذا لا يدعوننا نخطأ نتعلم بشكل أفضل من قرارات وقوانين وتقاليد متوارثة منقولة جيلاً عن جيل؟ ولكني لم أجرو على المطالبة بنزع عباءتي خشية إخراج مجيد أمام أهله، ربما سرّ عبودية المرأة هو سلبيتها. كانت أحلامي بسيطة متواضعة،

ليست كأحلام فتيات تلك المدينة في زوج ثري وبيت وسيارة. كنت أريد التخلص من عبودية الشغل مع والدتي ومن شقاء أعمال منزلية لسبعة أشخاص في أسرة واحدة، وأحلم بالتفرغ للعناية بملابسي ومظهري وبوقت كاف للتمتع بقراءة الكتب وروايات الهلال ومجلة حواء. كنت أحلم بحرية أكبر وأتمنى لو كان أبي من يعيل الأسرة كأباء صديقاتي ولا يترك أمي تشتغل لوحدها، أحلم ببيت هادئ دون مشاكل أخوتي وتعليقات فارس الصغير لما يراني أتملى من رؤية جسدي أمام المرأة ويروح قائلاً: فردوسة المتعوسة/ تريد تصير عروسه/ تموت ومتحصّل بوسه.

يغيظني أكثر حينما يمثل مشهد لقائي بمجيد. يلبس عباءة أمي ويحمل بيده مجلة حواء، يتعمد أن تسقط على الأرض، يأتي حسّان مؤدياً دور مجيد، فيلتقطها من الأرض ويسلمها له، يخفي فارس بطرف العباءة ابتسامة واسعة جريئة له. ينظر إلى حسّان بجرأة وانبهار، يحرك حاجبيه إعجاباً، ويبدأ الممثلان بالتكلم بلهجة الأفلام العربية:

- تتگوزيني يا بت يا دوسة؟

- يوه بئى، ما تكسفنيش يا سي مكيد، روح يا خويه هات أهلك يشبكوني.

وما يجعلني أحنق أكثر، إضافات فارس على المشهد، كضحكة ممطوطة وتهيدة مسموعة وتضخيم في حركة شفاه ومضع علكة بطريقة مستهترة يعمل منها بين الفينة والأخرى بالونات يفرقها على شفتيه، ثم مشهد الجري وراء "الشاب مجيد" في محاولة لتقبيله وضّمّه بالعباءة، كوميديا تنقلب إلى تراجيديا لما أترك خربشات أظافري على وجهي الممثلين. أما اليوم فلقد صار كل ذلك ذكريات جميلة لا يمكن لزمن أن يأتي

بمثلها وأن يتكرر.

ورغم أننا عشنا فترة الحروب والقصف في القضاء، وأكلنا خبزاً عجيباً يحتوي على كل شيء ما عدا القمح، إلا أننا أفضل حالاً من غيرنا كما أخبرتك. فأنا استلم راتباً تقاعدياً يساعدنا على العيش رغم ضآلته، مع راتب عمك مجيد التقاعدي. صحتي تتراوح بين جيدة وبين معاناة من أمراض العمر والدهر، ضعف قلب والتهاب مثانة ومفاصل وروماتزم والقائمة تطول. أزهر أحياناً من الوحدة في الدار، بعدما كنت أنظم زيارات اسبوعية اجتماعية بين المعلمات نغني ونمرح ونأكل فيها ونتسلى، ونذهب من حين لآخر في سفرات ترفيهية لقناة الجيش وسلمان باك وسامراء وآثار بابل وغيرها من الأماكن الجميلة. أما اليوم فلا نقدر على الإتيان بمثل ما كنا نفعله من قبل لضيق الحالة المادية وخشية معرفة من حولنا بحالة فرح نتمتع بها ويروح يكتب تقريراً عن خروقاتنا واستهتارنا في الوقت الذي يمر فيه الوطن بحالة طوارئ تتطلب عدم شغل حياتنا إلا بالمجهود الحربي ومقارعة الحصار، فالسرور ممنوع اليوم بكل أشكاله. لكن هذا الأمر لا ينطبق على شخص ربما تخمّن من أقصد، نعم فارس، والذي هو والنكتة واللامبالاة رديفان ويؤمن بالشعر الذي يقول: دع المقادير تجري في أعنتها/ ولا تبيتن إلا خالي البال. تذكّرين حينما كان يقول بأنك لست ابنتنا وحملك اللقلق إلينا؟ وكيف كان يخرج لسانه ويحركه لكي يغيطك؟ وكيف كان يأخذ منك ومن كل الأطفال لب الخس مدعيّاً خوفه على والديكم من الموت لو تأكلونه، في الوقت الذي يأكله هو؟ ما يزال فارس على عاداته حين يضع أمراً في باله لا يتركه حتى يخلّده بقصائده. أتخمننا بـ "قصائد" عن مذاق وفوائد حلاوة "الحصارية ووحش الطاوة الأسود"، والمؤسف أنه، وبعد أن

تقاعد من الجيش لكونه عسكري غير عقائدي، تنقل من مهنة إلى أخرى مابين محل للطباعة والاستنساخ ودكان بقاله ومحل لبيع إطارات السيارات وحتى سائق تاكسي، وتحول في تلك السنين من عسكري مخرب، إلى كاسب مجرب كما يقول، لكننا نخشى عليه من زلة لسان أو من "شعر" ينتقد به الوضع في حالة سكر أو ربما صحو يؤدي بحياته إلى الهلاك. يحذره هشام دائماً ويخشى عليه وعلى نفسه من هفواته. وأخونا هذا ينظر للحياة نظرة تختلف عنّا، لا يقلق ولا ينزعج ولا يغضب. أسأله متعجبة، متى تحزن وتغضب؟ يجيب، عندما يكون العمر ثلاثة أعمار وليس واحداً. المرة الوحيدة التي انزعج فيها عندما كان صغيراً حين اتهمناه بأنه "غشيم صغير" صار يبكي ويؤكد بأنه "غشيم جبير مو صغير". يؤمن بأن على المرء أن يعمل ما يرتاح له في حياته طالما أنه لا يؤثر ولا يؤدي الآخرين، وأن يأكل كل ما يعجبه ولا يحرم نفسه من شيء، ولا يقلق كثيراً على صحته لأنه لو تناول طعاماً صحيحاً ولم يشرب عرق ولم يدخن، سوف يموت ولكن بصحة جيدة ويكون غذاءً صحيحاً للدود.

أما هشام، لا يزال كما تعرفين، نفساً مرهفة في عهد غير مرهف. وقد فقد إحدى عينيهِ في الحرب وتقاعد من عمله وفتح مكتبة صغيرة ليعيش بين الكتب، وتخرج أولاده من الجامعات ولم يجدوا عملاً لحد الآن. غير أن كل أحلامه تحطمت وقلّ إيمانه بكل ما يتعلق بالثقافة والآداب والمعرفة ولم يعد يهتم كثيراً بينما أحرقت زوجته بعض من كتبه لإيقاد التنور، ولم تكثر له إثر تأنيبه الباهت: "كلها قصص، كم مرة واحد يقرأ القصة؟ خلي نستفيد منها أحسن ما العث ياكلها". لم تتغير خولة وتبقى على الطرف الآخر من ضفة هشام الذي يبدو وحيداً الوهلة بعد فقدانه لأخلص أصدقائه، البير وصالح وستار، في

فترات متفاوتة، ولم يبق غير لافي ومؤيد، اللذان هربا مؤخراً إلى دولة مجاورة، لأن الجرذان أول من يغادر السفينة الغارقة كما هو معروف. يقول هشام، أن لافي يشغل اليوم منصباً قيادياً في بلد شقيق بصفة معارض. كما اختفت أخبار مؤيد في بلدان المهجر.

تبعث أفعال أخينا حسّان الدهشة لدينا، وكما تعرفين أنه خطأ خطوات واسعة في مجال فن الإخراج، ورفض أن يساوم على مبدئيه برفضه قبول الأعمال الهابطة، غير أنه صار أحادي النظر وأنضم وزوجته إلى حزب السلطة عن إيمان. تغافل عن أيام الشباب والتعذيب الذي لقيه منهم وتناسى يوم جاءنا مدمى الجسد جراء تعذيب وتعليق بالمروحة السقفية وضرب بالصوندات. يبرر هشام موقف أخينا بقناعة لاغية للعقل، وبأنه ليس انتهازية وابتغاء مصلحة أو انتفاع شخصي، بل عن إيمان بمبدأ السلطة القاسية والقوية التي من دونها لا يمكن إصلاح أي أمر في دولنا، ولا يمكن التعامل مع شعبنا إلا بالكاريزما الفردية المتسلطة. رأيه هذا مغاير لرأي أبو الفوارس الذي يتهم حسّان بالاستفادة من الوضع الحالي لتحسين حالته الاقتصادية تزلفاً لمسؤولين وللحصول على امتيازات لإخراج مسلسلات، وبسبب تلك الاختلافات السياسية تبرّد علاقتهما وتسوء. وعن أصدقاء حسّان وأظنّك تذكرين عباس، فقد انتهى به الحال إلى معلم في النشاط المدرسي يدرّب الطلاب على اوبريتات موسمية تمجّد القائد. يرسلون عليه وعلى الأطفال ويجعلونهم ينتظرون في القصر حتى منتصف الليل، وحينما يأتي الرئيس "حفظه الله" يرقصون ويغنون أمامه نغماً، فيعطي المدربون العصير لهم بين وقت وآخر من أجل أن يصحوا ويبهجوا الرئيس. أما سعدون الطويل فقد استشهد المسكين في الحرب وترك زوجة وأولاداً وراءه.

لا أنسى ذكر جارتنا أم خليل فلقد جلبوا لها قبل سفرنا جثمانى ولديها، وطلبوا منها ثمن الرصاصات لأنها خائنات هربا من الجبهة وتوجب على العائلة عدم البكاء عليهما أو عمل مراسيم الفاتحة. ولقد توفيت المذيعة المشهورة جارتنا، التي كنت تركبين معها الباص حينما تذهبن للجامعة وتمتدحين جمالها وأناقتها، بعد أن أخذوها إلى مديرية الأمن وأشروبها عصيراً يقال أن فيه مادة الثاليوم، أما سبب تخلصهم منها بتلك الطريقة البشعة كما يُقال، هو أنها إما انتقدت خطابات السيد الرئيس وكثرة إعادتها على المشاهدين، أو تكلمت بكلام غير لائق عن زوجة الرئيس، وعندما جاء زوجها بدون إجازة من الجبهة لحضور دفنها، صلموا أذنيه باعتباره جبان وهارب من الواجب.

أنظر ملياً إلى سابق عهد لي وأتأسر، كيف كنا وكيف أصبحنا. دأب الكثير منا على ترديد عبارة "يوم تحقيق الأماني"، فما معناها اليوم؟ عبارة بلهاء وتصويرية خادعة. لن يأتي هذا اليوم البتة ولن تتحقق أي أمنية لمن هو مثلنا. قصارى القول، نحن شعب مغضوب عليه منذ بداية التاريخ حتى اليوم، وتاريخه مشحون بالنواح والقهر والظلم والعنف. أصحو وأفتح ذاكرتي على مصراعيها أحياناً، كنا أنفأ أسعد من اليوم، كانت بيوتنا صغيرة وغرفنا مكتظة، تمنح لنا بهجة أكثر من بيوت فارهة نضجر فيها اليوم، كنا ننام ولانقفل أبوابنا بالمفاتيح، نطمئن للجار والقريب والغريب، وكانت ثلاثتنا خشبية وليست فاخرة كما ثلاثتنا ومجمداتنا الكهربائية اليوم، وكان طعامنا بسيطاً، نتناوله بشهية وفرح ونحسّ بنكهة وبركة له، كل شيء تغير ولا يكمل، ما كمل غير الهمّ اليوم.

أتمنى لو أرسل لك دفاتري الخاصة بملخصات وتخطيطات

روايات كنت أقرأها، فكما تعرفين كنت أهوى الأدب كثيراً، وتدرकिन معي جيداً تأثيره على النفس البشرية، إذ يقال أنه عندما قرأ قيصر روسيا رواية دوستوفسكي "ذكريات من بيوت الموتى" أخذ يبكي وأمر بإيقاف الجلد الذي كان سائداً آنذاك في السجون الروسية. ويخيل لي بأن الحياة كما نجدها في الكتب هي أفضل بكثير من الحياة الحقيقية. سأترك ثروتني وجهدي المعرفي البسيط لك، هنا في بيتي، عسى أن تعودني وأراك وتتطلعين عليها، انها خير أنيس لي اليوم بعد أن خلت السوق الثقافية من المؤلفات بسبب الحجر الثقافي والحصار، كما واترك لك اليوم صوري القديمة ودفتر المذكرات. تذكرين كيف كنا نتناقله بيننا أيام الدراسة وكنا نكتب فيها عبارة: "الذكرى جرس يدق في وادي النسيان"؟. تلك الأشياء هي الذكرى وعسى ألا يكون هناك نسيان، فتعودين قريباً ويتغير الوضع. لكن، يا ثرى هل ستعودين؟ ومتى؟ يخامرني شك أن يحدث ذلك قريباً، هل سأكون أنا على قيد الحياة؟ هل سأراك ثانية؟ هل ستسقين معي زهور حديقتي ونجلس في مرجوحة الحديقة نتسامر ونسهر؟ أخشى يا حبيبتي أن يغيبني الموت قبل أن نتلاقى ويتحقق حلمنا باللقاء، (خائف تطول دروبكم ونظل أبد ما نشوفكم). يا الهي! كم علينا اليوم أن نحفظ بالناس الذين نعزهم ونجعلهم معنا وحولنا لكي نسعد في حياتنا بهم ومعهم ولا ينبغي أن نؤجل ذلك قدر الإمكان.

أسأل في الختام عنك، وعن طفلك، ولو تصلك هذه الرسالة مبكراً، اكتبني لي، لأننا راجعان إلى الجحيم بعد اسبوع من اليوم.

كوني بخير ولا تتأثري من أي شيء فالحياة قصيرة وعليك أن تعيشي بإيجابية مهما كانت الظروف.

أختم رسالتي بهذه الأبيات للبحثري:

" صنت نفسي عمّا يدنس نفسي/ وترفعت عن جُدا كل
جبس/ وتماسكت حيث زعزعي الدهر/ التماساً منه لتعسي
ونكسي/ وكان الزمان أصبح محمولاً/ هواه مع الأخسّ
الأخسّ".

أختك المحبّة فردوس

كنت على وشك ختم الرسالة بمقولة الرئيس القائد القاعد
على قلوبنا والجاثم على صدورنا: "يا محلى النصر بعون
الله".

متنزه

يسود فضائي هدوء يلائم وقار وقت مميّز من زمن الطبيعة، يحل شتاء بارد لا تصمد حيال قسوته طيور تفضّل الدفء، تشكرني على استضافتها مودّعة أعشاشاً أوت إليها زمناً وتحلّق مهاجرة أسراباً. تومئ الأشجار لها بالتحية، منتظرة وعداً منها بالرجوع، في حين تكتم وجع عطشها وبردها آملة بتجدد وربيع آخر، ولا تلبث تنمو في الوقت الذي ينام فيه البشر فيه وينعمون بالدفء، فحياتها بسيطة حانية، لا تسأل الطبيعة كما الناس، عن وقت نمو أول شجرة أو زمن تفتح أول زهرة. كعادتها، تفرح أشجاري حينما تكون مأوى وملاذاً لكائنات غير بشرية، أو لمّا تمنح ظلاً للبشر، تعطي ثمراً، تلطّف هواء. تفعل كل ذلك وأكثر، لكنها لا تجيد استخدام الفأس ولا تحترف مهنة الحطابة، تغدق بجذوعها لتصير ورقاً، أثناءً، زورقاً، مصاطب، لكنها لا تستعبد إنساناً لخدمتها. تحطّ عصافير على أكتافها، تبرع في الشدو، لكنها لا تعرف صناعة الأقفاص مثلما يفعل البشر، ولم تضع يوماً إنساناً في قفص. تهبّ زهور على أرضي أريجاً وبهجة لناظرين، غير أنها لا تقطّع أوصال بشر ولا تهدي بشراً لزهور أخرى وتضعهم في مزهرية.

أشهد زائرين حاملين مظلات إتقاء المطر، وعلى مصطبة في منأى عن البلل، يجلس السيد الكاتب، وبجواره السيدة

مفكرة، "تكنيك الرسائل في السرد ليس جديداً حسب ظني. يعتمد البعض لنقل معلوماتية إخبارية تقريرية، كي يملئ به أحداث فترة زمنية طويلة، لصعوبة التواصل الزمني".

يحكي السيد كلاماً يَصْغُبُ عليّ استيعابه، عن رغبته في كتابة سرد متمثل في صورة المشهد ومشهد الصورة، في بصرية القص كشكل يكمل التعبير عن واقع إنساني ناقص، عن مفردات غير نخبوية تزاج بين ماهو عامي وفصيح، عن أمور تتعلق برؤيته. يتوه في داخل أفكاره ناسياً وجودها، تستعيده إلى عالمها:

- برأيي، الوطن صناعة سياسية، كما أن البلد محض ماض وأرضه تغدو يوماً بعد آخر مرتعاً للذكرى، الأرض التي يرتاح المرء فيها هي وطنه.

لا أعرف هل هزّ الكاتب رأسه موافقة على رأيها أم تأييداً لفكرة نطّت إلى ذهنه فجأة. أراه يفرك راحتيه إتقاء برد قبل ان يخرج من حقيبتة أوراقاً تتلقفها السيدة بانتظار تنمة لأحداث المحكيات.

- ستكون الأخيرة.

لحد اللحظة لا أفقه سبب لقائهما عندي كل مرّة، لماذا لا يتلاقيان في مكان آخر طالما انهما لا ينتبهان إلى وجودي؟

المحكية السابعة

ما بعد الأعلام



"لا نهارَ هُنا لِثَغْلِقُهُ على ضِجْكاتِنا / لا ليلَ نَفْتَحُهُ
ونبكي/ لم أَكُنْ شَخْصَ الحَكايةِ / كُلِّها أَصْلاً / ولم يَنْبُتْ
لِسانٌ في فَمي لِأَصوَعِ شَخْصاً أو خيالاً أو قنَاعاً/ ولم
يَكُنْ جَسَدي خَفيْفاً/ كي يَحْلِقَ قُرْبَ أَحلامي/ فَأُولَدَ مرَّةً
أُخرى/ فَحَزَمْتُ الحَكايةَ حَوْلَ (نَفْسي) مارِقاُ / ما بيّن
قوسين/ وأشعلت فتيلي / وانفجرت"

ليل

مترع بسكينة وهدوء. ألملم آخر خيوط الشمس، أعبّئها في أحشائي بلون أسود. ظلام، مغيب، غروب، دهماء، عتمة، كلها أسماء ومعانٍ تلازماني، تنتقص إلى ضياء وبهجة. تهدأ المدن، تصمت الدور، ترقط قطط بيتية، تغفو الزهور، ترتاح النهارات والأجساد، لكنني أبقي صاحياً، فأنا المساء، أطرح "العديد من التساؤلات".

يحلّ وقتي في بيت فردوس، أرى السيد مجيد جالساً على أريكته المعتادة في الصالة، مفرّجاً ما بين ساقيه. يلبث في مكانه طويلاً حتى يخلف جسمه حفرة بحجم مقعده، وحفرة أخرى على ظهر المقعد بحجم رأسه. لا يخرج من الدار ولا تتجاوز خريطة حركته محيط غرفة نوم ومرافق صحية أو أريكة مفضّلة يذكرها فارس في شعره: هل أتاكم نبأ رجل القنفه / يذهب بها إن طاف إلى عرفه / عسى اللي يزعجه موت اللي كرفه/. تتلخص سيرة يومه بثلاث فقرات وثلاث أمكنة؛ النوم في غرفته، الأكل في المطبخ، الجلوس على الأريكة أمام التلفزيون، وبما أن عدد ساعات الاسبوع 168 ساعة، يستهلك منها 68 ساعة في النوم، ست ساعات في الطعام وفي قضاء حاجاته، وأربع ساعات في فتح وغلق الثلاجة بدون سبب، أما ما يتبقى، أي 90 ساعة، فيقضيها

جالساً على أمام شاشة تلفزيون باحثاً عن جهاز التحكم في القنوات متشكياً متسائلاً على الدوام: "وين الـ - ريمون- مال التلفزيون؟".

يتابع كل نشرات الأخبار والدعايات ما بينها:

"أخي المواطن، لا تقتل طبيباً، لأن الطبيب يعالج المرضى ولا يستطيع البلد الاستغناء عنه..." "اضحك اضحك يا عراق... الدنيا تحبك يا عراق".

يسخر من كل شيء، من الإعلان وتفاهته، من زوجته فردوس حين تطلب مساعدته في ترميم قوس نبات ياسمين مكسور عند مدخل الحديقة، ومن نيدابا، ما أن تعرب عن رغبتها في الخروج، ينبري بالنصح والتحذير، مطوحاً بكفه في الهواء يميناً وشمالاً، "بطرانة، يا شارع رشيد، يا متنبى! والانفجارات تملأ البلد".

يعزو كل مصاب يحدث إلى نظرية المؤامرة، من أحداث الحادي عشر من سبتمبر إلى كسر صحن صغير في المطبخ. يلقي تبعة كل ما يجري من بلاء في العالم على مخططات امريكية وصهيونية. يتنبأ بكل ما سيحدث في البلد، ويفتخر بعلمه وتحليلاته لما جرى ويجري. يعرّج على أمور حدثت أيام خدمته العسكرية، يعيد قصّها مستشهداً بشرفه العسكري، وبتناجين وأربع نجمات في بدلة عسكرية محفوظة في حقيبة تحت السرير منذ تقاعده. يدخل في حديث طويل عن أيام حرب ساهم فيها في الشمال، وعن حروب أخرى لم يساهم فيها، فيشبعها تحليلاً. يعيب على محللين وخبراء سياسيين يظهرهم على الشاشة الصغيرة ضيق خبرة عسكرية وسياسية. يجزم بأن أي نائب عريف سابق، أفهم وأثقب نظراً من هؤلاء الطارئين. يعود من جديد إلى تذكر الزمن الجميل، أيام العزّ

والإحترام، يستغلها فرصة للحديث عن مكانته الاجتماعية وعن رتبته المحترمة، عن تحيات عسكرية رنانة يسمعها لدى مروره في أي مكان وأسماء مراسلين خدموه سنين طويلة. يقدّس كلمات مثل؛ حاضر سيدي، تؤمر سيدي، ويستعذب أيام مجد مضت. لا يلقى حديثه تجاوباً في من حوله. يعود مجدداً إلى التعليق على غريب رغبات لنيدابا مثل إصرارها على النوم في سطح الدار ورؤية نجومى: "هاي وين نايمه، ما تدري بالأمريكان والصهاينة، حتى الكمر والنجوم باگوها من سمانا".

ينوّه مجيد إلى اعتياد نيدابا على هدوء عيش وراحة بال في الخارج دون مواكبتها لأوضاع صعب ومحن، إلى عدم معاناتها من حربين وحصار وحنطة سوداء وشاي نشارة خشب. يضيف قائمة طويلة أخرى من "عدم" و"لم". يعيب عليها ابتعادها عنهم، مع علمه أنها خرجت قسراً ولم تكن تعيش على "النستلة" في الخارج، مثلما تعقّب أختها.

تغيّر فردوس قناة التلفزيون لإنهاء حديث غير مجدٍ له. ينسجمان مع مسلسل تلفزيوني يومي. تشرح فردوس لأختها بعده عدم صلاحية السطح لنوم مريح بسبب حر، بعوض، غبار، وتلوث ناجم من دخان مولدات يحجب نجوماً لي تشتاق إليها، تتبع كل ذلك، مروحيات أمريكية، و"مروحيات عراقية" من ذباب مشاكس، أو يرميها انفجار قريب إلى حديقة الدار.

واحسرتها! أصير هنا أشدّ كلاله وأقلّ أماناً أكثر من أي مكان آخر، ليس كما وصف شاعر متغرب: "والظلام، حتى الظلام، هناك أجمل، فهو يحتضن الـ.."، علّها عين حنين لغريب أو جمال الظلام في أيام زمان. ليس كما سابق عهد وسطح، تكتفي نيدابا بأخذ راديو ترانسستور قديم إلى غرفتها،

تضعه قرب رأسها في سريرها، تستمع منه إلى أغان وبرامج
مخصصة لوقتي حتى حلول موعد النوم. تخنقني وتزعجها
رائحة غاز لمولدة كهربائية ويعكّر صفوي دويّ مبردة هواء
مستهلكة، (أين يا ليل صباباتي وأحلامي وكأسي أين؟)

على حين غرّة، يهزّ سكوني الجزئي صوت انفجار قوي،
يتبعه ثان، ثالث، رابع. تنهض نيدابا مذعورة من سريرها
مستفسرة عما يجري. تطمئنّها أختها من غرفة نوم مجاورة،
"نامي، نامي، هاذي مو مفخخات، مجرد قذائف هاون عبر
الشط على المنطقة الخضراء". تتبع قولها بتثاؤب وصمت.

يهدأ صوت المولدة، تتوقف المبردة القديمة عن الحركة في
انتظار تشغيل الكهرباء الوطنية، يتسرب من جلد نيدابا عرق
غزير، يجفوها نوم، تخشى إغماض عينيها، تتقلب على
السريّر، يعلو في بالها صوت وصورة زمن آخر، سطح دار،
جرّة فخار باردة، صينية رقي مقطّع، نجوم تلمع، بنات نعش،
أسرة قريبة من بعضها، كُلل من قماش ململ بيضاء، كركرات
أطفال داخلها، رائحة أسرة، آخر نصائح لكبار سن، في ليل
آخر لا يشبهني.

يسود صمت صلب بين جنباتي، لا يثقبه سوى صوت شخير
مجيد من غرفة مجاورة، متواصلًا حتى بواكر صبح جديد.

* * *

صبح

مالي أحسّ برونق غريب عكر يغلفني؟ أين مزاج رائق لي، لائذ بطمأنينة راشأ نداه على يوم عسر؟ أين إشراقتي تستهلها حمامة برفرفة جناحين على بيتونة السطح، وقطة دار كسيلة بتثاؤب وتمطي؟ أين جار يسلم من قلبه على جاره قائلاً، صبحكم الله بالخير؟ أين ضوضاء عصافير مألوفة، تزقزق على أشجار حديقة الدور ولا تجفل من صوت انفجارات أو صفارات سيارات شرطة واسعاف؟ أين إكتمالاتي يعيشها ناس دون حسرة على مسافر أو غائب أو آخر متأهب للرحيل؟ أين عذوبتي حين يشغل سائقو سيارات أجهزة الراديو على أغان تصدح بحبّ وورد وشمس (فتّح الورد الجميل، بين أحضان النخيل) و(روابينا الخضر حلوة وبديعة، صورة ملونة بسحر الطبيعة)؟ أين عنايتي وحنوي على شباب يخلفون ورائهم حال مرورهم، عطر كلونيا ماركة ريفدور أو بروت، ويضبطون فروق شعورهم بدقّة متناهية بكريم بريل، قبل أن ينشغلوا بتلميع أحذيتهم عند خروجهم للقاء حبيبات في انتظارهم؟ أين آمال لنيدابا أحملها في مطلعي؟

تطبّط على كتف جدتها زهرة بأصابعها الصغيرة عندما تسعل، تطمئنّها بأنها ستصير دكتورة لتعالجها. تحلم بأن تصير ممثلة مرموقة، تطلع فوق أثاث زائد مهمل تتكوّم في فسحة خلف مطبخ بيتها، تلوّح بيدها لجمهور غير مبالية بظهيرة وحر

شمسها. تحلم بغزو الفضاء وأن تصبح رائدة تكتشف لغز السديم والمجرات. تتضاءل أحلامها ولا يبقى منها سوى حلم واحد تحجّر، تحلم طويلاً بعودة طبيعية إلى أرض تتركها قسراً، بعودة ليس كما عودتها اليوم.

أتغير وتتغير أحلام الناس؛ تبدأ صغيرة بسيطة ساذجة يافعة، تزهر، تنمو، تتوسع تغدو طموحة، تصير مستحيلة، مسلوقة، عسيرة وعصية عن التحقيق ثم تضمر. كلما أطلقوها من عقالها، تصطدم بصخور واقع لا تجدي معه إرادة غير جزعة ولا طموح غير مستكين ليأس، تغدو كزوارق ورقية، يتركونها في الماء. يودعونها مبتسمين لها، وسرعان ما تبحر مبتعدة عنهم لتتفتت تالياً من البلل.

أحلام نيدابا تتفتت، أمانيتها تنهاوى، لم تصبح دكتورة ولا رائدة فضاء ولا ممثلة. لم ترجع إلى أرضها إلا في رحلة قصيرة بعد سنين فراق لأطياب وأحباب ودروب غروب وغياب، لتشهد حالاً ليس كما توقعت وحلمت، في بلد "يموت الإنسان فيه كسير الفؤاد، ويُفنى البشر وفي قلوبهم الحسرة".

تتأملني وتتأمل حالها والطريق. تجلس بجانب أحمد في سيارته، توخزها أغنية: (راجعين نوفي بعهود العلينه، راجعين نفرّح النفس الحزينة). هل هي مسرورة بعودتها؟ مالها تحسّ بغربة تلدغها وأن كل شيء غريب عنّها. أسمعها تُغنّي بل تتحب كما عود قصب ثقبته الأحزان بعد رطوبة سنوات بعيدة، (عدنا لأيام الهنا، وبعد ما نحمل ضنى). صارت غريبة عن ملمسي وعن أغاني اليوم.

طريق طويل إلى بيت أخيها يبدو أنه لا يعرفها، تنكرها شوارع سارت عليها زمناً، لم تعد تحكي وتبوح كما الأمس.

- قف، قف

يأمر جندي غاضب ابن أختها أحمد بالتوقف عند نقطة تفتيش يحاول تجاوزها، يركل ببسطاله السيارة من الخلف ويوجّه نحوها جهاز ماكورميك لكشف المواد المتفجرة:

- أعمى؟ ما تشوف حاجز تفتيش؟

تتهادى في الشارع سيارات رتل أمريكي، مكتوب على آخر سيارة همر فيها تحذير، "خطر.. إبقَ بعيداً 100 متر".

يصرخ العسكري على أصحاب سيارات واقفة:

- على الترابي، على الترابي. اطلع من التبليط.

بعد الرتل، تمرّ قوات سوات المجهزة بأسلحة خاصة وأزياء عسكرية قتالية. تتوقف كل السيارات العامة وتتعالى مسبّات وشتائم. ينعطف أحمد نحو شارع فرعي، يتبعه آخرون متسابقين فيما بينهم، مطلقين منبهات السيارات، ضاغطين على فرامل محركاتها. يعبر بعضهم الجزيرة الوسطية ليعود إلى من حيث أتى حينما يكتشف أن الطريق مغلقاً. يشغل أحمد محرك السيارة، يدير عجلاتها نحو طريق ترابي بديل، يجده منتهياً بسيطرة أخرى. يتسلل إلى داخل السيارة غبار خائق، تسعل نيدابا ويتعفر وجه صبوح لي. لا أعجب لو يوجّه الناس سخطهم نحو بعضهم البعض في هذا البلد.

لا تعرف نيدابا كم يغدو وقتي صعباً أثناء الانتقال بالسيارة من مكان إلى آخر في هذه المدينة اليوم؛ انتظار لا يُحتمل، سيطرات، ازدحامات، شدّ أعصاب وفورات حنق، وإن يصدف وتمرّ سيارة مسؤول في هذه اللحظة، يتعقد الأمر. يحلف أحمد بأنه سيرجع إلى البيت إذا تأخر أكثر. تهدئه خالته بكلمات غير مجدية. تفلت من فمه شتائم ويتمتم بينه وبين نفسه: "خوات

القـ... شلون زمالو غية، لو بيهم خير يكشفون الارهابي الحقيقي مو يذلّون المواطن بهذا الحر... شوكت راح نوصل اليوم؟ لو جايب أدوات الحلاقة، راح تطلع لحياتي من طول الانتظار... لا ونسيت حبوب الضغط، ياريت عندي حبوب ضد ضغط الحياة وضغط الانتظار مو بس ضغط الدم".

يصرخ أحد حرّاس السيطرة:

- مستعجل حضرتك؟ نزل الجامعة؟

"لا زين أحمد، بعد بيك خبزة".

لاخير فيّ لو يتعكر مزاج ناسي في مطلع ساعاتي، أو يقضون أجمل أوقاتي وسط الزحام في سياراتهم.

* * *

سيارة

منذ اختراعي، أُعين البشر على قطع مسافات أرضية طويلة براحة وبوقت قصير. يختارون لي أسماء، تقنيات، معادن، ألواناً شتى. يدفع بعضهم ثروة ضخمة من أجل اقتنائي، وعندما أشيخ وأتعب، يمتلكني ناس فقراء. في الحاليتين، أرضى بنصيبي لو خدمت المترفهيّن أو الفقراء، لكن لو استخدموني كأداة للقتل في هذا البلد، أمر لا أحتمله.

في طريقه لبيت خاله، يبدو أحمد منزجاً أثناء قيادتي. تؤثر أشعة شمس مخلوطة بتراب على معدني وعلى مدى الرؤية. أفرح لما يفتح سائقي الراديو على أغنية شائعة، غير أنه يستفز سائقي سيارات مازّة بقربي، يستمعون إلى كلمات مقدسة وأدعية دينية. يتعمد أحمد رفع صوت الراديو غير مبالٍ: (أنا شُسُويت، عَذَّبني زمني). ينظر إلى خالته بطرف عينيّه، يراها مستغرقة بأفكارها، يبتسم، "سارحة في ماض فات، تحلم خالتي كثيراً وتعبد الأُمس، حتى الحياة القديمة صارت حلماً، تتكلم بحسرة عن الأمل، تأمل بغد مشرق آت رغم ظروف إنهيار إنساني وضمور قيم إنسانية في مجتمع يعلم المرء أنه لا يمكن أن يكون فيه إلّا بعد الذوبان في قوالب طائفة أو حزب أو عشيرة".

يشكو أحمد حالاً لا يكون فيه ميتاً ولا عائشاً، في وطن يحسد فيه البشر من يموت على فراشه، يقتصر تفكيرهم فيه

على متى سيموتون وهم أصلاً لم يحيوا، لا حول لهم سوى
التعكز على عبارات غيبية مواربة مبهمة، ينهون بها حالاً
ماجلاً، "الله كريم، وإن شاء الله، ويا ربّي". (أنا عمري
انگضى وما شفت راحة). تبكي خالته وتنوح على ما يجري
في بلدها، تشعر بالذنب لأنها تركته. "أعجب لهؤلاء
المغتربين، يحبّون بلدهم مثلما يحب رجل امرأة يصعب
نوالها، فما أن يقتربوا منها حتى يهربوا متخوفين من جهد
ومسؤولية، ولا يبقى من مفهوم الوطن في بالهم غير كلمات
لوعة في قصيدة شاعر، حسرة في حنين روائي، آهة في لحن
مغني، أو شناسيل في لوحة تراث"

أعذرهم؛ من السخف أن يموت أحد من أجل وطن لا يهبه
حق المواطنة والعيش بأمان. أخشى ما أخشاه هو أن تحطمني
مادة حمقاء بفعل شخص أحمق فأتحول إلى ركام يُلقى به في
السكراب، وسائقي يصير رقماً ميتاً في نشرة أخبار.

على طول شارع أمامي، تكتظ جدران بلافتات عزاء كحبال
غسيل سوداء منشور عليها أشلاء قتلى وضحايا. أعجب لهكذا
شعب يستشهد منذ قرون ولا يدري لماذا يستشهد، ويغالي في
كل شيء، في كمّ الأحزان، في كمّ الحب، وفي كمّ الكراهية.
قضى قمع سلطة وحروب على الكثير منهم وما تزال سجلات
الموت تزدحم بقتلى صراع طائفي، مفخخات، عبوات، كواتم،
ذبح، (مُرّة، مُرّة، والمرارة تزيد، للي ما يلگی في، وينتجي
على الشيب عمره). يصير كل فرد مشروعاً مباحاً للفناء في
وطن يصير مثل حقول جماجم يرعى فيها الموت واللحم
المتفحم والفواتح والقبور. هذه البلاد صارت عالماً ضاجاً
بالفوضى والفساد، وناسها بحالة جهل وأميّة في قراءة خبياتهم،
بحالة كسل في التعلم من دروسها، لا يتغيرون ولا يغيرون

رأيهم وإن أخطأوا، يؤمنون بالغلبة وتاريخهم تاريخ عناد، يعيدون تجاربهم ولا يتقدمون إلا في تخلفهم، ولتلك الأسباب يرحل عنهم طاغية ولا يرحل الطغيان، يروح ظالم ويبقى الظلم والظلام، لا أدري كيف تتحمل هذه الأرض كل أنواع تلك الأسلحة؟ كم يتحمل صدرها من ثقوب رصاص وحفر قنابل؟ هل بقي حزن في الكون لم يسكن في هذه الأرض؟ كيف يتمكن الناس هنا من احتمال أطنان كراهية وأكداس فواجع؟ (كون أذب ثوب الحزن وأنا بشبابي). هل صحيح ما يؤكد السيد مجيد بحكمته العسكرية، بأن ما يحدث اليوم هو مُخطط حتى لا يستقر البلد فتسهل قيادته ولا يرى نور شمس؟ أخشى أن يتحول بالتالي إلى دار كبيرة للأمراض النفسية، إلى مدرسة تخرج أعتى المجرمين. (بعدنا صغار ع الهَم والأذية). يحتاج ناس هذا البلد إلى حك صداً ملتصق بمعادنتهم، إلى تبديل زيوت أخلاقهم بين حين وآخر وإفراغ نفوسهم من سوائل ملوثة ببيغض وأنانية.

شوارع غير معبدة، تؤذي حفرها عجلاتي، قدرتي أن أسير هنا، ليس في تربة أخرى. يسبح احمد في لجة أفكاره، "عمر يضيع دون جدوى، أقصى آمنياتني أن أقول: اشهدوا يا ناس أنني عشت حياتي طولا وعرضاً، ولا يهمني ان أموت بعدها. ماذا رأيت من دنياي؟ فاشل كبير، عطال بطال، ضيعة حياة يانعة بين قضاء طلبات أب عارف بكل شيء وهو يقبع في داره، بين وين رايح، وامنين جاي، ووين هويتك، ومن يا عمام، ولعب إيدك وادفع، وجيب الحصّة، وجيب غاز، وانطفت الوطنية، وشغل المولدة، وحمت المولدة، جيب ديزل، انقطع القايش، خلص البنزين. الشيء الوحيد المفيد هو أنني صرت أصلح لمواصفات عريس مطلوب، لأن فتاة اليوم لا تبحث عن حب وشهادات مثل أيام زمان، بل عن رجل يعرف

كيف يشغل مولدة ويدبر للبيت غاز وكهرباء. لن أتزوج على الإطلاق، لن أنجب ضحايا جدد في بلد يمارس الحب سرّاً والحرب علانية".

عند ساحة عنتر، تجتازني سيارة تحمل تابوتاً، بينما يمرّ بجانبني موكب من سيارات مزينة، تنقل زفة عرس، تنطلق منها موسيقى صاخبة ويطلّ من نوافذها شباب راقصين هازين أكتافهم بفرح غير طبيعي. يُخرج أحمد رأسه من نافذتي مشجعاً: "إي.. شدّ، شدّ.. شَعَر شَعَر".

حمداً، لا يزال بعض الناس يحتفلون ويتكاثرون رغم كل شيء.

اللعة. أشهد على بعد مترين مخلفات سيارة شقيقة انفجرت ليس من زمن بعيد. لعنة على التفجيرات وأخبار الإغاضة. كل ما بقي في الموقع، محرك متفحم، بقع زيت متناثرة، برك ماء أستخدم لإطفائها، مخلفات معادن محروقة، شظايا زجاج متناثرة، وقطع اسفلتية اقتلعت من الشارع جراء قوة الانفجار. لو وصلنا ساعة الانفجار لرأينا أشلاء مقطعة لناس كانوا يمشون ويتحادثون قبل لحظات قليلة مثقلين بهوموم يومية، لم يتبق منهم بالتالي سوى قطع لحم وأطراف مقطعة و- نعلان- بلا أقدام. ينشغل أصحاب محلات تجارية قريبة بكنس زجاج متهشم لواجهات محلاتهم. يُنظّف آخرون لحماً بشرياً التصق بجدران دكاكينهم وتناثر على الأشجار. جمع آخر يدخن أمام بيوت خلت شبابيكها من زجاج، رافعاً أطراف دشاديش، متخصراً وصامتاً بوجوم، بينما تلفح الوجوه والنفوس حمرة حر وغضب. أفهم ما يقصده الناس على هذه الأرض، من اعتبارات نغمية في صوتههم ومن لغة أجسادهم حتى لو لم يفصحوا عنها بالكلام.

قمامة متراكمة، نفايات متناثرة، حفر مملوءة بماء راكد تغطس فيها عجالاتي، حواجز اسمنتية، صَبّات كونكريتية تلوح من بعيد، أشجار مقطوعة تعزیزاً لشعار إقطع ولا تزرع، سيارات أخوات لي متهالكات يسرن بتمهل، ينقر بينها شحاذون معوقون وأطفال جائلين في الشوارع، لا تضمهم مقاعد دراسة، يرتدون ملابس رثة ويبيعون أكياس نايلون ومناديل ورقية، يجرّ بعضهم عربات غاز أو يحمل على رأسه صواني حلوى لبيعها منادياً بصوت غصّ: "حاجة بألف، حاجة بألف". اعتدت أن يوقفني أحمد، فتنزل خالته لأولئك المشردين سائلة عن أحوالهم، ثم تعود باكية على "طفولة بائسة في وطن البترول"، مستفيضة بالحديث عن طرق لمساعدتهم، معربة عن تحقيق أمنية لها في تشييد وإدارة ملجأ لرعاية هؤلاء الأطفال. على الرصيف، ينادي بائع ملابس أطفال بصوت عالٍ: "أين حنان الأمهات؟ أين عطف الآباء؟ يله تعالي اشتري قميص لأبنج وفرحيه، تعال أخذ هدية لابنك". شعارات وكتابات عشوائية على جدران دور ودكاكين: "أين خدمات البلدية؟ انتخبوا الشيخ (...). حامي حقوقنا. ضد الارهاب، ضد الطائفية". تنحشر بينها كتابات مشاكسة ومقاطع من أغان شائعة (أنا بيا حال والدقان يغمزلي. بسبس ميو... راح وأيست منه غرگ بالماي).

عند إشارة المرور، يزعق شخص مجنون أشعث الشعر، "إحنه اللي بالطاوة ثلج گلينه، وبسامير بالهوه دگينه، وعلى راس النخل صلینه". يأتي صوت آخر، يشبه نبرة صوت لمحامي معروف: "لا حظ جنابك، لا كهرباء، لا ماي، لا هاي، لعد وين الديمقراطية مالتهم گواوید؟ بالعظیم ملینا، عمي ملینا من هلحال".

بعد التغيير، أيّ حال حلّ بالبلد!.

* * *

حال

ميزتي التغيّر وعدم الديمومة. بقائي على وضع واحد من المُحال، هكذا يعرفني البشر. أتبدل من ضنك إلى يُمن أو من نَعْماء إلى رُزء. يعزّي بعض البشر تغيّري إلى إرادة خالق، "ما بين غمضة عين والتفاتتها، يغيّر الله من حال إلى حال"، وأشهد تبدلي في حياة ناس كثيرين، من بين هؤلاء، هشام.

يقابل أخته بفرح، يرحب بها، تقابله بعينين دامعتين متسائلتين: "أين كل ما مضى؟ أين البيت؟ أين الحديقة؟". لا تدرك أن الناس تغيروا، فما بال الأماكن! يتهاى لها بأنها حالما تعود، ستجد كل شيء كما تركته وحملته في بالها لعقدين ونيف.

في بيت أخيها، تخطف بصرها لوحة على جدارٍ عمَلَتْها منذ زمن بعيد من عيدان كبريت مرصوفة بزخارف متباينة على شكل مزهرية، ورودها، فلتر سجائر محشوة بتبغ، أراد فارس يومها أن يشعل عود ثقاب فيها نكاية بها وبكل من أطرى على مهارتها الفنية. تطوف بنظراتها في أرجاء الصالة، تتجه نحو راديو قديم يعود إلى والدها ومزهرية قديمة أهدتها لوالدتها يوما ما. تتوقف عند مكتبة خشبية كانت عامرة بالكتب، تخزن فيها خولة اليوم كيسي طحين ورز الحصة التموينية، بعدما أفرغت كتبها في كراتين ووضعتها تحت السرير. يفهم أخوها نظرات حزينة في عينيها. يشرح لها كيف مسّهم العوز وقت

الحصار وكيف باع محتويات مكتبته العزيزة ولم يحتفظ إلا بالقليل النادر من كتبها. ما يحيرُه ويحيرني، أن نبدأنا لم تتغير في عاطفتها، في تعلقها بأمر قضت، في زمن شحّت فيه النوايا الحسنة والمشاعر الحميمة، **"بعدها على عهد الأول"**.

ترحب بها خولة بشكل مبالغ فيه وتقدّم لها مشروباً بارداً. تسألها عن وضعها في سنين غربّة قضتها، تجيبها بابتسار. تباغتهما بذكر والدتها: "أريد شي من ورث أُمي".

ينظران إليها مندهشين محرّجين ضجرين، باحثين عن كلام يقولانه، **"شتريد من عدنا بعد هذا الوقت؟ ما يكفي هي عايشه برّه ومرتاحة؟"**. يبدأ هشام بمسوّغات لتبرير ما فعلاه بنوايا حسنة، وقتما أخذ رصيد الوالدة لإكمال بناء غرفة إضافية لولدهما عندما تزوج، ووقت احتاجا فيه ليرة وخواتم ذهب كانت تمتلكها لتزويج ولد آخر غار من أخيه، وحين باعا تحفاً وأنتيكات لإجراء عملية، و... و...

يفخران فاهيهما حين تقاطعهما، "ما أريد شي... بس مشط شعرها، وفوطتها".

يصمتان مذهولين، يحاولان استيعاب ما تقوله أو ما خفي منه، يتأكدان من جديتها، ترتاح ملامح قلقة تكسو وجهيهما. يستحقّان في سرهما من رومانسية ما زالت تمتاز بها. سرعان ما يهرعان باحثين عما تطلبه بين كراكيب متروكة. يجدان مشطاً بعض أسنانه مكسورة، يضيفان إليه بسخاء، ليفّة، حجر حمام، ثوباً ومنديلاً.

يشكو هشام من تغير أوضاع اقتصادية تجعل قيمة العملة في الحضيض، تجعل من يستجدي لا يرضيه مبلغ ألف دينار كصدقة. يحاول إضفاء جو من التندر والظرافة على مجلس

بارد. يحكي لأخته عن حادثة حصلت قديماً عند بيعهم البيت "الجديد" بألف دينار والذي كان في ذلك الزمن، مبلغاً ذا قيمة، فيسأل نيدابا وفارس عند استلامه المال هل يحبّان السباحة بالفلوس، حين يهزّان رأسيهما بالايجاب، يقف على السرير ويقوم برمي الدنانير عليهما وهما جالسان على الأرض، يتظاهران بالسباحة ضاحكين. يعرّج بالحديث على سرقات سياسيين ومسؤولين في الوقت الحاضر لأموال ليست بالآلاف أو بالمليون، بل بالمليارات. يتجاهل تلميحات خولة عن أن بعض الناس يكرهون الغنى ولا يسايرون التيار في إشارة إليه. يسود صمت ميت عقب ذلك.

يحكي هشام عن أيام متشابهة لحياته يعيشها بدون إدراك لقيمتها، عن هجرة حسّان إلى بلد قريب بعد استلامه رسالة تهديد بالقتل في داخلها طلقة، عن فارس المسافر إلى بلد آسيوي لغرض العلاج، حسب ادعاء لا يصدّقه. يقرأ من هاتفه، قصيدة شعرية، يهديها فارس إليها: "هيّا اندبي يا نيدابا/ فلقد ضاع العمر استلابا/ وكل ما فات كان محض سرا/ فالدهر قد سامنا مرّ العذاب/ وكل ما حلّنا به آل إلى الخراب/ مضى خمبابا وجاء ألف خمبابا/ فماذا نتوقع من بلد كهذا غير الزراب./ يخبرها كيف أن "الشاعر" لم يأخذ باقتراحه حول استبدال المقطع الأخير بأغنية (دكي دكي يا ربابا). يحكي هشام أيضاً عن تغيّر المفردات الشعرية مجازة للواقع الحالي وتضمينها كلمات مثل تفجير، تفخيخ، جثث، دم، وعن فرصة يتيحها الانترنت حالياً للإطلاع على نتائج الغير وسهولة سرقتها وتركيب منتج مشوّه منها. يخفي عنها تحليل فارس لشخصيتها في شعره: حاملة نادمة/ كالحة نائحة/ شگّاء بگّاء/ ساخطة ماخطة. لكنه يشيد برأيه في أن الحياة مثل محتويات

كتاب، محصورة بين غلاف أمامي في البداية وخلفي في النهاية، الغلاف الأول ولادتنا، والأخير موتنا، كل يوم، نقلب للأمام أوراقاً في وسطه لا نستطيع بمرور العمر تقليبها إلى الخلف. لا يشغل فارس الغلاف الأول ولا الغلاف الأخير، فهو يهتم بما هو بينهما ليجعل من سنين العمر قصة حسنة مريحة دون تعقيد ويتصالح مع حياة متغيرة، لا مثل آخرين، يصنع خيالهم أغلب متاعبها، وأوهامهم معظم همومها.

يبحث هشام عن حديث آخر يشغل به الصمت، لا يسعفه أي موضوع مشترك. "لا حديث مشترك بيني وبينها غير حديث الماضي". ينقذه اتصال ابنه بالموبايل من غرفته، مستفسراً عن موعد الطعام فتهرع خولة نحو المطبخ. يمسك بجهاز تحكم التلفزيون، يفتحه على لقاء منتظر بين صديقه القديم لافي، وصديقه مؤيد، بعد عودتهما من الخارج وانتمائهما إلى أحزاب حاكمة وإلى البرلمان. يطوح بيده في الهواء، مبتسماً بسخرية من تغييري في نفسي صديقيه ومعتقداتهما. لا يعجب من تصرف لافي لبقائه على مبادئه، لكنه يشجب سلوك مؤيد الوجودي الملحد. يتجاهل تعليقات لخولة تشيد بشطارتيهما، وتنصح باللجوء إليهما لإيجاد عمل وكسب مزيد من المال.

يتطرق هشام إلى كل متغيراتي في البلد. لا يسره وضعي في بلد الموت المجاني حيث يمسى السؤال الشائع فيه، كيف مات؟ أين مجلس العزاء؟ هل وجدتم الجثة؟ ومع ذلك، أكرر القول أن لا تأسوا لأن دوامي من المحال، علّ ما يحدث الآن، يُنجبُ وضعاً انتقالياً يمهد لحاضر نقي. يعود هشام للحديث لافتاً إلى انعدام ثقة الناس بالسياسيين، بأقوالهم، بمصادر ثروتهم، بكل دعوة تصدر من كل ذي مال ونفوذ. ينتقل إلى مواضيع شتى مثل تدني النتاج الأدبي والفني في واقع يقيم

الأديب بالجائزة والفنان بما يجنيه شباك التذاكر والرياضي
بسعر بيعٍ إلى نادٍ أو فريق.

تسهم نيدابا. لا تتفوه بكلمة. يطلب هشام منها دفن الماضي
بدلاً من الادماع عليه. توافقه بهزّة رأس. تتملّل. تصوّب
نظرها نحو الباب، لا تطيق بقاءً رغم مغريات عديدة،
كاستخراج صناديق الكتب من تحت الأسرة، أو دعوتها إلى
أكلة سمك.

ينقذها اتصال تلفوني يضطرها لتوديعهم ومغادرتهم. لا
يعرفون سبب دعوة ابنة الخالة لها ولا يزعجون أدمغتهم
بتفسير سر لهفة نيدابا وتعجلها بالخروج. لا يمكنهم أن يتفهموا
سحر قوة خفية في أوردتها تبعث فيها نسغ الحياة وجدواها. لا
تستوعب مخيلتهم ما قد يفعله بالإنسان العشق والهوى.

* * *

هوى

"هو الحبّ/ تارةً يتلوّى مثل أفعى، يمارس سحره في أنحاء القلب/ طوراً يهدل كيمامة، على حافة نافذة بيضاء/ يبرق على الجليد المتلألئ/ يظهر في غفوة القرنفلة/ يخطف راحة البال بعنادٍ وصمت/ ينتحب برقة/ في صلاة كمان معدّب" تعجّ كتاباتهم بي، تفيض صفحات حياتهم بمعانيي، بصفاتي، بتأثيراتي. أتوافق مع رغبات بعضهم، يسعدون بي وينتشون، أضفي على حياتهم رقة، أجمل علاقاتهم مع بعضهم، مع الأشياء، مع كائنات أخرى غير بشرية، يغيّرون أنفسهم أو قد يضحّون بها من أجلي. تحوّل ظروف بيني وبين نوالهم، يمضون أيامهم في تعس، ذارفين دمعاً ساخناً، مسحوقين في لجة شقاء وكرب.

أتعتق كسائل مشاعر كثيف القوام في أنسجة نيدابا، أطوف معها أماكن، أعبر أزمنة، لا تنساني، لا تنساه، تلبثه في قلبها، أمنيتها رؤياه. بعد قليل ستشهدني أمامها، ستراني في مخلّد.

ينطلق أحمد مسرعاً بسيارته نحو بيت ابنة خالتها، تجتازهم سيارة عسكرية لجنود يخرجون أنصاف أجسامهم وأسلحتهم من نوافذها. يصرخ سائقها على أصحاب السيارات الخاصة طالباً منهم التنحي إلى جانب الطريق وعدم الاقتراب. تمرّ سيارات أخرى بسرعة في مشهد يغدو مألوفاً راهناً.

يصمت ابن أختها. يترك راديو السيارة يترنم: (ردّي بينا
تؤنا يا دنيا كبرنا). هل سترجع بها الدنيا؟ (تؤنا يادنيا صدگ
ورّد عمرنا) هل تأمل أن يورّد عمرها الآن بعد سنين مححلة؟
هل ستظفر بجواهر حياة وفضة عيش؟ علام ارتباكها كأنها
تعيد تركيب أجزائها؟ لماذا تسارع وجيف قلبها حينما اتصلت
بها ابنة خالتها تُنبؤها عن إمكانية لقائه؟ (توهن دموع الفرح
فاضن بدينا). حاولت بجهد إخفاء مشاعر تلبك في بيت أخيها
هشام، لم ينتبه أحد إلى ذلك، ربما ارتاح الجميع لمغادرتها.

تعيد في قلبها ما قالت ابنة خالتها: "ما طلبتيه عندي"، (ردّي
بينه، عيون أهلنا متانيه يمرّها ضوا).

حقاً؟ بعد كم عمر وكم خيبة، كم دمة وحسرة... بعد ماذا؟
بعد خطوات غازية لشيب على شعر رأس... بعد ماذا؟.
(وسنين عمري گضن، وثّة وحسافة وويل). تحتاج اللحظة إلى
ترتيب حواسها كلها وضخ حواس أخرى إضافية داعمة لكي
تقابله، إلى إطلاق طيور اشتياق قلبها نحوه. أخيراً ستري
مخلّد... حلمها. (ياحيف مرّ الوكت، واحنه تطشرنا).
هل اقتربنا من البيت؟ لماذا صار الطريق طويلاً هكذا؟. في
حلم نحن أم في صحو؟ ما لقلبها يبور بي كقرص رغيف
ساعة وضعه على تنور ساخن؟ ونفسها، ما لها تفرش بكرم،
مأدبة لهفة، فرحة، سحاباً يجود بمطر، قطاف حقول سنابل
وقطاف ببادر؟ تتلمس أجزائها، تتأكد من عدم بعثرتها. (واحنا
بقايا جرح، لا تشوف ممشانا). كيف يتسنى لها تماسكاً وتوارياً
عن مراتع حلم ما انفك يقطن جسد أيامها كوشم عجوز؟ كيف
لعطر طال شوقها إليه أن يكتم رائحته، يستتر بشذاه ولا يفوح
في النفس والكون ضوعاً؟ هل يبقى ما يقال في حضور موسم
الهجرة إلى الندي وإلى ذاكرة وثيرة للحب؟ ما من شيء

سيجعلها تحزن بعد اليوم، لا أنا، لا ماضيها، لا قلق حاضرها، لا غربتها، لا وحشة روحها، ولا دروب تشردها (والأمل بينا كبير، همزين عدنا أمل، واحنا بتوالي العمر، ما خذنا خوف وخجل).

"ها أنذا على مرمى ابتسامة منك يا باذر البسمات، ها أنذا مزركشة بك، أهفو إليك يا ماس أحلامي، بعد أن أكلت المنافي عيون قلبي وأتعبتني خشونة الانتظارات، يا تاريخ الحرير ومهج الفراشات، هبني لقياك ليجعل ما تبقى من أيامي ملساء صافية"

تستقبلها ابنة خالتها بترحاب. يودعهما أحمد مسرعاً ليصل داره قبل منع التجوال. تدخل صالة كبيرة تطل نوافذها على حديقة دار مهجورة، تلج غرفة ضيوف معتمة. يملأ نظرها أثاث فخم وأرائك مغطاة بقماش سميك يحميها من غبار وشمس صيف غاشمة تتلف الأثاث. تُوصيها قريبتها وتذكرها بـ"الوصفة الذكية لكي تكوني قوية"، قبل أن تذهب لإجراء مكالمة تلفونية، "إذا أكو آلام بالطريق، طنشي وامشي، حتى تعيشي".

كل شيء هادىء حولنا، ما عدانا.

أخيراً ستراه. تتذكر عنوانه من رسائل يبعثها يوماً، ما يزال جار قريبتها.

أرسل فراشاتي تحلق في جسدها، في نفسها، أصغي إلى ترنم همسها:

"ستاتي إذن أيها الحبيب، أو أجنيك أنا لأراك، لا فرق. بعد كم عام؟ هل سيغمي عليّ حينما نُقبل؟ من يلمني لو تناثرت وانهرت أمام جلال بهائك ونوافير ضوئك؟ ماذا سأقول لك؟

كيف سأبدأ حديثي معك؟ هل أستهلّه بتعريف نفسي كما خاطبتك يوم تعرفت عليك؟ اسمي نيدابا عبد الهادي. ستكون بداية سمجة بعد عمر طويل وتمازج روعي. هل أستخرج ماسة حكاياتك وتفاصيلها من منجم ذاكرة عصية على نسيان وتلاشٍ؟ تحضرني الآن بكل اتقاد صور ضبابية عن لون قميص أزرق سماوي كنت ترتديه، قطرات عرق ناعمة متزاحمة على جبهتك، شعر أسود وزلفين عريضين، رائحة عطر مفضل لديك، إيماضة عينين تبحث عن أجوبة محالة، سخونة زفرات من صدر تعب، صمت يضجّ على شكل شعر أو أغنية، (متى ستعرف كم أهواك يا أملاً، أبيع من أجله الدنيا وما فيها... يامن يفكر في صمت ويتركني) حبك يا مخلّد حلمي شاق وأليف، عصيّ ولين، يتشامخ ويتشابك كما حبل سرّة في وجدان يهفو اليك ويحيا بك، أمشي معك أنى تذهب رغم طريقين مختلفين مرسومين لنا يصعب تلاقٍ فيما بينهما، أنا على يقين بأن دربيننا يلتقيان ولو طال زمن وشحب أمل. هذه اللحظة، هل تُراها لحظة ما قبل انطلاق رصاصة أم لحظة إطلاق سراح فرح؟ كوني واقعاً لا يغادرني أيتها البهجة. هل كثير عليّ ذلك؟"

يا لعزة اللحظة وجلالها! يا قوى الكون العظيمة النبيلة الطيبة، هبينا قوة ساعفة بقوة تلك اللحظات، امنحنا مقدرة على تحمل ما هو آتٍ بجلّد، كوني لنا سنداً، متكأ، راعياً، مُنجداً. دعينا نراه بملء عيون مفتوحة على وسعيهما، بأمضى نورين وأوج شعلتين، دعيه لا يزوغ عن بصرينا أو لا نصاب بالعمى. يا لحظة انتشاء ماردة، اتركينا مأخوذين بسحره، نرتشف رحيقاً من الذي عاصر الرحيق فانسكب في عصارته. مالي أجدني لا أقوى على التماسك فيها الآن وأنا الذي حلّ

بين ثناياها سنين طوال؟ هل أصابني شلل مفاجئ كما حالة زاهد في أوج تصوفه؟ كم تريت شجرتي على موسم الإزهار؟ كم انتابنتي مواسم قحط؟ لكن مهلاً، لأكفّ عن هذا اللغو، ها قد حضر موسم الجنى الآن. سأثبّ جذلاً كطفلٍ يجهل الهرم، سأرقص باللغة والألحان، سأغرد بحناجر كل حساسين الكون. ومع ذلك ينبغي عليّ تهدئتها قليلاً. رويدك نيدابا. أغمضي عينيك، تجولي في رياض الأحلام بتمهل، ارتشفي الرحيق قطرة تلو أخرى كي لا تغصّي بالجمال والفتنة.

تففق على صوت ابنة خالتها مرحبة به:

- تفضل، تفضل خويه... آ... أروح أسوي چاي.

أضطربُ فأجعل قلبها يضطرب بي ومعِي، يتمرد على أضلاع هو بينها قافراً في رغبة خرقاء لأن يشهد الجميع على فرحه وشبابه. يزداد تنفسها حدة وتشوشاً، يعلو تارة، ينقطع أخرى، حالها مثل حال الذي يدنو من فوهة بركان يشتعل. ما هي إلا امرأة أنتهكها بكل جبروتي وبلا تعقل، فأثى لها أن تعرف كيف تتعامل مع هذا السحر؟ تعجز عن لمّ سنابل ملانة تتكدس في أوعيتها، تصاب بالربيع في خريف عمرها. هل سنين فارغة عاشتها تُسمّى عُمرأ؟ عُمرها هو عُمرِي، عُمر زهور مشاعر رهيفة تشكّل سلماً إلى شرفات فرحها.

"هل سأترك يدي بيده للأبد حينما أصفحه؟"

لَمْ لا؟ افعلي ما تشائين.

"هل أقبله؟"

كلا، كلا، سوف تأتين عليه فيخلص، أو ربما سيلفحه ضرام شوقك فيحترق.

هراء. من غير الممكن أن أنصحها بالتريث في وقت أكون أنا نفسي فيها متأججاً. تنعكس ظلال غسق قاتم على هيئة القادم، حاجباً رؤية جليّة. (وكفاية وجه محبوبي، والباقي كله يتساوى، يا حلاوة الدنيا يا حلاوة). نتخليله يكبر بنفس صورة بهية نخزنها له في الذاكرة؛ يزداد وزنه، يمتلأ قليلاً مثلاً، يخف شعراً رأسه، تكسو وجهه تجاعيد جرّاء تدخين وطبع حزين أو ضيم سنين. سيتغير يقيناً.

حالما يدنو، تحدث صدمة تغمرها بدهشة بائلة تمتص ضوئها.

يقف أمامها شخص آخر تماماً.

ينظر إليها بزائغ عيين لبرهة، كمن يتردد أو يرتاب من شيء ما.

تهرع نحوه، تمدّ له يداً على أناملها قلب يخفق ويأبى البقاء بين الضلوع:

- مخلّد حلمي... ما نسيّتك أبداً يا غالي.

يرفع رأسه قليلاً. تلمح أول ما تلمح، قامّة تنقصها استقامة وثقة، وهيكّل عظمي لبقايا إنسان. تمتد يده نحو رأسه، يصقّف بقايا شعر أبيض مشعث، يُعدّل هيئة قميص مجعد فقد لونه، يضبط حزام سروال واسع وبالي. يمدّ بالتالي نحوها، يداً باردة شديدة النحول، نابساً بصوت متحشرج:

- نيدا يا عبد الهادي. يا ريح جابتك أخيراً؟

على حين غرّة، يمتلكها شعور رمادي تغالبه، تحجم عن عويل يُغرق الكون، تمنع تدفق كلمات توشك على السقوط من فمها وقلبها، كلمات بعبير رياحيني وعصارة أريجتي؛ "جئت

لأراك يا أملاً عشت من أجله وأعيش لأجله، جئت أقول لك، كنتُ وما زلتُ أعشُّقُك مهما تكون. أنت، نعم أنت المرتجى والمُبْتَغى والمُنْتَهَى والمُشْتَهَى، لك من الأسماء أعذبها ومن الصفات أرقاها".

تغوص عيناها في عينين تشبه رماداً خبا جمره. تهمسُ بعد صمت:

- جابتي ريح أيام جميلة فانت، ريح صداقة وزمالة و... عشرة ما تأثرت أبداً لا بنوء ولا بعواصف.

تسمع تنفسه عسيراً مثل نفس مصاب بربو حاد. يبتلع ريقاً ناشفاً كما لو كان يتجرع رشفة من قارورة تَوَجَّعَ مرّ. يضع يده على ظهره هذه المرّة. يطلق زفرة لاسعة ويجلس بهوادة كمن لا يقوى على طول وقوف:

- ليش جيتي؟ شنو الوضع بزّه مو أحسن؟ جيتي تشوفين بؤس وجوع وخراب وفوضى، لو دبابات احتلال أجنبي وتمزق؟ هه... أكيد سياحة تعاطفيه وخيريه مثل الأجانب.

تللم أذيال حبورها، تسمح له توغلاً في جروحها. تَمَادَ إذّاً يا مَخْد... تَمَادَ.

غريب أمر هذا "المُخْد"، كيف بمقدوره أن يتفوه بكلام كالذي أسمعته تواء وهو الترافة والحرير؟ من هذا؟ ماذا فعلوا بحبيب العمر؟ من هم هؤلاء الجناة؟ أي زمن يملك جرأة على جرف بساتين وتبديلها بفيافٍ، على تحويل خصب لقفز وأعياد إلى مآتم؟ أي قدر حلّ بك يا مَخْد الروح والذكر؟ كيف جاز لك أن تفعل بنا ذلك؟

- مو مَخْد اللي يحكم عليّ بهاي القسوة وعدم الفهم. تعرف اني بعدني، مثل مي حاضن بردي وقصب، ومثل جرف

ميفارق الشط. تريد اوصفك نيدابا بعد أكثر، لو تعرف زين
منو أني؟

يتحنج. يبدو مثقلاً بهوم، باهتاً بلا لون، بارداً كماء في
جرة فخارية مهملة:

- نيدابا، أني طعناتي أكبر من الفرجة. اللي راح أبد ما
يعود. خليك بعيدة أفضل. شنداوين حتى تداوين؟ أني مسربل
بجروح، وماكو أحد يلّم الدم ويرجعه للجسم بعد ما يطشّر. ما
أريد تشوفيني بهاي الصورة، ما أريد أسبيلك أذية ولا ألم... لو
تروحين لو تخليني أروح، أفضل... يكفي ما صار.

ينهض مثلما جلس بصعوبة دون أن يصافحها. لم يفعلها
مطلقاً، لم تلمس يده يدها على الإطلاق طول فترة علاقتهما
ولليوم.

يطمر المكان سكون غبي لا يتماهى مع صخب أوعية دماء،
مع سوائل أوجاع تغلي وتفور في مراحل بدنّها. تتبعه دون
وعي إلى باب الدار. تتأمله كيف يمشي ببطء، ساحباً رجلين
ضعيفتين متعبتين ومبتعداً عنها.

تنهمر دموع قديمة من قلبينا، ودموع من مُقل أخرى كثيرة
غير عينينا لم نكن نعلمُ سابقاً أننا نمتلكها، ألقاها بكفوف
رأفتي، نرقبه حتى يصل إلى منعطف الشارع، يلتفت نحونا،
يُخيل لنا أنه يبتسم ابتسامة غامضة قبل أن يختفي. مخلص، هو
مرادفاتي بل معانيّ في عشق، هيام، غرام، هو حب حقيقي
بعظمه، بعظّمته، بدمه، بدموعه، بجراحاته وإشكالاته.

"مخلّد هو حلمي، هو بدايتي، بداية الكون، بداية البشرية،
ليس من المعقول والمأمول والأصول أن تكون له نهاية. هو
ماثل بلحني ولحمي. مُترام، واسع، مثل محيط أرى بدايته ولا

أعرف أين ينتهي. أظل أعبّ من رشوف رحيقه، أحمل صليب
آلامه دون يأس وكلل، ويظل في طيات ذكرياتي وتراث
حياتي، كما أندلسي الأخيرة".

لا تفهم معنى ابتسامة يودعها بها وهو يختفي عند نهاية
الشارع، تحاول تفسيرها. هل يقصدها فناراً يرشدها ويأخذها
إليه يوماً ما إلى مدى قصير لباقي حياة قليلة مقبلة؟ هل يعني
بها تهكماً لضياح حياتها وأحلامها فيه سدى؟ لاتدري. لم تشأ
أن تدري. مع ذلك يبتسم لها، يسعدها عدم تجاهله لها، فالتجاهل
أسوأ أنواع الوداع.

أرْبُتْ على آلامها، أحاول مساعدتها والتخفيف من حزنها.
علّها تحتقرنني الآن، ربما تنتشكك بوجودي أصلاً:

"ها هو حلم أحلامي يبتعد حينما أقترّب منه. ها هي
جوارح خيبة تأكل عيون آمالي وأيامي. ها هو غياب آخر
يلّوح لي بمحطاته. ما أنا فاعلة؟ انتظرتك طويلاً لتضيف
شمساً لسماي وكوني وكنت ملاذي حتى وأنت غائب. ما
الذي تفعله بي؟ أه منك ومن أوهامي".

لا تحتمل الأسى، تصرخ، أصرخ مع صرختها:

"مُخلّد حلمي (أي وهم أنت عشت به؟). أريد منك ما ذهب
من عمري في عناء والتّياغ وأنا بعيدة عنك. أريد ديناً لي في
ذمتك. أريد منك آمالي وخالصة عمري وشبابي. أريد منك
أحلامي. أريد صور بهاء وجمال حلمت بها وحملتها معي
طيلة فترة غربّة ووجع. هل يعقل ألا نتلاقى وأنا أحفر لك
تضاريس وخارطة على شكل قلب في قلبي؟ ماذا تريد أن تقتل
فيّ بعد؟ ماذا بقي لي لأستكمل حياتي؟".

أترك لها فضاء التأمل، لوم الذات، أو الأجدى، اتخاذ قرار.

أتحزمين بقايا روحك وترحلين كرهة أخرى؟ هل هي هجرة أخرى إلى ما لست تعرفين؟ أما شبت رحيلاً يا نيدابا؟ قضيت عمرك متكفة، هاربة، تتركين الأمور دون أن تنهيها. أضحي شكلك القلق يزعجني. كيف تجرؤين على الرحيل في وقت يصعب عليك تصور حياة لا يكون فيها مخلد هو حلمك؟ هل حان لك أن تقومي بنزع أشواك وهَمَّك وهَمَّك، أم أنت في انتظار لأحد ما لينزعها عنك؟

"هل أفرّ بجلاي وبقلبي من هنا؟ هل أهرب وأشيح بجسد ألمي عن ملح يوضع على جروحه. لو بقيت هنا سأموت من روعي. (أنا من ضيع في الأوهام عمره). كم كنت واهمة؟ وكم كانت عودتي محالة، كما عودة مطر إلى غيمته البعيدة، أوخيوط صوف إلى ضائنها الحزين؟".

"كلّ شيء في الحياة ينبض باضمحلال وضمور/ رغباتنا تتآكل في كلّ حين/ لا أمل لنا إلّا باندفاع صوب البركان/ للخلاص من رطوبة سنوات عشناها/ ونحن لم نحلم بأكثر من/ حياة كالحياة".

تعيش نيدابا بين الامتعاض مما وصلت إليه وبين الفخر بما احتملته وبقيت صامدة. أظن أن أصعب إحساس يسحقها الآن هو خيبتها في الأمل.

* * *

أمل

يحملني الناس في بالهم وأفئدتهم، يضمّنوني في كلامهم، حواراتهم، أشعارهم، أغانيهم. ناسٌ يائسون، مترقبون، محرومون، صابرون، ومع ذلك لا أعرف من اخترعني، من أوجدني، من فكر بي لأول مرة؟ ما أدركه هو تأثيري الايجابي عليهم. أواسيهم، أنهض بهم، يأخذون بيدي، يسرون بمعيتي منتظرين كل ما هو حَسَن.

تتشبث بي نيدابا. أشكل لحم ذاتها ونسيج تكوّنها. تعصر أيامها لأخرج منها قطرة قطرة. تسقيني وترعاني أكثر بعد رؤيتها لابتسامة خاطفة تطفر من ثغر مخلّد وكأنها آخر ورقة خضراء تبقى معلقة على شجرة يقتحمها الخريف. تفسر ابتسامته بأنها دعوة من طرفه للإنقاذ، تشجعها على الرجاء، تدفعها إلى انتظاره، تنشد باصرار: "تَكْبُرُ تَكْبُرُ / فمهما يكن من جفاك / ستبقى بعيني ولحمي ملاك / وتبقى كما شاء لي حبنا أن أراك. تقف عند الباب تترقبه رغم علمها بأنه قد لا يأتي. ها هو لا يتخلّى عن عادة متأسية سيئة له، لا يكاد يمكث طويلاً قبالتها، حتى في مناماتها، يأتيها ثم يختفي فجأة قبل صحوه مباغتة.

تسأل عنه. تشيح ابنة خالتها بوجهها عنها. تسمعها كلاماً مُحبطاً عن عدم جدوى الانتظار: "بعدج تنتظرين؟ ماكو فايده".

في مطلع مساء موحش داكن، عند دكان بقال على ناصية شارع فرعي بلا اسم، تتراقص أضواء خافتة لقناديل نفطية، تسمح بمجال رؤية مشوشة فيه. ثمة نساء ورجال يتسوقون لوجبة العشاء. تخرج نيدابا من دار ابنة خالتها إلى الشارع. تقترب بحركة متمهلة من الدكان، من ضوء الفوانيس الخافت، من متبضعين ومازّين. يبادرُها البقال قائلاً بتعاطف: "عمي بعدج تدورين عليه؟ الله يساعدج". يعيد على مسامعها كيف أن مخذ استشهد في الحرب ولم يعثر أحد على أثر له بعد ذلك، وأنه لا يُصدّق بل وينفي ما قاله قائل عن رؤيته له باحثاً في القمامة عن لقمة عيش في حالة لا تسرّ صديقاً ولا عدواً.

تتدخل امرأة متوسطة العمر تتلفع بملابس سوداء:

- لا يمّه. راح ويّ أهله، الله يرحمهم، ما أدري لو بقصف الملجأ لو بالتفجير مال الارهاب. إي عيني، كلنا حضرنا التشييع مالتهم، صاروا فحم، سوده عليّ، منظرهم يفطر الصخر، مسكين، شلون شاب! ألف رحمة تنزل على روحه.

يعارض المرأة رجل بدين، يرتدي دشداشة بيضاء ويحمل خضروات ذابلة في سلة خوص مرّقة:

- لا بابا. أني سمعت والعياذ بالله، أنه مريض بمرض مزمن شفاءه صعب، ويحتاج إلى وقت طويل وأخصائيين ولد حلال عدهم ذمة وضمير حتى يتعافى، ندعيه بالعافية وننتظر يوم اللي يوكف بيه على رجليه.

تدلف الدار بروح لائبة، تستفسر من ابنة خالتها مرّة أخرى عن سبب تخلفه ولماذا لم يحضر لليوم. تتفحصها قريبتها بشفقة كما لو تتطلع إلى معتوهة. تتحدث لها بأسى عن أخبار اعتقاله والحكم عليه بالاعدام بعد تنكيل وتعذيب، عن فقدان أثره في

مقابر جماعية، عن موته من حصار وجوع. لكن لو كان حياً، لا أحد يعلم كيف يعيش وفي أي حال من فوضى وتمزق.

تطبّط على كتفها ناصحة: "إرجعي من وين ما جيتي أحسن... خلّي ذكرياته الحلوة بصندوق ولقفلّي عليها بمفتاح. إنسيه".

تخرج ساهمة. تسحبني معها. أصحابها طائعا. لم تخبر أحداً إلى أين. توصيها قريبتها أن ترجع للدار قبل حلول الظلام تلافياً لاختطاف أو منع تجول. تنتظرها. غير أنها لا تعود.

يحكي سائق تاكسي من المنطقة كيف أن نيدابا ركبت معه إلى مركز المدينة، ينوّه متفاخراً بذكائه، أنه عرف بأنها غريبة وقادمة من الخارج. لأنه لا أحد هنا، يبتسم وينطق بكلمات مهذّبة مثل؛ "لو تسمح، من فضلك، رجاءً، شكراً، عفواً". يذكر بأنها طالبت منه الوقوف عند بناية لمجاً أطفال مكتوب على بوابتها "معروض للبيع"، ونزلت هناك. يتذكر جيداً ما قالت له، جملة لم يفهمها لحد الآن: "ما احترگ من يابس، خلص احترگ، علينا اليوم بالأخضر اليانع". يظن أنها قد ذهبت لتتبنى طفلاً من هناك أو لتشتري الملجأ. تؤيد قوله قريبتها، في محاولة لتصديق كل شيء وأي شيء عن لغز اختفاء ابنة خالتها، تحكي لمن حولها عن تعلق نيدابا بأطفال الشوارع وتعاطفها معهم.

رجل يجلس في المقهى القريب من الدار، يخبرهم بأنه قابلها عند منتصف الجسر الجديد. يحكي عمّا رسخ في باله وأدهشه عنها. يتذكر جيداً نظرات فزعة لها وهي تتجه نحو النهر. يُنزل استكان الشاي من فمه رافعاً نظره إلى السماء، متضرعاً داعياً الستر والأمان، مشيراً بخفية إلى الكثير من جنث الغرقى التي تطفو على شاطئ النهر هذه الأيام.

جارية، قادمة للتو من المطار بعد توديع ابن مسافر، تحلف بأغلظ الأيمان بأنها لمحت نيدابا في صالة المغادرين، لوّحت لها بالسلام، لكنها لم ترد على سلامها: "إي عيني، أخذت على خاطري منها، وعتبت عليها لأن ما سلمت علي".

يتدخل مجيد زوج فردوس لائماً، "تستاهل"، لأنها لم تصغ إلى كلامه رغم تحذيراته من خطر الخروج في ذلك الزمن العصيب، ها هي لن تعود بعد اليوم، ربما أختطفوها. يهزّ رأسه واثقاً من صواب قوله. يمسك بجهاز التحكم ببقنات التلفزيون، يفتحه على الأخبار، علّه يسمع نبأ متعلق بها.

اتركوها وشأنها، يخبرهم هشام. اتركوا نيدابا تدافع عما تبقى لديها من عمر وزهر. دعوها تُحقّق الاندماج مع اسمها وتاريخ القصب، ربما ستبدأ حياة أخرى من مكان آخر في محاولة لكي تسلو كل ما مضى، ربما ستعود يوماً ما وكأنها خلقت من جديد. لا يخشى هشام من إنطفاء وهجها ولا من سأمها من أحلامها ومثي.

تترك ابنة خالتها أشياء لنيدابا كما هي عليه؛ فنجان قهوة لم يعد ساخنًا، كتاباً لم تُكمل قراءته، زهرة قطفتها من الحديقة توشك على الذبول، رجّع أنفاس خافتة، عيوناً معلقة على أبواب، نشرة أخبار مسائية تنقل أنباء فوضى عارمة وتفجيرات عديدة في البلد. تستذكر ما قالتها لها قبل خروجها في اليوم نفسه، تستعيده مرات ومرات ولكنها لا تفهم القصد منه، تتذكر بأن نيدابا سألتها باستغراب عن سبب اختفائه ولماذا لم تسمع منه أبداً، وتستفسر عن اسم غريب.

تسأل ابنة خالتها الذين حولها:

- منو عقلائيل هذا؟ تعرفوه؟

تطلع تباشير فجر شاحب غامض يطلق سراح أشعة شمس
واهنة. ينتشر ضياء وئيد عبر أشجار نخيل متساوقة مع أفق
ناهض بلون ليك مبهم. ها أنذا الأمل خلف المنظر، أرقب
طائري الغائب، أشتعل، أخبو، ثم أتحول إلى قطعة فحم.
تلتقطني يد صغيرة من الأرض، تخطّ بي وجوهاً بثغور
مبتسمة على شرفات ظمّانة في الأفق.

متنزه

تتخاطف كمشة طيور في سمائي حائرة في قرار انتقاء
شجرة يمكن أن تحطّ عليها لتبني أعشاشها. يلفت انتباهي
عاشقان يتناجيان بهمس وتلامس أيديهما بانسجام. أدرك بأني
حي ما دام هذان العاشقان لن يرحلا عن أرضي ويتخذاني
ملاذاً دون القصور. لكن ما بال ثنائية الحياة البشرية تتدخل في
الحزن بعد الفرح وتظهر جلية بمقدم السيدة؟

"لم يبق في المحطة إلا الفوانيس خافتة / وخريف يسير
بعكاز ورد / وتترك حزنك بين التذاكر / ..لم يعد في المحطة
إلا غناء المغني/ وسافر هذا إلى وجهة ليس يعلمها أحد/ ترك
العود في آخر المصطبة حزيناً / وكراصة للأغاني الجديدة /
للقاطرات التي لا مصابيح فيها / لتذكرة ثقبت مرتين/ لمن
فضلوا على أن لا تضع الأغاني".

تتقدم السيدة نحوه ولسان حالها يقول، "تفاصيل غزيرة
وتوهان في أماكن وأزمان، لا أدري لماذا يسطرها السيد
الكاتب؟ لماذا يكتب، هل من أجل أن يهرب من حياته وواقعه
إلى حياة أخرى في الورق؟ ربما يعتقد بأن أسنى تكريم
لأشخاص مروا أو مازلوا في حياته، ولأماكن وأزمنة مرت أو
مازالت في عالمه، هو بكتابة حكايات عنهم وعنهم ظناً منه
أنها ستكتسب ديمومة على الورق وليس فقط في ذاكرته".

- ما الذي كنت تبغيه يا سيدي من كل ذلك؟

- لا أدري. ربما كنت أكتب لأستمع إلى نفسي وأتجاوز معها، لمتعة الكتابة نفسها، لتدوين خيال وصورة حدث ماضٍ وليس لنقل الماضي بعينه، لأرشفة معلومات وتوثيقها، لتلخيص ما خبرته حول ضرورة عدم إضاعة العمر سدى في إرجاء ومؤقتية بانتظار أحلام مُحالة دون تمعن في راهن وتصالح معه، وها أنذا قد انتهيت.

تبعث له الطبيعة صوتها مرصعاً بنسيم منعش وتغريدة طائر، بجمال ورود ويناعة عشب. أيها الكاتب المختبئ في أوراقه وقلمه، قال حكماء من البشر: "لا تترقب الحديقة فحسب، بل اعمل من داخلك ومن ذاتك تلك الحديقة، انتق ما يلعب من الذاكرة وامح ما هو مطفأ منها، أقض على أعشاب ماضٍ ضارة، إرمها تحت جزمة كلمات تكتبها ثم انسها، لا تتكئ طويلاً على جدار منغصات وتفجع، ما من شيء سيء حقاً، سوى التفكير الجاد بكل ما هو سيء، إلقِ أوراقك، إلقها وأنظر حولك، لا تكرر قولك بأن الكتابة عملية انتحار ممتع، لا يهنأ أبداً من ظل سائراً وهو على علم بأن الرصاصة في طريقها إليه".

لدهشتي، أراه يجمع أوراقه، يرتبها جيداً، يقف حيالها متأملاً مبتسماً، يتركها على المصطبة. يرفع ذراعيه عالياً. يتمطى كمن يولد تواً. يستنشق بعمق هواء كأنه يدخل إلى رنتيه لأول مرة. يسير برأس مشرب وبنشوة عارمة نحو أشجار تنمايل، تنحني له وتحببته: مرحباً بك أيها الإنسان. هيا. لا تبالي بشيء، سنغني معاً، سنكتب أجمل حكاية لنا سوية.

يذهب معها دون أوراقه.

- ماذا تفعل يا سيدي؟ كيف تجرؤ على إهمال أوراقك وتركها على المصطبة؟ مهلاً، إلى أين أنت ذاهب؟ هذا العمل ينبغي أن يرى الحياة وأن تراه الحياة.

لا يعير الكاتب لها أدناً صاغية.

تمدّ الطبيعة ذراعيها نحوه، تطوّقه ويطوّقها باندماج مبهر. تطلّ بوادر ربيع بهي بطيور عائدة إلى أشجاري ويتهادى نسيم مبتسم مشاكس يطوّح أوراق الكاتب فنتطاير أرضاً.

تنشغل السيدة بلمّها ووضعها في حقيبتها رغم دهشتها وحيرتها. يلمع في عينيها خاطر، "أتراه قد ألقى عن كاهله ما كان يَمُور في نفسه فكتب عنه وانتهى الأمر؟ يقولون، أن الخلاص يكمن في دواخلنا وحدنا وأن لا سبيل إلى التخلص من هاجس إلّا بالكتابة عنه. لكن، هل سترتاح روح شاغلته فلا تدقّ بمطارقها على ذهنه، هل سيخلد إلى الراحة بعد اليوم؟"

تخفي السيدة المخطوطة في حقيبتها، وتضمّر بخصوصها نية في نفسها.

حينما تنوي المغادرة، تنتبه إلى كتابة منقوشة على المصطبة تلمحها لأول مرّة:

لذكرى امرأة كانت تجلس هنا وتنتظر. الأمل لا يُفنى

* * *